امرأة للماضى

رواية

تأليف

محمد ابراهيم محروس

obeikandl.com

طبعة ٢٠١٧

محروس،محمد

امرأة للماضى: رواية/ محمد ابراهيم محروس– .- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

٢٦٠ ص,٢٠ سم

تدمك: ٧ ٤٧٤ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

obeikandl.com

امرأة للماضى

رواية

تأليف

محمد ابراهيم محروس

obeikandl.com

أطلس للنشر والانتاج الاعلامي ش.م.م.

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢٢١٥٦

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٤٧٤-٧

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : امرأة للماضى

المؤلف : محمد ابراهيم محروس

الغلاف : أحمد الصباغ

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikandi.com

امرأة للماضى

أي تشابه بين شخصيات الرواية وشخصيات حقيقية هو محض افتراء من المؤلف على شخصيات قابلها في حياته.

محمد إبراهيم محروس

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

كان القطار قد قطع نصف المسافة من القاهرة للإسكندرية عندما ارتفع رنين هاتفي المحمول، نظر جاري لي وأنا أتأمل الهاتف لبرهة وهو يواصل رنينه، وتطلع لعيني بحزم غير مفهوم وكأنما يقول لي رد يا أخي، ألن ترد.

أخذت شهيقًا طويلاً كأني أستطعم الهواء، وشعرت بالهواء محبوسًا في صدري لوهلة، رفعت الهاتف لأذني ببطء؛ فجاءني صوتها هادئًا دافئًا مليء بالغنج ويحمل ملامح نوم لم يذهب بعد، قالت في خفوت ودلال: هل وصلت؟

أخبرتها أنني في نصف المسافة تقريبًا، قالت بصوت هادئ شديد الرقة إن فتحي ينتظرني في المكان الذي قالت لي عليه، وأنها جهزت كل شيء، ونبهت عليَّ وهي تعيد اسم المكان على مسامعي ألا أنسى ككل مرة العنوان.. كنت قد سجلت العنوان بالفعل في ورقة.

وأكملت أن الشقة جاهزة لاستقبالي، عليَّ فقط أن أنتبه لنفسي وأسلمها ما اتفقنا عليه في الوقت المحدد وبلا تأخير، أجبتها أنني سوف أفعل بالتأكيد.

قالت إنها تعتمد عليَّ كليًّا في الأمر، فهي مستعدة الآن لتفوز بالجائزة التي حلمت بها طويلاً، فلن أؤجل فوزها، ودعتني بكلمات رحبة أن فتحي معه كل ما يلزمني من مصاريف وما اتفقنا عليه، عاتبتني على ركوبي القطار، وسألت لماذا لم أركب أتوبيسًا أو ميكروباصًا؟ كان سيكون أفضل توفيرًا للوقت والجهد.

وعدتها ألا تقلق، فإنني لا أرجع في كلامي. قالت إن كل ملاحظاتها قد سجلتها في رسالة سترسلها لي على البريد الإلكتروني أو الفيس بوك، وإن فتحي عصبي طوال الوقت، الأفضل أن أتعامل معه بأريحية وأن أوافقه على ما يطلبه مني حتى لا يضيع الوقت هدرًا. قلتُ لها أنه لا وقت لدي لاصطدام بفتحي أو غيره.

أنهيتُ المكالمة ووضعتُ التليفون في جيبي بعد وعد مني لها أنني سوف ألتزم بكل ما اتفقنا عليه، تطلعتُ لجاري الذي يبدو أنه كان يتابع حواري معها، فابتسم تلك الابتسامة الصفراء غير المفهومة وهو يقول لي: تقيم في الإسكندرية؟

هززت رأسي بلا، حاول أن يجذبني لأحاديث جانبية كثيرة، آثرت الصمت. وعندما وجد أنه لا فائدة مني لزم الصمت بدوره لدقائق وهو يتطلع من شباك القطار، ويتمتم لنفسه بصوت هامس بشيء ما.

عاد لثرثرته بعد دقائق وهو يقول: السكة الحديد لم تعد مثل الأول، زمان كانت الدقيقة محسوبة وكل شيء بوقته، الآن الإهمال ضرب كل شيء بدءًا من رئيس المصلحة حتى كمسري القطار.

هززت رأسي وعدتُ لتدوين ملحوظة صغيرة في دفتر بين يدي، قال وهو يتلفت حوله: ماذا تعمل؟ إنني مفتش سابق في التربية والتعليم، شكلك مدرس.

وعندما وجدتُ أن الأمل في أن يصمتَ أصبح معدومًا قلت في اقتضاب إنني مؤلف.

اعتدل في كرسيه وعيناه اتسعتا دون مبرر وهو يقول لي: هل أنت مؤلف بحق؟ من الذين يكتبون القصص والحكايات؟

أومأت برأسي فقال وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

لدي قصة مجنونة؟

نظرتُ من نافذة القطار وأنا أهمس أن وقتي لا يسمح بسماع القصص وأنني مشغول الآن بأفكار أخرى.

قال إن ما لديه لن أجده في أية قصة قرأتها من قبل، ويجب أن أسمعها فهي فرصة لا تعوض، وربما سبب تعارفنا الآن أن أسمع قصته لتصل للناس، إنه توفيق اللّٰه.

كنتُ أريد الوقوف ومغادرة مكاني، فوجدته يميل ناحيتي ويقول سأحكي لك. وعندما شاهد تبرمي تراجع بظهره قائلاً: من الواضح أنك لا تريد أن تسمعها الآن، والوقت قد لا يكفي لقصها عليك، سأعطيك تليفوني وعندما تجد وقتًا كافيًا اتصل بي وسأخبرك بقصة ستغير مفهومك كله عن الحياة.

أومأت برأسي مستسلمًا؛ تهربًا من ثرثرته، وهو يقول مكملاً أعطني رقمك سوف أتصل بك، وسجل رقمي، اسمي فريد.. فريد العطار، اسم صعب أن تنساه.

لأول مرة من بداية جلوسي رحتُ أتأمله جيدًا، كان في أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات، أبيض البشرة تشعر بأن ملامحه أجنبية، شعره أسود ويبدو أنه يصبغه، عيناه سوداون متسعتان في ألق ملحوظ.

تذكرتُ قوله أنه كان مفتشًا في التربية والتعليم، إذن هو كان، والآن على المعاش، إذن عمره فوق الستين، لا يظهر عليه.

سجلت رقمه حتى أبعد إلحاحه عني، لن أتصل به، ولن يتصل بي هكذا دومًا ما يحدث مع رفيق السفر، أنت لا تختاره وهو لا يختارك، ولكن دومًا الثرثرة وطول السكة تصنع ألفة مؤقتة وخصوصًا لدينا نحن المصريين.

كان القطار قد اقترب من محطة سيدي جابر، بدأت أجمع حاجياتي وأرتبها في الحقيبة الصغيرة التي أحملها معي، لم آت بالكثير فقد قالت منال أنني تقريبًا لن أحتاج لشيء، الشقة جاهزة لكي أعيش فيها شهرًا كاملاً دون النزول لجلب أي شيء، وإن فتحي سيكون مسخرًا لخدمتي وتنفيذ طلباتي، بشرط أن تكون معقولة.

أخيرًا توقف القطار في محطة مصر، سلمت على فريد العطار وأنا أعده أنني سوف أتصل به عندما أجد وقتًا لسماع قصته، شدد على كلامه لي وهو يضغط على يدي بالسلام، اتصل سوف أنتظر مكالمتك.

الإسكندرية، والمطر الخفيف الذي يفاجئك فجأة، فلا تعرف هل بدأ أم ينتهي؟! ولكنه يعاود الاشتداد.

حملت حقيبتي على كتفي وخرجت خارج المحطة، أشرتُ لأول سيارة أجرة تمر، ورميت نفسها بداخلها، قلت له العنوان من الورقة التي أحملها، رغم أنني كررته لنفسي عدة مرات قبل أن أشير للتاكسي.

جاءني اتصال آخر سريع من منال وكأنها حددت بالفعل موعد وصولي وتنبأت به، فأخبرتها أنني وصلت وركبت التاكسي وفي طريقي لفتحي، قالت: وهو ينتظرني، وأنهت الاتصال.

قطعت السيارة الشوارع، لمحت الترام وهو يمضي ببطء من أمام أحد المقاهي، بينما تعبر من أمامه سيارة لا تهتم بسرعته.

المارة لا يتوقفون للحظة رغم المطر الذي تزايد لدرجة ملحوظة، وما الذي كنت أنتظره في يناير في الإسكندرية ألم يكن المطر.

عندما عرضتْ عليَّ منال الأمر، كنتُ قد وعدت نفسي أن أوافق.

سنوات طويلة ولم أتقدم خطوة واحدة، فلتكن تجربة منال تجربة مغايرة، حتى في مساوئها، عشرة آلاف جنيه وشهر في الإسكندرية في ظروفي هذه فرصة لا تعوض.

ما المانع أن تضع اسمها على رواية أنا كتبتها؟ ما الذي سوف يتغير في العالم؟ هل ستتوقف أمريكا عن جبروتها؟ هل سيتوقف سيل الدماء في سوريا والعراق؟ هل ستتوقف دماؤنا نحن المصريين على أن تراق في حوادث وقتل وسرقة وتجبر؟

لا شيء سوف يتغير إن أعطيتها الرواية، فهي من أشد المعجبين بها من البداية، وما الذي سيعود عليَّ أصلاً من كتابتها، الشهرة، الشهرة لا تجيء لأمثالي، هذا شيء أدركه جيدًا، لقد عرضت منال الرواية على الناقد الشهير بعد اتفاقنا على أنها من كتبتها، قالت إن الرجل طار بالرواية للسماء وقال إنها تستحق جائزة البوكر وستترجم لعدة لغات وأعاد النسخ الورقية من الرواية لها مع بعض الملاحظات والتوجيهات البسيطة قبل أن تعيدها لي.

تذكرت هذا الناقد عندما أعطيته روايتي الأولى ونصحني أن أجد عملاً آخر غير الكتابة. «الكتابة لن تؤكلك عيشًا، وأنت شاب، حاول أن تعمل في مصنع أو شركة، جرب أن تفتح مشروعًا حتى لو بدأته بالفول والطعمية» حقًّا قلتها لمنال في استغراب حينذاك فقالت إن لديه فقط بعض الملاحظات البسيطة وهي أيضًا لديها بعض الشكوك حول الشخصية الرئيسة في الرواية، وعليَّ أن أعمل على تحقيق توازن ما بين الشخصيات، لا تريد شخصيات رمادية في الرواية، فالشخصية الرمادية لا مسكة لها ولن ترضي القارئ المصري، عليَّ أن أحدد الخير والشر، ولا داعي للجزء الذي يخوض في السياسة، ما الذي سوف أستفيده من أحداث عن دماء وقتلى ومعذبين، ليكن بها شيء من الحب، الحب إحساس لطيف حقًّا والكل يبحث عنه، قالت آنذاك أنها ستجلس طوال الليل لتقرؤها مرة أخرى وسوف تسجل كل ملاحظاتها عليها، ولن تترك هفوة دون أن تجد لها مبررًا دراميًا، وعليَّ لكي تتم الصفقة أن أعمل على تلك التعديلات. هي روايتك يا منال لك كل الحق أن تطلبي ما تشائين، اللعنة المطر لا يريد التوقف، أكره المطر، لست مثل الآخرين الذين يكتبون قصائدهم في المطر وعنه.

مشيت عدة خطوات حتى المقهى الذي من المفترض أن يقابلني فيه فتحي. تأملت الوجوه المارة، وبعض الجالسين الذين سحبوا كراسيهم لداخل المقهى تجنبًا للأمطار المتواصلة.

شعرت لوهلة بالغربة، حقًّا لا أعرف لماذا أخاف الإسكندرية؟! أشعر بأنها ستسحبني لعالم لا أعرفه، عالم ربما يضع نهاية لكل شيء في حياتي قد قررته من قبل.

ارتفع رنين هاتفي المحمول، كان فتحي المتصل، رددت وأنا أتطلع حولي، فقال لي أنه يراني دقيقة سيكون لدي سيعبر الشارع فقط، وعليَّ أن أنتظره بالداخل.

ضغطت زر إنهاء المكالمة وأنا أندفع للداخل، أشعر بالضباب يغلف عقلي عندما اصطدمت عيناي بالدخان الكثير حولي، سعلت وضعت منديلاً على أنفي لثوان، قبل أن أجد نادلاً يشير لي على منضدة شاغرة بيده وهو يبتسم تلك الابتسامة غير المفهومة التي يرسمها أي شخص تقابله لأول مرة، ابتسامة لا تعرف حقيقتها ولكن عليك أن تتعامل معها.

منال مرة أخرى تتصل بي، رددتُ باقتضاب أن فتحي سيقابلني بعد دقائق، وأنني أنتظره في المكان المحدد هو فقط سوف يعبر الشارع، قالت أنها نزلت من الشقة وتتجه للناشر للاتفاق معه على كل التفاصيل، ستتفق على شهر لا أكثر وتسلم الناشر الرواية، فلا أتأخر.

أردت أن أسبها وألعنها وألعن ناشرها المجنون، بالتأكيد هو يعلم أنها لم تكتب حرفًا من الرواية، وبالتأكيد هو الآخر سيطلب تعديلات، سيصبح عليَّ أن أرضي منال والناقد المشهور والناشر..

توقف لهثي وراء أفكاري عندما وجدت فتحي يسلم عليّ بحماس وهو يعطيني نفس الابتسامة، وكأن تلك الابتسامة أصبحت طابعًا يوزع على أمثالي، ليكن. جلس وطلب نارجيلة.

قال إنه جهز كل شيء وسيكون تحت أمري في أي شيء أطلبه، ويجب أن أكون محددًا في طلباتي ولا أسرف فيها، مبلغ العشرة آلاف جنيه معه، سوف يعطيني جزءًا بجزء كما اتفقتُ أنا مع منال، وعندما أسلمه المخطوطة النهائية، سيكون لي حفل عشاء يليق بمجهودي، الأمر صار غريبًا رغم موافقتي عليه.

الدخان يتكاثف بشدة، أسعل مرة أخرى وأشعر برغبة في العطس، قبل أن أعطس فعليًّا، ابتسم فتحي ابتسامة بلا معنى وهو يشد أنفاس النارجيلة التي جلبها له النادل وهو يشير له أن يجلب لي حاجة ساقعة وكوب ماء.

للحظات فكرت أن أغادر المقهى، أن أجري، أن أهرب من تلك اللحظة المقيتة. لكني وجدت نفسي أتشبث بالكرسي وأنا أحرك يدي أمام وجهي كمروحة؛ لتبعد عني دخان الشيشة الذي يواصل فتحي

نفخه في وجهي بصورة أقرب للتعمد، وكأنه يختبر قوة أعصابي وهدوئي.

قال فتحي بتوتر غير حقيقي: ألا تدخن؟

أجبته وأنا أخرج علبة سجائر رخيصة من جيبي وأضع سيجارة في فمي قبل أن أمسك الماشة وأحرر قطعة فحم مشتعلة أشعل بها السيجارة: أظن أنني أدخن.

ارتفعت قهقهة فتحي بعنف وهو يربت على كتفي، ثم عاد ليلقم فمه مبسم الشيشة مرة أخرى، نصف ساعة تقريبًا حرقت فيها خمس سجائر قبل أن يقف فتحي ويضع ليّ الشيشة جانبًا وهو يقول: هيا بنا.

انتبهت ونحن نعبر الشارع إلى أن فتحي قصير بالفعل وأنني أفوقه طولاً بشكل ملحوظ، وعندما كان يرفع عينيه في وجهي كنت أشعر أنه يبذل مجهودًا لذلك.

أشار إلى عمارة لا تبعد عن المقهى كثيرًا وهو يقول إن الشقة في إحدى الشوارع الجانبية خلفها.. وإن من الصعب أن أتوه عنها لو قررت النزول لجلب أي شيء.

لا يعرف أنني أعاني من العناوين وتذكرها حتى لو كانت على بعد شارعين من مكاني.

قال إن من الأفضل أن أهتم بالرواية والتعديلات ولا أهتم بالنزول كثيرًا، وأن منال اختارت الإسكندرية لأنها تعرف أنك تخافها، أردت لوهلة أن أسأله عن علاقته بمنال، لكني تراجعت في آخر لحظة ونحن نقطع الأمتار الباقية إلى العمارة. لا داعي الآن لأسئلة لا معنى لها.

ولكن السؤال الذي ألح عليَّ فعلاً، هل سوف أكمل ما أفعله حقًّا؟

●●●

كانت الشقة من الداخل متواضعة وأثاثها فقير لحد ما، لم يهمني ذلك فلن أعيش فيها العمر كله، قال فتحي وهو يضع مفتاح الشقة في يدي وأنا أتأمله للمرة الأخيرة يومها إن خميس البواب تحت أمري في أي طلبات أطلبها فهو لديه تعليمات بذلك، لكن لو كانت طلباتي زائدة وغير مقبولة ستخصم من أصل المبلغ.

رأس فتحي كبيرة بالفعل تشعر أنها حمل على جسده، ابتسمت رغمًا عني وأنا أودعه أمام باب الشقة.

كان هناك جهاز «لاب توب» على منضدة السفرة قال لي أنه مجهز بكل شيء وصلة الإنترنت عاملة في الشقة ولكن الأفضل ألاّ

أهتم بالإنترنت والمحادثات. عليّ أن أهتم بالرواية، عاد وزاد عدة مرات في ذلك الأمر؛ لدرجة شككت أنه يردد جمل حفظتها له منال.

أخرج مبلغًا في ظرف من جيبه ودسه في جيبي وهو يربت على كتفي، وغادر مبتسمًا.

أخيرًا أصبحت وحدي منذ غادرت القاهرة، كنتُ أحتاج للراحة، تفقدت غرفة النوم وأنا أخرج منامتي وأضعها على السرير، قبل أن أخرج أدوات الحلاقة، والأمشاط لأضعها على الكومودينو بجوار السرير، ربما لهنيهة شعرت بالغربة. ولكن ما معنى الغربة الآن؟

إنني لم أغادر مصر بعد، الإحساس بالغربة لا يكون دومًا مرتبطًا بالبعد والمسافة، لكنه أحيانًا يكون مرتبطًا بالشخص، وهذا ما يحدث لي الآن.

رحت أخلع ملابسي بإهمال وأرميها جانبًا، وقفت بالملابس الداخلية لثوان، وتطلعت لوجهي في المرآة، كيف مرّ كل هذا العمر عليَّ؟! كنت على أبواب الأربعين، وقد بدأت شعيرات بيضاء تغزو رأسي لتقول لي إن الزمن يمرّ وأنا كما أنا محلك سر.

لتكن رغبة الأيام، ورغبة النقاد والناشرين، لتكن رغبة الفقر والجوع والمرض، لتكن رغبة الاحتياج!

لا أعرف متى ضرب الصداع رأسي، ولكني شعرت به فجأة وكأن هناك من ضرب رأسي ببلطة فشجها نصفين.. فتشت على الدواء المسكن الذي أحمله معي دومًا فوجدت أنني نسيته.

ذهبت للمطبخ، فتحت الثلاجة كانت عامرة، إن منال تهتم بالتفاصيل، وجدت في جانب باب الثلاجة علبة مسكن من المعتاد عليه، وبجوارها علب من مضادات حيوية، وبعض زجاجات دواء الكحة، إن منال حسبت حساب كل شيء، منذ ثلاث سنوات تقريبًا تعرفت بها في ندوة شعرية، كانت متألقة ولافتة للأنظار بأنوثتها الطاغية، لا أعرف متى تحديدًا أصبحنا أصدقاء لحد كبير. اعتدت لفترة بعدها على مكالمتها على الفيس بوك، ثم تجدد لقاؤنا في وسط البلد على زهرة البستان عدة مرات، ثم غيرنا مكان لقائنا عدة مرات.

أيّ مكان تتواجد به منال أعرف أنه سوف يكون مزدحمًا بالأفاقين والمحبين وبعض الشباب الذي يتمنى يومًا أن تنظر إليه أو تعطيه شيئًا من دلالها.

كانت توزع ابتسامتها على الجميع لا تبخل على أحد بنظرة عين أو ابتسامة تحمل طابعًا مزيفًا أنه سيكون هناك شيئًا بينهما، لكن أزعم أو شديد الثقة أن أحدًا من المجموعة لم يأخذ منها سوى الابتسامات والوعود اللا حقيقية.

وضعتُ زجاجة الماء جانبًا التي كنت أحملها في يدي بعد أن ابتلعت قرص المسكن.

نظرت «للاب توب» الموضوع على المائدة، ليكن سأبدأ معركتي مع الرواية، سوف أقرؤها للمرة الأخيرة، ثم أنتظر التعديلات التي تطلبها منال، قدرت أنني سوف أقرؤها في ثلاث ساعات على الأقل، فأنا لست مغرمًا بقراءة ما أكتبه، لا أحب التعديلات الكثيرة، أشعر دومًا أن الولادة الأولى للرواية هي الولادة الحقيقية أما ما دون ذلك فهو مجرد تزيين وتجميل لا مبرر له، ولكني هذه المرة مجبر حقًا على القراءة، كنت أحمل نسخة من الرواية على فلاشة صغيرة دستتها في اللاب توب.

وصلت وصلة النت وفتحت الجهاز وانتظرت قليلاً، نزلت الرواية على الجهاز. دخلت لصفحتي على الفيس بوك، سأكتب أية جملة لتوضح للجميع أنني غادرت القاهرة وسأعود خلال شهر وألاّ يقلق أصدقائي عليَّ رغم أنني أعرف أنه لا أحد يهتم حقيقةً.

كتبت الجملة وتابعت الردود الخمس التي أتت إليَّ بعد دقائق.

كان أولهم حمدي الذي قال أنه سوف يفتقدني هذا الشهر، وأن عليّ طابق دومينو لم أكمله وسينتظر عودتي لإكماله، بينما علقت داليا غاضبة أنه كان يجب عليَّ أن أخبرها قبل سفري، وأنها لن

تسمح لي مرة أخرى بالسفر دون إخبارها، أصابتني حيرة لثوان لماذا عليَّ أن أخبرها قبل سفري؟ لماذا؟

أردت أن أرد على داليا ردًا سخيفًا يحرجها، آثرت الصمت، لن يكون أمام الجميع.

ما الذي تريده هذه الفتاة تحديدًا؟ ليس بيني وبينها أي شيء؟

لقد عرفتها في البداية منذ ستة شهور فقط على الفيس بوك، بيننا رسائل عادية في المجمل حتى لو كانت تحمل أدق تفاصيل حياتها، هي من حكت!

لماذا فجأة قررت أنها من تتحكم في حياتي؟ تضع لي أوقات العمل وأوقات النوم. ماذا آكل ومتى؟ وما الذي يجب أن أمتنع عن أكله؟ عاداتي في الصحيان والخروج، وكأنها صارت مفكرة تدون حياتي بناء على طلباتها واقتراحاتها وعليَّ أن أنفذ، رغم أنني لم أقابلها سوى ثلاث مرات ولم أعط للعلاقة أية أهمية. صداقة! ليكن ولكن أي مبرر للصداقة يعطيها كل هذه الثقة بنفسها ويعطيها الإحساس أنها تتحكم في؟!

هل أسبها أم أرسل لها رسالة تهديد ابتعدي عن حياتي أيتها الفتاة، لا لأكن أكثر ذوقًا ولن أرد، سأتركها تضرب رأسها في أقرب حائط، لن أعطي لها أهمية حتى لا أكسبها ميزة ليست لها، وائل دخل يسخف عليها وعليَّ وهو يعلق: «ماشية معاك يا سيدي».

بينما رد إسلام ردًا عبارة عن صورة تعبيرية لا تقول أي شيء، هكذا إسلام دومًا لا تفهمه ولن تفهمه حتى لو حاولت.

وجدت رسالة من منال في صندوق الرسائل من جملة: «اكتب ولا تضع الوقت في المحادثات».

لم أرد على منال أيضًا، هل وضعتني تحت المراقبة من الآن؟

لاحظت الرد الأخير على البوست من إلهام رد من كلمة واحد، عدْ.

لماذا أردت أن أرد على إلهام وأقول لها أنني سأعود بالتأكيد، فما زال بيننا الكثير من الذكريات والأحداث، سأعود، ولكن أية عودة؟

تأملت صورتي الشخصية وشعرت بالملل، وأردت أن أغيرها بصورة أخرى أشد تفاؤلاً، بحثت بين صوري فلم أجد صورة تعطيني شيئًا مغايرًا، فالصور كلها متشابهة.

دخلت على صفحة منال الشخصية وجدتها قد وضعت صورة جديدة لها بالمايوه من الصيف الماضي، الظاهر هو نصفها العلوي وكان كافيًا ليلهث الكثيرون وتنهال التعليقات والإعجابات.

مغرمة منال بتصوير نفسها في كل الأوضاع وهي تأكل وهي تستمع للموسيقى وهي تفتعل الكتابة وهي تبتسم لنفسها أمام المرآة،

كان عدد المعجبين بالصورة بالآلاف والتعليقات متواصلة كل ثانية، أدركت وقتها أن عليَّ الكتابة حقًّا فرواية منال ستنجح وتحقق عدة طبعات، وربما رشحت لجائزة البوكر كما قال ناقدها المقرب.

ارتفع رنين جرس الباب ليخرجني من حالتي الذهنية المتردية، اتجهت للباب وفتحته وجدت أمامي البواب خميس يبتسم نفس الابتسامة الرديئة التي وزعت اليوم على كل من يقابلني، كان يحمل في يده كيسًا كبيرًا قال وهو يعطيه لي: الغداء، الأستاذ كان موصيًا عليه المطعم. تناولت منه الكيس ولم أسأله من الأستاذ أو أي مطعم، فالأمر بديهي، فالأستاذ معروف واسم المطعم مكتوب على الكيس.

وضعت الكيس على المائدة، وأزحت اللاب توب جانبًا.

كانت رائحة الطعام مغرية ونفاذة، وشعرت بنفسي أبتلع ريقي وأنا أفض أوراق الطعام الملفوف، غصت بكياني في الأكل فأنا منذ الصباح لم آكل أي شيء. مجرد سجائر أشعلها وكأنني أعيش على الدخان.

جاءتني رسالة من داليا وأنا آكل فلم أهتم بالرد عليها، فوجدتها ترسل عدة رسائل تهديدية بلا معنى، أنني سأكون السبب في انتحارها، ويجب أن أرد وإلاّ. لم أعرف إيه وإلاّ تقصدها تلك المجنونة من تظن نفسها؟ لكنني مسحت يدي بورقة وكتبت بأطراف أصابعي أنني أتناول الطعام. فردت عليَّ بسرعة بالهنا والشفا.

يا ابنة المجانين، ينقصني جنانك هذا؟ وفي تلك اللحظة.

كتبت فجأة على الفيس بوك دون مبرر مؤلف للإيجار، الشهر بألف جنيه.

وجدت بعد دقائق رسالة من منال تطلب مني أن أمسح ما كتبته، قلت لها إن الأمر دعابة وسأتركها، قالت أن شهري معها بعشرة وليس بألف، وأنني لا يجب أن أعبث حتى ولو بالمزاح فربما يتسرب شيء من الاتفاق نتيجة لمزاحي الغبي أحيانًا، هدأتها وقلت إنني تلقيت ردودًا على المكتوب ولو مسحته الآن سيكون الأمر ملفتًا حقًا كما تقول، قالت ليكن ولكن هذا تحذيري الأخير، التزم باتفاقنا وأنهِ الرواية في موعدها، أرسلت لها وجهًا مبتسمًا ضاحكًا.

كانت نفسي قد عافت الطعام بعد حديثي مع منال وتهديداتها السخيفة، وضعت المتبقي من الأكل في الكيس وركنته جانبًا.

بعد دقائق كنت أنادي على خميس من بئر السلم أطلب منه أن يصعد لي، صعد خميس بسرعة ملحوظة، من الجليّ أن لفتحي أهمية لديه، أعطيته كيس الأكل وقلت إنه له فليأكله، نظر للكيس ولاحظ أنني لم آكل حقًا شيئًا يذكر، ولكنه ابتسم وهو يحمل الكيس ويهبط.. كنت أريد توطيد علاقتي معه منذ البداية، وأيضًا لو تركت هذا الطعام لفترة لن يصلح للأكل.

لمحتها في تلك اللحظة تصعد السلالم، فتاة في منتصف العشرينات، ملامحها طفولية لحد مدهش، عينان لامعتان متألقتان متيقظتان، ووجه دائري، وبشرة صافية وفم دقيق، لم أغلق الباب وتسمرت في مكاني وهي تمر وتقول مساء الخير، قبل أن تخرج مفتاحًا من حقيبتها وتفتح الباب المقابل للشقة التي أقف على بابها، أظن أنها شعرت أنني أنظر إليها، فقالت بهدوء وهي تغلق باب شقتها عن إذنك، هززت رأسي وسمعت صوت تكة مزلاج الباب وهو يغلق وظللت في مكاني واقفًا متسمرًا لبرهة دون سبب منطقي، لم أعرف لماذا شعرت أنني أعرف هذه الفتاة وأننا ربما تقابلنا من قبل، شيء في ملامحها أوحى لي بالألفة والاطمئنان وكأنها تقول لي: أنا بجوارك.

طردت هذا الهاجس الغريب جانبًا وأنا أدخل الشقة وأغلق الباب وملامح الفتاة تلمع في ذاكرتي، بل أحاول أن أتشبث بكل ما وصلني من تفاصيل ملامحها في الذاكرة.

لماذا أنبش في عقلي لآتي بفتاة تشبهها، تلك التي لم أعرف اسمها أو من هي بعد.

سأتوقف وأحاول أن أعود للرواية، سأقرأ فيها قليلاً، سأرسل لمنال أن ترسل لي ملاحظاتها سريعًا حتى أنتهي، فجأة شعرت أن وجودي في تلك الشقة بالذات قد يصيبني بالجنون.

ها أنا أستعيد تفاصيل فتاة لم أرها سوى للحظات لأجعلها بطلة في خيالي لقصة لم تحدث بعد.

أي وهم أحاول أن أبثه في نفسي، وأية حقيقة أحاول البحث عنها.. ربما أحاول التهرب من الكتابة.

أرسلت الرسالة لمنال فجاء ردها سريعًا أنها سترسل لي الملاحظات ليلاً، فهي عند الناشر يجهزون الغلاف، واقتراحاتها لشكله، أردت أن أصرخ فيها اللعنة عليك وعلى ناشرك المجنون، ولكني صمت، وتابعت كلماتها التي أرسلتها تباعًا. «لا ترسل لي رسائل أخرى حتى أرسل إليك ملاحظاتي، حاول أن تستريح قليلاً ليكون ذهنك صافيًا ليلاً».

داليا مرة أخرى تراسلني: «هل انتهيت من الأكل؟ أريدك في موضوع مهم».

لأضيع بعض الوقت مع داليا وجنونها: «ما الأمر؟ « هكذا كتبت لها، جاء جوابها سريعًا: «سوف أطلق».

لم أرسل أية كلمات وتركتها تكمل حديثها الذي أعرفه سابقًا فقد قالته لي عدة مرات.

أعرف مشكلتها مع زوجها ذلك الشاب الذي جاء من دولة عربية ليعقد عليها وتزف إليه في شهر واحد، لتكتشف بعدها أنه يحطم

أعصابها بغيرته المجنونة وأن الغربة قد حطمته من الداخل، فهو يشك في كل شيء وأي شيء، والأسخم من ذلك أنه عليل، ضعيف جنسيًا، فكان يرمي الأمر عليها، وأنه المخطئ؛ لأنه أخذ فتاة ساذجة عبيطة لا تعرف أن تسعد زوجها، أمُّه أيضًا تعذبها وتنغص حياتها طوال الوقت بأوامرها التي لا تنتهي.

وعندما سافر مهاب زوجها وتركها في رعاية أمّه تحول الأمر لكابوس، حماتها المتسلطة أصبحت رقيبًا جبارًا عليها في كل حركة، بل أرسلت رسالة لزوجها أنها تشك في تصرفات زوجته، فهي تخرج أحيانًا دون أن تخبرها، وأنها تتصل بفتاة تعرف الأم سوء أخلاقها، لم تكن رباب صديقة داليا بالسوء الذي زعمته الأم.

كل مشكلة رباب أنها حالمة ولا تتقيد بقيود المجتمع الذكوري الذي يحكمها، تمردت على كل شيء حتى على أهلها عندما استقلت بعملها وأخذت شقة لتعيش بعيدًا عن جبروت أب وزوجته؛ لذا كانت رباب بالنسبة لحماة داليا فاسدة ومنحلة ولأقصى درجة.

قالت داليا لي من قبل عن كل شيء وأن زوجها هددها بالطلاق وأنها لن تطول شيئًا من عفشها.

عادت داليا منذ فترة لبيتها بعد زيارة لأمها لتجد الحماة قد غيرت قفل الشقة وأخبرتها أن تعود من حيث أتت، وهي قد أخبرت

زوجها بتصرفاتها المشينة الحقيرة وأن ورقة طلاقها ستصل لها في أقرب فرصة، ولكن تطور الأمر صار مزعجًا؛ لأن الزوج لا يريد الطلاق ويخاف أن تفضحه داليا وسط العائلة وتخبر الجميع بضعفه وحالته الصحية الجنسية، وظلت داليا لشهور تحت هذا الوابل من التهديدات المزعجة، حتى عندما تعرفت عليها من خلال الفيس بوك لم تخبرني في البداية بالأمر، لكنها بعد فترة شعرت أنني مستمع جيد وربما لن أخبر أحدًا بقصتها.

مؤكد هي تثق فيَّ على الرغم من تحذيري لها سابقًا ألاّ تثق في كاتب.

فالكاتب شخص يتصنع الأكاذيب ليخلق شخصياته وهي شخصية تستحق الكتابة بحماقتها وطيبتها ورعونتها حتى بجنونها الساذج العبيط، لا أعرف.. لماذا فجأة قررتْ أنني الشخص الذي يجب أن تتودد له ويجب أن يكون في حياتها؟

لم أعط من قبل أي شيء يجعلها تضع تلك النقطة في معرفتنا.

آخر ما قرأته من كلماتها: «ما رأيك؟»

أجبتها دون أن أقرأ ما سبق: «تمسكي بالطلاق وحرري نفسك من تلك العلاقة العجيبة لن تخسري أكثر مما خسرتي، أستأذنك لأن ورائي مشوار مهم».

كنت أريد الفرار من تلك المحادثة العجيبة قالت: «أحتاجك.. هل ستظهر ليلاً؟ سأتصل بك تليفونيًا رد عليَّ».

قلت لها: حاضر، لم أخبرها أنني غيرت نمرتي منذ أسبوع بسببها على الأقل، فقد صارت نتوءًا في ظهري، كان من الأسهل أن أحظر حسابها، لكني وقتها لن أعرف رد فعلها، فهي أنثى جريحة بالفعل وقد تجن وتثور لهذا، وربما أقدمت على أشياء تسيء لي، سوف أظل محتفظًا بصداقتها إلى حين هكذا قررت.

كنت بالفعل أحتاج لبعض الهواء، تذكرت كاتبًا صديقًا من الإسكندرية، بحثت عن نمرته واتصلت به، عدة محاولات بلا رد، ولكنني فجأة أصبحتُ شديد الإلحاح، لماذا أمارس الإلحاح عليه وأرفض الإلحاح الذي يمارسه الآخرون عليَّ؟

في النهاية جاء صوته ضعيفًا ويبدو مصابًا بالبرد، رحب بمكالمتي وقال رغم برده. هو مستعد لمقابلتي، اتفقنا على المقابلة بعد ساعة في مكان قريب من بيته وأعطاني العنوان.

نظرت من نافذة الصالة كانت السماء قد اكفهرت والأمطار أصبحت رعدية.

لكن قررت النزول برغم كرهي للمطر، شيء بداخلي يدفعني لذلك.

بعد عدة دقائق كنت أنزل السلالم تاركًا ورائي أفكارًا لا تنتهي، وواقع افتراضي يقتل الحقيقي كل يوم.

●●●

obeikandl.com

(٢)

النزول في هذا الجو كان مجازفة، ولكن بالفعل كنت أريد التحرر من الأفكار المجنونة التي راحت تطاردني، السيارة تقطع الشوارع بعد أن أعطيت السائق العنوان مكتوبًا في ورقة، فبرغم زيارتي للإسكندرية عدة مرات ولكني أبدًا لم أستطع أن أحفظ أسماء شوارعها، في العموم أنا لا أحفظ أسماء أية شوارع. أسجل دومًا العنوان في ورقة في جيبي، الزهايمر من نوع خاص، حتى العمارة التي أقطن إحدى شققها الآن سجلت عنوانها بدقة في ورقة، بل أرسلت رسالة بالعنوان ورقم الشقة لنفسي على البريد الإلكتروني لا أريد مخاطر لا داع لها.

في النهاية توقف السائق أمام مقهى أشار لي عليه وهو يقول إنه العنوان، كنت قد حررت مبلغًا من الظرف الذي أعطاني إياه فتحي؛ فمنحت السائق أجرته وأنا أهبط سريعًا وأقطع المسافة الفاصلة تحت المطر إلى داخل المقهى، بعض الدخان في المكان ولكنه ليس كثيفًا، أشخاص مشغولون بالطاولة والدومينو، بينما بعض الشباب في جانب قصي يلعبون استميشن وصوتهم عال.

تطلعت للوجوه لعلني ألمح سعيدًا بينهم ولم يكن له أثر، قلت لنفسي إنه لم يصل بعد، الأمطار عطلته مؤكد، عليَّ أن أنتظره.

جلست في ركن قصي، وطلبت كوبًا من الشاي، ورحت أتأمل ساعة الحائط أمامي.

لفترة ظننت أن الساعة لا تتحرك وأن عقرب الثواني يدور عكس اتجاهها. ولكني هززت رأسي وأنا أرفع كوب الشاي الذي وضعه النادل أمامي وأرتشف سريعًا، وضعت الكوب من يدي التي اهتزت بغتة؛ فلقد لسعت لساني بالشاي الساخن.

أخذت الدقائق تمر آخذة الوقت في اتجاهها، المقهى هادئ لحد كبير، لمحته يدخل في تلك اللحظة ويتلفت للوجوه، كلاّ لم يكن سعيد، بل كان جاري في القطار، ماذا كان اسمه؟ أي صدفة هذه؟!

ماذا؟

وجدته يقترب من مائدتي وقد عرفني، حاولت أن أبدو مشغولاً بتقليب كوب الشاي وأنا أنظر للأرض، ولكني وجدته فوق رأسي وهو يقول: سيادة المؤلف. إنها فرصة سعيدة ومصادفة عجيبة، لابدّ أنك سألت عليَّ فدلوك عن مكاني، ألم أقل لك إن فريد العطار شخص يدلك عليه أي أحد في الإسكندرية.

رفعت رأسي وابتسمت ابتسامة شاحبة، وأنا أقول له إنني هنا لمقابلة صديق. ابتسم بدوره وهو يسحب كرسيًا ليجلس أمامي ويقول مؤكد أن صديقي سيعرفه، لا أحد في ذلك المقهى لا يعرف فريد

العطار، طلب كوبًا من العناب الساخن وهو يقهقه دون سبب، ثم قال لا تتحجج بزميلك أنت بحثت عني؛ لتعرف مني القصة التي لن تجد مثيلها في أي كتاب.

رفعت كوب الشاي ورشفت رشفة؛ لأبتلع سخافة كلماته وأنا أرد، كلاّ، حقًّا لا وقت لدي لسماع القصص، أرجو أن تعذرني.

أخرجت هاتفي المحمول وأنا أقول له: سأجري اتصالاً.

وقفت وتحركت مبتعدًا عن المائدة، اتصلت بسعيد فلم يرد من أول مرة، ولكن في المرة الثانية رد، قال إنه آسف لا يستطيع المجيء، فالجو وصحته الآن لا تسمح، أنهيت المكالمة وأنا أسب لسعيد في سري، لماذا إذن وافق على مقابلتي منذ البداية؟

رجعت إلى المائدة لآخذ المفاتيح وعلبة السجائر، كان فريد العطار قد سمح لنفسه بإشعال سيجارة من علبتي، لمحت تلك الابتسامة المقيتة على شفتيه وأنا ألمّ أشيائي من على المائدة وأقول في خفوت: أستأذنك ورائي موعد، لا تدفع ثمن العناب سأدفعه أنا.

شعرت أنه يريد أن يقول شيئًا وهو يضغط على شفتيه بأسنانه، لم أعطه الفرصة. فررتُ من أمامه وكأنني أفر من شبح يطاردني.

كان المطر قد توقف، وهدأ الجو كثيرًا، لكن هناك برودة ما

تتسرب إليَّ، أحكمت إغلاق الجاكت على جسدي وأنا أسير بمحاذاة الرصيف بسرعة، لا ألتفت للخلف، لماذا شعرت أن هناك من يراقبني؟ وكأن ثمة عينين تلقيان بلهيبهما على ظهري، حافظت على خطواتي التي صارت شبه عسكرية.

تحركت تجاه الكورنيش، بدأت البيوت ترمي بسكانها إلى الشارع مرة أخرى بعد هدوء الأمطار، الكورنيش مضاء، والسيارات تقطع الشارع أمامه بسرعة عالية، عبرت من نفق عبور المشاة فلن أخاطر بأن أعبر الطريق المبلل وسط سيارة مسرعة، دومًا يأتيني هاجس أنني سأموت تحت عجلات سيارة مسرعة؛ لذا أتلفتُ كثيرًا وأنا أعبر أي طريق.

وصلت للكورنيش، جلست وظهري للبحر، السماء من فوقي بدأت تلمع والسحب تخف وتكاد تختفي، شخص يعد شايًا ويمر على الجالسين، طلبت كوبًا من الشاي وأشعلت سيجارة وجلست وكأنني أنتظر شيئًا لا أعرفه.

لا أعرف كم وقت مرّ عليّ وأنا أتأمل الطريق والمارة والسيارات المارقة، لكني عندما كنت أزيح الكوب الفارغ الذي انتهيت من شرب الشاي به، وجدته يجلس بجواري، طفلاً في العاشرة تقريبًا بملابس متسخة ويظهر على وجهه التعب والإرهاق.

قال ببساطة تفوق سنه: أأنت وحيد؟

ابتسمت له ولم أجبه، مددت يدي في جيبي وأخرجت عدة جنيهات وضعتها في يده.

قال: لو كنت وحيدًا أستطيع أن أجلب صحبة لك، ثم غمز بعينيه وهو يهمس: فتاة.

اتسعت عيناي وأنا أنظر له وهو يتابع: «تيتي.» لا تقلق مائة جنيه فقط لليلة الواحدة.

ما الذي يقوله هذا الطفل؟!

جنون آخر يطاردني، ارتسم على ملامحي الذهول: «تيتي.» أردت أن أسأله هازلاً: هل قرأ السمان والخريف لنجيب محفوظ؟ غادرني مسرعًا وهو يتأملني ويراقب صمتي.

عدت لشرودي انتبهت بعد عدة دقائق وهو يسحب فتاة في يده ويشير تجاهي. كانت في السادسة عشرة تقريبًا، متسعة العينين أسودهما، تلف رأسها بطرحة ملونة، جسدها يبدو ضعيفًا، تحملها ساقين ضعيفتين وتبدو منهكة بالمثل.

وقفت وأردتُ المغادرة، قطع عليَّ الطريق وهو يشير للفتاة «تيتي». لا تخف منها مجرد أن تستحم ستصبح شخصًا آخر، أي شيطان أنت

أيها الصغير، هززت رأسي بلا، فقالت الفتاة أنها ستمنحني نفسها يومين بسعر ليلة واحدة بشرط أن يكون لدي مكان، قال الطفل إنها أخته وهو يضمنها برقبته، ذعرت وارتجف قلبي بين ضلوعي، مددتُ يدي في جيبي أخرجت ظرف النقود في وجل، وجدت أعينهم متعلقة بالظرف ويدي أخرجت ورقة بمائة جنيه وضعتها في يدها وأنا أقول لها أن تتصرف وأنني لست بحاجة إليها، أشرت لسيارة أجرة كانت تمر مسرعة فلم تقف، ظل الطفل يلاحقني بنظراته حتى توقفت سيارة لي وصرخ بصوته وأنا أركب.. إذا غيرت رأيي في أي وقت لأسأل عن «أنص» هنا وكثيرون سيدلونني، وراح يشير لنفسه وهو يخبط على صدره ويردد: «أنص.. أنص.. اسمي»

هربتُ كل الأفكار من رأسي وأنا أرمي بنفسي في سيارة الأجرة وأخرج ورقة من جيبي لأملي على مسامع السائق عنوان الشقة.

كنت أحتاج في تلك اللحظة أن يتصل بي أي شخص، ولكن عندما تريد من أحد أن يتصل بك فتأكد أنه لن يحدث، وعندما لا ترغب بمحادثة الآخرين لن يكف تليفونك عن الرنين، فريد العطار يريدني أن أسأل عنه، أنص يريدني أن أسال عنه، تيتي تريد فتح ساقيها الرفيعتين لي، منال تريدني أن أنهي الرواية، داليا تريد أن أخبرها بتحركاتي، أي دمية أنا؟

أخيرًا لمحت العمارة وتعرفت على خميس الذي كان يزيح ماء المطر من أمامها. منحت السائق أجرته، ووجدت نفسي أنزل سريعًا عابرًا بجوار خميس الذي كان يحييني دون أن أنبس بحرف.

●●●

دخلت للشقة تأملتها للحظات، كل شيء على وضعه، وجدت نفسي أتجه «للاب توب» وأفتحه، أذهب للحمام، أفرغ مثانتي، أعود لأجد الكمبيوتر قد أقلع، أدخل للإنترنت وصفحتي على الفيس، رسائل جديدة في صندوق الرسائل، أفتح صندوق الرسائل أجد رسالة من هبة سالم، هبة سالم!

هبة سالم خمس سنوات تقريبًا لم نتكلم، رغم أنها صديقة لي منذ عشر سنوات عرفتها كمعلقة ومتحمسة لقصصي القصيرة التي كنت أنشرها في المنتديات، ما الذي فكرها بي الآن، أقرأ رسالتها، معقول أنت في الإسكندرية، أرغب في مقابلتك، أنا أيضًا في الإسكندرية تليفوني سأكتبه لك، أرسل رقمك لي ضروري.

هبة سالم خمس سنوات منذ أن افترقت عن محمود، أتذكر بكاء محمود لي في التليفون وأنه يعشقها لحد الجنون وأنه لا يستطيع الاستغناء عنها، رسائله المتعددة أنها تثق في، يجب أن أقنعها بحبه ورغبته في الزواج منها، أستعيد ملامح هبة، وجهها البضاوي وعينيها

الزرقاوين وشعرها الذي اعتادت تغيير لونه مرة بالأسود ومرة بالأصفر، أتذكر أنني نقلت لها رسائل محمود وعددت لها مزاياه وأنه عريس لقطة لا تفرط فيه، كانت تقابلني بضحكات وتقول أنني لا أعرف الدنيا بعد رغم أنني أفوقها سنًا بسنوات، قالت إن محمود هوائي ومتقلب، لم أكن أرى في محمود هذا، كنت أراه شابًا ناضجًا ضرب الحب قلبه في مقتل، أراه متفانيًا في عمله ويحاول أن يصل لمراده، دافعت عن محمود كثيرًا بعدها وتقابل ثلاثتنا عدة مرات، ولكنها كانت تغمز لي بعينها وهي تلقي كلمات تثير غيرة محمود أكثر وأكثر، بعد آخر لقاء بيننا بعدة شهور اتصلتْ بي أخبرتني أن محمود قد نصب عليها في مبلغ ضخم وأنها تريد أن يرد المبلغ، لم أصدق أذني محمود فعل هذا؟! اتصلتُ بمحمود فلم ينكر قال إنه سيرد المبلغ حينما يستطع، فظروفه لا تسمح الآن.

لا أعرف كيف أنهيا المسألة بينهما، ولكني ابتعدت بنفسي عن هذا الصراع وقتها، خصوصًا أنني آنذاك كنت أعمل فترتين في محل لعب أطفال، ولا وقت لدي للعب الأطفال الدائر بينهما، فانسحبت ونسيت الأمر برمته.

لماذا تذكرتني الآن؟ لابدّ أنها قرأت ما كتبته على صفحتي في الفيس؛ لذا أرسلت رسالتها، ما نوعية هذه الصدف العجيبة التي تفاجئني اليوم؟!

رددت عليها وأرسلت لها رقم تليفوني.. لا مانع من معرفة كيف أصبحت الآن؟!

قرأت رسالة أخرى كانت من منال تقول أنها انتهت من الاتفاق على تفاصيل النشر مع الناشر وأنها جهزت حفلة انطلاق قوية لروايتها أو روايتي التي سيوضع عليها اسمها واتفقت مع العديد من الصحف لتغطية حفل الانطلاق. الأمر متوقف عليّ ويجب أن أنهي الرواية في ميعادها، ولا أتصل بها اليوم فهي مجهدة وتحتاج للنوم.

ارتفع رنين هاتفي فجأة، لمحت رقمًا بلا اسم، في البداية ترددت في الرد لا أريد مفاجآت جديدة، ولكني رددت فجاءني صوت هامس رقيق، أخذت صاحبته تلاعبني تقريبًا لثوان حتى نطقتُ اسمها على لساني: هبة، كيف أنتِ؟ ضحكت ضحكة رنانة وهي تقول: يا وحش ألم أوحشك، لم تفكر يومًا في أن ترسل رسالة أو تتصل بي.

تحججت بأن نمرها دومًا مغلقة وأنها لديها هواية تغيير رقمها حتى الفيسبوك هي مختفية عليه منذ زمن لم ألمحك ولم أر حسابك لفترة ربما لسنوات.

قالت لي بلهفة غير مفهومة أن أنزل لأقابلها، أخبرتها أنني عائد لتوي من الخارج وأحتاج للراحة بعد يوم طويل مجهد، رفضتْ وأصرتْ هي على نزولي وقالت أنها تسهر، وعندما تمسكتُ أنا بموقفي وقلت

لها أنني من الممكن أن أقابلها غدًا، رفضتْ وقالتْ: أعطني العنوان سآتي لك.

لثوان لم أعرف بماذا أجيبها، قلت لها إنني وحدي في الشقة، قالت: لا يهم أعطني العنوان وكفاك ثرثرة، فتشت في جيب الجاكت الذي كنت خلعته على الكرسي لأخرج ورقة العنوان فقد تجمد تفكيري وقتها ولم أعد أتذكر أي شيء ولا أعرف لِمَ.. بعد هنيهة صمت كنت أمليها العنوان، وهي تنهي مكالمتها أرسلت لي قبلة عبر الهاتف قائلة: تصبيرة حتى أراك.

أخذت أرتب الشقة بسرعة غريبة، وعيناي جاحظتان في شرود، وسؤال غريب يلح عليَّ ما الذي تريده هبة سالم مني الآن وأنا شبه ميت مستسلم لمصير لا أعرفه؟!

ولكن كان عليَّ الانتظار.

●●●

obeikandi.com

(٣)

ارتفع رنين جرس الباب، تقدمت بخطوات وئيدة وأنا أتابع بعيني الشقة ومحتوياتها.

فتحت الباب، كان هبة تقف وعلى وجهها ابتسامة لم أستطع أن أميز فحواها وخلفها خميس يحمل عدة أكياس ممتلئة، تباطأت وأنا أفسح لها المكان لتدخل.

دخل خميس وراءها، وضع ما يحمله على المائدة في الصالة وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى خاص، أخرجت بعض النقود من جيبي ومنحته إياها فواصل الابتسام في غشومة واضحة، لم تمر هنيهة حتى كان يغادر الشقة بينما جلست هبة على أقرب مقعد ووضعت ساقًا على ساق، كانت ترتدي ملابس شتوية أنيقة، تأملت الأكياس على المائدة، ثم عدت بعيني إليها، أطلقتْ ضحكة عالية وهي تقول: هل ستظل متسمرًا هكذا؟ إنك لم تنطق بحرف منذ دخلت.

رحبتُ بها وأنا أبادلها الابتسامة قائلاً إن مفاجأة رؤيتها اليوم أخرستني.

ارتفعت ضحكتها مرة أخرى وهي تقول: مؤكد لم تتناول العشاء بعد، لقد أحضرت عشاءً خفيفًا وبعض زجاجات البيرة المثلجة.

كنت ما أزال أتأملها ثم جلست على مقعد ليس ببعيد عنها.

وقفت وهي تقول في بساطة: أين المطبخ؟

أشرت لها تجاه المطبخ، فاتجهت للمائدة وحملت الأكياس ودخلت للمطبخ، ظللت في الصالة وحدي لدقائق، والأفكار تدور برأسي دون أن أجد لها برًا لترسو عليه.

خرجت هبة من المطبخ تحمل عدة أطباق في يدها، وأخذت ترص الأطباق على المائدة بهدوء، ذهبت مرتين للمطبخ وعادت بأطباق جديدة وأكواب فارغة وزجاجات البيرة.

انتهت من توضيب المائدة فألقت نظرة عليها قبل أن تقول في استمتاع غريب استغربته أذناي: هيا ألاّ تريد الأكل؟

جلست أمامها وكأن الطير ابتلع لساني، فلم أنبس بحرف ورحت ألوك الطعام في آلية، صبت لي كوبًا من البيرة المثلجة وهي تبتسم قائلة: اشرب.

رفعت الكوب على شفتيّ ورحت أرشف ببطء، ابتسمت وهي تقول: ما بك كأنك رأيت شيطانًا؟

أجبتها وأنا أتطلع لعينيها الزرقاوين المتسعتين:

- لم أكن أتصور أنني سأراك بهذه الصورة؟

- وهل هناك صورة أخرى كنت تظن أنك قد تراني بها؟

عدت لأرتشف من الكوب رشفة أخرى، وضعت قطعة من اللحم في فمي ورحت أمضغها وأنا أحاول أن أجد مبررًا لهواجسي وظهورها المفاجئ، فقالت وعينيها تتابعاني: أليس هكذا أفضل؟

كانت قد أطلقت شعرها فبدا متموجًا على كتفيها، وشفتاها المكتنزتان بدتا شديدتي الاحمرار، لدرجة جعلتني أفكر في تقبيلها ولكني تراجعت، كانت عيناها تلتمعان ببريق أخاذ أرى انعكاس ملامحي فيهما فألوذ بالصمت.

عندما طال صمتي مرة أخرى قالت في خفوت:

- ما الذي جاء بك للإسكندرية؟

ابتلعت ريقي وأنا أقول:

- بعض الأعمال البسيطة؟

مدت يدها بقطعة من اللحم ووضعتها في فمي وهي تقول:

- كم ستمكث؟

مضغت قطعة اللحم وأنا أقول وفمي محشو بالطعام:

- شهر أو أكثر حتى ينتهي العمل، لكن أخبريني ماذا تفعلين

أنتِ في الإسكندرية؟

ابتسمت وهي تزيح خصلات شعرها جانبًا فبدا وجهها الأبيض أكثر إشراقًا وقالت:

- أعمل في الإخراج المسرحي، هناك مسرحية هنا أقوم بإخراجها.

ارتسم الذهول على وجهي هذا شيء مؤكد وأنا أسألها:

- مسرحية؟ وكيف تأتَّى لك هذا؟
- خمس سنوات لم ترني تغير الكثير، أكثر مما تتصور.
- لاحظتُ ولكني لم أستطع أن أعلق، احتفظت بتعليقي لنفسي.
- وحتى إذا لم تحتفظ به لنفسك لم يعد شيئًا يهم.
- تشاؤم هذا؟
- ليكن ما يكون لا تشغل بالك، اشرب.
- أنت عجيبة! صحيح ما الذي جعلك تتصلين بي اليوم؟
- حنين، حنين إلى ذكريات قديمة لي معك.
- معي أنا كيف؟

obeikandl.com

- ألم تكن دومًا الأب الروحي لي وناصحي.
- كان هذا منذ زمن.
- لهذا جئت، ربما أحتاج لنصيحتك اليوم.
- دومًا كنتِ ترفضين نصائحي.
- ألم أقل لك أشياء كثيرة تغيرت، المهم كيف أنتَ؟
- لا جديد، محاولات مستميتة للوصول للشهرة، مع بعض الحقد الدفين في داخلي، مع ذكريات أوراق أكتبها لم أتمها ولن أتمها.
- أستطيع الضحك دومًا وأنا أكلمك، أنت رغم كل شيء تضحكني، لماذا الإصرار على الشهرة؟ هل تظن أن الشهرة حل لك؟
- لا أريد المزيد من الفلسفة، يكفيني ما أنا فيه.
- ما أخبار مجموعتك القصصية التي كانت ستنشرها الهيئة العامة للكتاب؟
- ثلاث سنوات تحت الطباعة وفي أخر الأمر أخبروني بضياعها من المطبعة ويريدون نسخة أخرى، فنسيتها ونسيتهم.

- سمعت منذ فترة أنك تكتب مسرح.
- كتبت فعلاً عدة تجارب، وكتبت مسرحية كنت أظن أنها ستغير كثيرًا من مفهوم المسرح الحديث.
- وما الذي حدث؟
- قدمتها في مسابقة للمسرح.
- وفازت؟

ارتفعت ضحكتي وأنا أتأمل عينيها البريئتين في تلك اللحظة وأنا أقول:

- أعطوا الجائزة لمدير المسابقة ورئيس لجنة التحكيم.

- كيف هذا؟

صببت في كوبها مزيدًا من البيرة وأنا أقول:

- الثقافة يا صديقتي العزيزة، اشربي.

رفعتِ الكوب إلى شفتيها المغريتين وابتسمتْ ابتسامة تفهم، بعد لحظات كانت ترفع المائدة، خلعتِ الجاكت الذي كانت ترتديه فظهرتْ يداها البضتان مغريتين ليّ وانكشف جزء جانبي من صدرها، لمحتْ نظرتي السريعة لها، وهي ترفع الأطباق فواصلت الابتسام وهي تقول:

- لا تتعجل، كل شيء بوقته.

لم أفهم فحوى جملتها جيدًا، ما الذي قصدته تحديدًا، أتتكلم عن الثقافة أم الثقافة الأخرى، ابتسمتُ للخاطر وعدت لأجلس على مقعد أمام التلفاز وأشعلتُ سيجارة.

عادت هبة من المطبخ تحمل زجاجتين مليئتين بالبيرة بدلاً من الزجاجات الفارغة.

قالت وهي تدفع زجاجة في يدي:

- هذه المرة سنشرب من الزجاجة مباشرة بلا أكواب.

أخذت الزجاجة ورفعتها على فمي.. قالت لي متسائلة:

- ما الذي في يدك الأخرى؟

- سيجارة؟

مدت يدها وسحبت حقيبتها الصغيرة من على الكرسي الجانبي وفتحتها لتخرج منها سيجارة ضخمة محشوة، بللت شفتيها بلسانها وهي تقول:

- ارم ما في يدك وولع هذه.

أخذت السيجارة المحشوة بالحشيش وتأملتها لثوان قبل أن أرفع

الولاعة لأشعلها وأنفث الدخان الأزرق ليعبق جو الغرفة برائحة قوية نفاذة، كانت هبة تتأملني بعينين فضوليتين.

فردتْ قدميها ووضعتها على قدمي المفرودتين بالمثل، وأنا أقول لها:

- حقيقة لا أفهم أي شيء، ولكن من الأفضل ألاّ أفهم.

راحت تحك قدميها في قدمي وأصابعها تلامس أصابع قدمي وتضحك بصوت عال قبل أن تقطع ضحكتها وهي تقول:

- سآخذ دشًا، انتظرني.

قامتْ واتجهت للحمام، ظللتُ أنفث الدخان لدقيقة تقريبًا، قبل أن أسمع صوت الماء المنهمر على جسدها، لم أعرف ما الذي فعلته تحديدًا، ولكني كنتُ أقترب من باب الحمام لأفاجأ بأنها تركته مفتوحًا، دفعت الباب برفق ودخلت، لم أسمع منها سوى كلمة يا مجنون، وأنا أرى جسدها الشهي تحت الماء الساخن المنهمر تبدو تحته كفينوس تستحم بشلال من الذهب.

لمعتْ عيناي وأنا أقترب منها وأسمعها تردد في همس بطل لعب عيال، قبل أن أغوص بكياني كله في تجربة ليلية لا أعرف كيف بدأت وإلام ستنتهي.

●●●

كان كل شيء فوق الوصف والخيال، ذاك العالم الذي فتحته هبة أمامي على اتساعه، لا أعرف كيف تعلمتْ ما فعلته بي، لقد عصفتْ بي ورمتني وسط إعصار لا ينتهي من المشاعر المتضاربة، كنتُ ما أزال منتشيًا بها متنسمًا عبيرها ورائحتها وأنا أتململ في سريري، مددت يدي لأتحسس جسدها النائم بجواري، ولكن يدي اصطدمت بفراغ، عاودت تحسس الفراش، نفس النتيجة، فتحت عيني وأنا أنادي باسمها بصوت مشوب بالنشوة، وعندما لم تجبني تركت الفراش وتحركت خارجًا للصالة، ناديت عليها بصوت أعلى، لم يكن هناك أثر لها، حقيبتها الصغيرة لم تكن على المائدة، دخلت للمطبخ والحمام، كانت زجاجات البيرة الفارغة موضوعة في كيس بجوار الحوض، بينما الحمام شاغرًا، أين ذهبت تلك الفتاة؟

تناولت هاتفي واتصلت بنمرتها التي سجلتها أمس، لا مجيب، تليفونها مغلق.

وضعت التليفون جانبًا وتحركت للحمام لآخذ دشًا صباحيًا في محاولة لاستيعاب كل ما جرى.

بعد عدة دقائق خرجت من الحمام، فتحت الثلاجة كانت عامرة بالمأكولات، أخرجت علبة جبنة وبعض الزيتون المخلل، ووضعت براد الشاي على النار.

ارتفع جرس هاتفي المحمول، كنت قد تركته على المنضدة في الصالة، هرعت للصالة لابدّ أنها هبة، للأسف كانت المتصلة في تلك اللحظة هي منال، رجعت فجأة لبداية الحكاية، منال والرواية، رددت بصوت حاولت أن أجعله متثائبًا. أخبرتها أنني طوال الليل ساهر على قراءة الرواية ووضع النقاط للتعديلات. قالت لي أنها أرسلت كل ملاحظاتها وملاحظات الناقد العبقري على الرواية وأنها بهذا قد فعلت كل ما بيدها لي، وراحت تعيد تلك الجملة التي حفظتها تقريبًا: «عليَّ أن أنجز الرواية». وعدتها أن أبدأ فورًا، فنجان قهوة صباحي، وأبدأ، نصحتني ألاّ أشرب القهوة دون إفطار جيد، فهي لا تريد لصحتي أن تعتل فأتأخر عن تسليمها الرواية، وهي تريد أن تكون الرواية هي رواية المعرض القادم والأكثر مبيعًا.

ابتسمت بداخلي وأنا أنهي المكالمة معها، لماذا يا منال؟

عندما عرفت منال أول مرة كانت أبسط من هذا بكثير، فتاة تطمع في بعض الشهرة والمال، ولم يكن دخلها يسمح لها بذلك، أتذكر ترددها على شركات الإنتاج والتفكير أن تصبح موديل إعلانات، وكيف أخذت وعودًا كثيرة بلا جدوى، حتى قابلت طلال، كان في الستين تقريبًا من العمر، جاء ليعمل إعلانًا عن أحد منتجات شركته في مصر، عندما رآها خلبت لبه كما يقول الروائيون. لم يمر أسبوعان حتى تزوجا عرفيًا، وعندما غادر بعد شهرين عائدًا طلال إلى بلدته

ترك لها عربة فارهة ورصيدًا محترمًا في البنك بالإضافة إلى الشقة التي كانت تسكن بها.

بعدها ظهرت منال أخرى لم أكن أعرفها قطّ، منال المتسرعة المتهورة المجنونة، التي رغبتها أوامر، وبدأ نوع جديد يتودد إليها، نوع من رجال ظهورهم في حياتها الآن ربما كان في مصلحتها وليس في مصلحتهم، أصبحت ثروتها تزداد فجأة دون مبرر سوى الرجال اللاهثين، غيرت فكرها من الموديل الإعلاني، إلى الكاتبة الموهوبة والصحفية المرموقة وتفكر جديًا في تقديم برنامج تلفزيوني مستقبلاً، لا أتصور كم الصور التي التقطتها منال لنفسها ووضعتها على مواقع التواصل الاجتماعي، صورة واحدة كفيلة بأن «تجيب أي ناقد على بوزه أو حنكه بالشعبي».

الشاي، كنت قد سهوت عن براد الشاي جريت للمطبخ، كان الماء قد غلى عدة مرات، لا أحب الشاي بهذه الطريقة، رميت الماء في الحوض وغيرت ماء البراد، ووضعته على النار مرة أخرى، هذه المرة انتظرت بجواره حتى يغلي الماء رغم شرودي وأفكاري الكثيرة المتناحرة التي كانت تغلي بداخلي.

وضعت الأكل والشاي على المائدة وفتحت «اللاب توب» ورحت آكل ببطء وأنا أتأمل إشارة إقلاع الويندوز، اتصلت مرة أخرى على

هبة، نفس النتيجة تليفونها مغلق، بعد مدة قليلة كنت منغمسًا بالكامل في تعديلات الرواية المقترحة، وبرغم سذاجة بعض التعديلات المطلوبة ولكني رحت أجريها، ثلاث ساعات كاملة أعدل وأعيد كتابة جمل لتتناسب مع التعديلات الأخيرة، اسم البطلة لم يعجب منال فسوف أغيره باسم من اختيارها، وصلتني رسالة على الفيس بوك فتحتها، وجدتها من كاتب صديق أكثر شهرة مني بمراحل ولكنه واهم يتصور أنني أكثر خبرة منه، كان يريني صورة لمنال في إحدى الحفلات الجديدة للمبدعين من الجنسين وهو يقول متنمرًا في رسالته هذا ما وصل إليه الأدب، ما الغريب في الصورة؟! فهمت أن منال كانت ترتدي ملابس أكثر شفافية ولا تناسب الجو العام للحفلة، بينما ساقيها مكشوفتان لما فوق الركبة بكثير، لا أعرف لماذا الآن أرسل لي هذا الصديق تلك الصورة هل عرف شيئًا؟! هل تسربت أخبار لأحد أنني أكتب لمنال؟! بالتأكيد هي مصادفة رغم غرابتها وتوقيتها، أرسلت إليه رسالة أنني متفق معه وأن هذه النوعية من الكاتبات العاريات هن من أفسدن الذوق العام، حيث تختفي كتاباتهن تحت نهودهن العارية وأفخاذهن الممتلئة، أعجبه كلامي فأرسل لي صورة تعبيرية ضاحكة، تذكرت سعيد هل أتصل به اليوم لأطمئن عليه؟ كلاّ لأتركه حتى يتصل هو، رسالة أخرى تصل لصندوق رسائلي، لماذا فجأة أصبحت محط أنظار أصدقائي؟! هل رحلة الإسكندرية السبب؟! لا

أعرف حقًّا السبب لكثرة الرسائل التي صارت ترد إليَّ هذه الأيام؟! داليا!! ما الذي تريده؟ نعم؟ ستأتي الإسكندرية هي ورباب ويجب عليَّ أن أقابلهما، لماذا قررت فجأة أن تحط رحالها في الإسكندرية هذه الأيام؟! أنا أعرف أنها منذ فترة تلف هي ورباب مناطق كثيرة هربًا من مشاكلهما العديدة، كلاّ سأهرب بجلدي من داليا، ليس وقتها وليس أوانها، هل أغلق صفحتي على الفيس وأريح عقلي من كل تلك الرسائل المجنونة؟! كلما أراد شخص أن يدخل الحمام يرسل لي بهذا، لقد أصبح صندوق رسائلي مبولة عمومية للرائح والغادي، اتركوني وحيدًا هل هذه مشكلة لكم؟

هل قالت هبة اسم المسرحية التي تقوم بإخراجها، أظن أنها قد تكون ذكرتها ولكن وسط أكواب البيرة وسجائر الحشيش لابدّ أن المعلومة قد ذهبت بعيدًا في منطقة غير مأهولة من العقل تعوم في الخيالات.

ما فعلته هبة جعل وصولي لهنا وتلك الرحلة فخًا خطيرًا لي.

●●●

أحاول إعادة التوازن لنفسي بعد ما حدث بيني وبين هبة، شيء بداخلي يقول إن الأمر لم ينته بعد، بل إن ما حدث قد يكون بداية لشيء جديد.

رحت أسترجع كثيرًا من الذكريات ولكني لم أستطع أن أقبض على الصور. الذكريات تأتي متناثرة وكقطعات من عدة أفلام أو أنها تجميع لشريط سينمائي لعدة أشخاص قد أكون أنا لست منهم.

الكوب الخامس من الشاي الذي أشربه، لو استمر الأمر هكذا سيتحول دمي إلى حبر أسود.

جهزت نفسي للنزول بعد أن اكتشفت عدم قدرتي الآن على تعديل حرف زائد من الرواية، بل أتت لي فكرة مجنونة أن أمسح الرواية كلها وأعيد كتابتها من جديد تبعًا للملاحظات، تبًا للملاحظات سأكتب عندما أريد.

لم تأت لهنا لتكتب كما تريد أتيت عندما دفعت لك منال جزءًا من المال، أنت عبد الآن لقلمك لموهبتك، عبد لمنال وفتحي وللجميع، عليك أن تظل تتلقى الرسائل على حسابك الشخصي وعلى بريدك الإلكتروني، حذار ألا ترد، سيشكون فيك وقتها وربما اتهموك بالتعالي وتعرضت للشتائم، لا توقف حسابك سيظنون أنك هربت من معركة لم تستطع أن تخوضها رغم عدم وجود تلك المعركة، ما الذي تبغيه حقًا؟ منال، هل تريد مضاجعتها؟ هل ستعرض عليها عندما تنهي الرواية أن تسلمها لها مقابل مرة واحدة فقط؟ مرة واحدة تستمتع فيها بالجنس معها، كن عاقلاً، منذ فترة طويلة نبذك الأصدقاء دون

سبب سوى أن شهرتك تأخرت بعض الوقت، للحق لقد تأخرتْ كثيرًا، إنهم يعرفون أنك أكثر موهبة منهم ومن الجميع، ولكنهم يحفرون حولك الخنادق والطرق حتى لا يسطع نجمك؛ ليظل آفلاً؛ لتظل في احتياج إلى نظراتهم الهادئة المتشفية أحيانًا، المؤانسة لحياتك في أحيان أخرى.

ما الذي تتذكره من حياتك قبل ظهور منال؟ كنت قد انتهيت، أصبحت كمًا مهملاً، كل شيء حولك يتساقط، العمل وقد تركته، ما معنى أن تكون أديبًا وكاتبًا كما تزعم وتقف في محل ملابس حريمي؟ ما الذي يربطك بالمرأة؟ حتى عندما عملت وجدت نفسك تعمل في ملابسها الداخلية، كيف أقنعتك إلهام وقتها بهذا العمل؟ إنه محل أمها، وبداية علاقتك بإلهام أنك تبحث عن عمل. الكتابة لا تغني ولا تسمن من جوع، سيظل جيبك خاويًا، وبطنك لم تشبع بعد، أصدقاؤك يقلون ويختفون أو ينضم إليك المحبطون أمثالك.

ما الذي قالته أم إلهام في أول مقابلة؟ عمل رجل في محل ملابس داخلي حريمي، عادي لا داعي لأن تكون ساذجًا أو يكون على وجهك خفر النساء، لا تبتلع ريقك بهذه الصورة الخائفة إنها تجربة.

تجربة استمرت لثلاث سنوات وأكثر، منذ أن أودعت بيدك أمك قبرها، منذ أن خلت تلك الشقة القديمة عليك، وعندما عرفت

بمحاولات صاحب البيت أن يطردك من الشقة ليهد العمارة؛ ليهدها على رأسك هكذا قررت وأنك لن تخرج، لم تفهم ألاعيب الكبار، عندما وجدت حكمًا من المحكمة بطردك، جمعت أشياءك الصغيرة وصورة أمك، بحثت عن صورة لأبيك كثيرًا فلم تجد، إنك تقريبًا لم تره، أمك لم تحدثك عنه كثيرًا، قالت بعض الذكريات عن حبها له وإخلاصها وكيف ضاع مع من ضاع في أثناء ضرب السويس بالقنابل، هروبك ونجاتك أنت وأمك كان معجزة كنت ما زلت لحمة حمراء لم تكمل شهورًا، هذا ما قالته لك، أبوك مات مع من مات، هاجرتْ وقررتْ ألاّ تعود، موطن الأحزان يقتلها حتى بعد الانتصار، كانتْ قد استقرتْ في شقتكم القديمة، لوقت طويل لم تفهم طبيعة عمل أمك، ولكن دومًا كانت هناك تلك المأكولات الغريبة الطعم التي تأتي بها كل ليلة، مُعجنة أحيانًا وأحيانًا نصف مستوية أو محروقة وفي كل الأحوال كانت تأتي باردة، تعودت على هذا الأكل الغريب المتداخل أحيانًا وعندما كبرت قليلاً، عرفت أن أمك تعمل في مطبخ أحد الفنادق، ماذا فعلت وقتها، لا شيء غرست نفسك في الكتب والروايات والحكايات، كان محل فؤاد بائع الجرائد هو مكانك المفضل، رائحة الورق، الكتب القديمة وطبعات الهلال، صاحب السعادة اللص لخيري شلبي، بداية ونهاية لنجيب محفوظ، الثلاثية، الحرافيش، الحرام لإدريس، القراءات المتوالية، صورة إحسان المطبوعة على ظهر رواياته،

فتحي غانم ورجله الذي فقد ظله، كنت أنت أيضًا تفقد ظلك في تلك اللحظة، كنت تختفي عن الوجود والناس والمارة، وفؤاد ينظر إليك كل حين لعلك تقف، لكنه كان يتركك عندما يذهب للصلاة تحرس الدكان، يطلب منك أحيانًا أن تكنس أمامه، أن ترش بعض الماء، لم تخجل قطّ حتى عندما كنت تكنس أحيانًا ويعبر أمامك أصدقاء المدرسة؛ لتعترف لنفسك أنك طوال عمرك تخاف من الصداقات الطويلة، تفزعك، فكرة أن تكون ملتزمًا بصديق أو صديق ملتزم بك، تحطم أعصابك منذ الصغر، هانم، تتذكرها بالتأكيد، هانم كانت تهوى الكتب مثلك ولكنها لم تكن بمثل جرأتك، هل تتذكر كيف قبلتها أول مرة؟! كان فؤاد في الصلاة وهي أتت تطمع في رواية، وراء الحاجز الداخلي للدكان، كانت شفتيها مبللتين وشهيتين وكانت تهمس باسم الرواية وأنت تمد يدك لتلمس يديها فترتعش، أخذتْ قبلتك الصغيرة على خدها برعشة طفولية وهي تمد شفتيها نحوك وكأنها تهرب بوجهها إليك، هل طالت القبلة؟ لا تتذكر بالتأكيد، ولكنك تتذكر قبلات أخرى بعدها، كانت تستبدل وقتها ما أخذته من روايات بروايات أخرى، لم تبخل عليها ولم تبخل هي عليك، عرفت مواعيد غياب فؤاد وهي حفظتها، هانم أين أراضيها الآن؟

لماذا تطاردك الذكريات؟ لماذا لا تحاول الهرب؟ لماذا تتذكر أول مرة حاولت العمل كحداد مسلح؟ كنت في العاشرة وقتها أو أقل،

كان الوقت صيفًا شديد السخونة، والحديد على الأرض يقترب من الاحمرار، هل شعرت بيدك وقتها وأنت ترفع أول أسياخ الحديد لتقص؟ أصبحت يدك لا تشعر بالنار مع مرات تكرار الأمر، اخشوشنت قبل الأوان؛ لتهرب الذكريات بإلهام وأمها ومحل الملابس الداخلية الحريمي، لتهرب هانم وفؤاد بكتبهما وألغازهما المحيرة، هل كان فؤاد يعلم بعلاقتك وأنت في الرابعة عشرة من عمرك بهانم؟ هل تلصص عليكما من قبل؟ لا وقت لذكريات لن تعود عليك بشيء؛ لتعود مرة أخرى للآن، للحاضر، لهنا، لمنال والرواية، لفتحي المراقب لك المنتظر انتهائك من المهمة، لهبة التي جاءت بعد خمس سنوات انقطاع لتعطيك لذة للحياة وتختفي دون مبرر. هل تظنها أخطأت في حقك وحق نفسها؟! كان لابدّ أن تحافظ على صورتها القديمة أمامك، تلك الفتاة الرقيقة الحالمة التي تكتب بعض الخواطر الجذابة، تجتر ذكرياتك فتجفل، حياتك لم تكن حياة واحدة بل عدة حيوات متناثرة.

أشياء كثيرة كان لابدّ أن تظل على حالها، عدت من شرودك لتتأمل الشقة الخاوية عليك، قبل أن تقرر أن تتحرر قليلاً بالنزول؛ لتستعيد بعضًا من نفسك.

●●●

(٤)

كان الجو قارس البرودة، لم أكن أحب الشتاء، وأيضًا لا أحب الصيف، لا أعرف ما الجو الذي أريد أن أعيش فيه؟! مطعم على البحر، أدخل ليس لسبب سوى تزكية الوقت، استقبلني النادل بابتسامته المزيفة التي يوزعها بسخاء على الرواد، أشار إلى مائدة شاغرة لي وأفسح لي الطريق، وضع أمامي قائمة الطعام. لم يكن لدي رغبة في الأكل، فتحت القائمة وتأملتها لثوان، قبل أن أشير له أن يجلب لي على مزاجه.

كان هناك عدة فتيات يجلسن يتناولن طعامهن في صخب، صوت خبطات الملاعق والشوك أصبحت سيمفونية رديئة تصل إلى أذني، راحت عيناي تجوبان الوجوه، فهكذا المؤلفون يظنون أنهم سيحصلون على قصة من كل مكان يدخلونه، ولكن في هذا المطعم من الجلي أنه لا يقدم سوى الوجبات المطبوخة ولا يحمل لي أية قصة، لماذا تذكرت فريد العطار زميل القطار فجأة؟! هذا الرجل جاء على بالي عدة مرات دون مناسبة منذ أن رأيته، ولكني في تلك اللحظة كان يشغلني أشياء كثيرة فلا أريد أن أضيف شيئًا آخر إلى ما يعج به عقلي من أفكار.

لقد بحثت كثيرًا عن نمرة محمود الجديدة بعد أن حاولت أن أكلمه على نمرته القديمة فيأتيني الرد السخيف الهاتف قد يكون مغلقًا أو خارج الخدمة.

حاولت عدة مرات وفي النهاية حاولت أن أبحث له على حساب على الفيس فلم أجد له أي وجود.

كان يشغلني بشدة أن أعرف منه أخبار هبة، وأسأله عنها.

حادث أمس معها لم يكن طبيعيًا، فها هي الطفلة العنيدة التي تصغرني بأكثر من عشر سنوات قررت أن تمنحني درسًا لم أفهمه، منذ فترة بعيدة وأثناء علاقتنا الوطيدة كأصدقاء لم يدر في خلدي قطّ أن تتطور العلاقة لهذا الشكل، أخيرًا وجدت رسالة من صديق مشترك برقم محمود الجديد بعد أن سألته عنه، كنت أخاف أن أطلبه الآن، شيء قال لي: أبعد محمود عن الحكاية، هل سوف أخبره بما حدث بيني وبينها؟! هل أنا مجنون؟ كلاّ ستكون مكالمة عادية، بسيطة، نسترجع فيها ذكريات سنوات مضت، ثم تلميح مني عن هبة ومكانها وحياتها الآن، وهل يراها أم لا؟

لم يكن التردد مجديًا، كان النادل يضع الطعام في تلك اللحظة التي قررت فيها أن أتصل بمحمود، ترك ابتسامته في وجهي لوهلة، فهززت رأسي شاكرًا وهو ينسحب في بطء مقيت مع رنين جرس الهاتف الخاص بمحمود.

أخيرًا جاءني صوت محمود وكأنه يأتي من بئر سحيقة، بعد دقائق قليلة من المجاملات والسلامات كانت ترتفع ضحكته في التليفون وهو يتذكر الماضي معي وكيف كان ساذجًا، وجاء الوقت لأطرح سؤالي عليه عن هبة، سألته عنها، شعرت بحشرجة في صوته، وصمت، طال صمته لدرجة أنني شككت أن الاتصال انقطع.

أخيرًا جاء صوته به حزن ما، تلك اللحظة التي تشعر عندها أن هناك شخصًا سينقل لك خبرًا سيئًا.

قال ما الذي فكرني بها، إنه تزوج منذ فترة، لقد نسيها، القدر، كرر الكلمة عدت مرات، وفي النهاية قال لي إن آخر ما يعرفه أن هبة أصيبت بالسرطان، وامتد ليشمل جسدها كله حتى ماتت متأثرة بالمرض، سمع أنها جربت العلاج بالأشعة والكيماوي ولكن نهايتها كانت معروفة ومحتومة.

ارتفع صوتي بشدة وأنا أقول له إن ما يقوله غير حقيقي.

أردت أن أصرخ فيه أن هبة كان معي أمس وفي شقتي، ما هذا العبث الذي يقوله؟

ترددت لسبب لا أدركه أن أواصل صراخي، استشعر هو حالتي؛ فهدأت نبرة الحزن في صوته، لمحت الفتيات في المائدة المجاورة لي ينظرن ناحيتي في فضول أنثوي خبيث.

فهناك اسم امرأة ورد على لساني، وقصة حب وضحك انقلب لصراخ؛ إذن هناك قصة ستحكى.

في نهاية المكالمة حاول محمود أن يؤكد كلامه وقال إن كل حرف نقله لي صحيح فهذا ما قالته له صديقتها المقربة ريم، وهو آنذاك كان قد انفصل من سنة تقريبًا عنها وكان يجهز نفسه للزواج، وهي في نفس الوقت كانت محجوزة في مستشفى بعيدًا عن القاهرة في بلدتها والاتصال شبه غير موجود، سألته في الوسط عن المبلغ الذي أخذه منها هل أرجعه؟ ضحك وقال وهل أرسلك شبحها لتستعيد الدين؟! تصور كثيرًا ما أفكر أن أرسل المبلغ لأحد أقاربها ولكنني أخاف الذكريات وأخاف البحث عن هذا القريب.

أنهيت مكالمتي معه وسط ذهولي، هل جن محمود أم أنا المجنون الآن؟

كانت الأطباق أمامي كما هي لم أمس منها أي شيء، أشرت للنادل فجاء مبتسمًا وهو يسألني هل الأكل به ما لا يعجبني، هززت رأسي بلا وطلبت فاتورة الحساب، حاول النادل أن يفتح حوارًا أن الأطباق كما هي، لكني أعدت تكرار طلبي للفاتورة، غادرت المطعم وسط ضحكات خفيفة خبيثة من الفتيات اللاتي كن يتابعن الحوار، لم أهتم بضحكاتهن ونظرت لهن وأنا أمر من جوارهن مغادرًا نظرة أظن أنها أخرستهن وأخفتهن.

كنت في حالة غير طبيعية، لم أستطع أن أفهم نفسي في تلك اللحظة، اتصلت بي منال عدة مرات فلم أرد، شعرت برغبة عارمة في أن أغير شيئًا لا أعرفه. نظرت لهاتفي المحمول بنوعه القديم قبل أن أتحرك سائلاً أحد المارة عن أقرب محل يبيع الهواتف المحمولة، أشار الرجل بيده إلى شارع وقال إن انعطفت يمينًا سأجد المحل في المنتصف.

أخرجت الظرف من جيبي الذي به النقود عددتها، عرفت ما معي، استقبلني شاب أنيق في منتصف العشرينات، أخذ يعدد لي مزايا التليفونات والأنواع المعروضة، اخترت نوعًا قريبًا من المبلغ الذي أحمله معي، منحت البائع المبلغ وطلبت منه أن ينقل كل الأرقام على التليفون الجديد، وأن يقص لي الشريحة لتتناسب مع الجديد.. قص الشريحة وأعطاني الجزء المفرغ وقال إنه لو رغبت في وضع الشريحة مرة أخرى في هاتفي القديم فلا حاجة لأغير الشريحة وقتها.

لم تمر نصف ساعة حتى خرجت وقد أصبحت أملك هاتفًا جديدًا، ولكن المبلغ معي أصبح صغيرًا، أظن أن أول من سأطلبه سيكون فتحي، سأطلب جزءًا آخر من فلوس الرواية، لن تمانع منال، هل سوف تشك أنني أحاول أن أنصب عليها؟ ليس في نيتي هذا، سأعطيها الرواية في نهاية الأمر.

جاء رنين الهاتف الجديد عاليًا وغريبًا ولم تعتده أذناي بعد، رددت، كانت منال التي سألت لماذا لم أرد من قبل، أخبرتها أنني كنت أشتري تليفونًا جديدًا، سألت على سعره أخبرتها، قالت ليكن اعتبر التليفون هدية مني لك خارج الاتفاق، سأخبر فتحي أن يأتي لك مساء بالمبلغ ولكن لا تشتري أشياء أخرى جديدة، أكمل الرواية وستكون لك مفاجأة لدي، وعدتها أنني بالفعل شرعت في تنفيذ الجديد وكتابة المسودة الثانية، أخبرتني أن عليَّ أن أرسل لها نسخة من الرواية لأن النسخة الورقية التي كانت معها أنا أخذتها في آخر مرة بالملاحظات، وقالت أنها تريدها مطبوعة فالقراءة على الكمبيوتر تتعب عينيها، أخبرتها أنه من الأفضل أن تستلم النسخة الأخيرة جاهزة على الطباعة، أنهيت المكالمة، وضعت الهاتف القديم في جيب معطفي وبداخله الجزء المفرغ للشريحة، وأخذت طريقي للبحر، كانت هناك سحب رمادية تركض في السماء، ولكن الجو كان خريفيًا لحد كبير، الموج يضرب الشاطئ برفق وكأنه يداعبه.

جلست على البحر أتأمل الموج وأتأمل المارة والسيارات التي تجلد أسفلت الطريق.

كان هناك رجل عجوز قد جلس ورمى خيط صنارته للبحر، وكان يجذب الخيط لوهلة، ثم يعود ليحرره، من الجلي أنه يجاهد أمام سمكة ما، بعد هنيهة كان يسحب الخيط، رأيتها على سطح الماء

تتقافز وتحاول أن تحرر نفسها من الشص الذي انغرس بفمها ولكنها بعد وهلة كانت تلمع في الهواء قبل أن يمد يده بحرفية ويقبض عليها، وينزع الشص من فمها، قبل أن يضعها في صندوق بجواره، ابتسمت دون سبب فلمح ابتسامتي فابتسم وهو يعيد تلقيم صنارته ليقذف بها للماء مرة أخرى.

بعد فترة بدأ عدد آخر من الفتيان والرجال يرصون كراسيهم ليسوا بعيدين عن الرجل وأخرجوا عدد الصيد، يبدو أن الجو شجعهم على الخروج، أظن أن العجوز ألقى إليّ نظرة وهو يتزحزح أمتارًا عن مكانه السابق وكأنه يقول قد أتى المزاحمون.

لا أعرف كم مضى من وقت وأنا أتابع عملية الصيد ويرتجف قلبي لمرأى كل سمكة يخرجها أحدهم، بالفعل كان البحر جوادًا اليوم، العجوز أرسل لي شاب بكوب من الشاي وكأنه يخبرني بأنني وش السعد عليهم اليوم فقد كانت السمكة التي أخرجها عند حضوري أول سمكة اصطادها اليوم، هذا ما عرفته منه عندما أتى ليجلس بجواري بعد قليل وهو يعزم عليَّ بسيجارة، ابتسمت له وقلت آنذاك لنفسي مازحًا إنني دومًا أجلب السعد للآخرين ولكني أبخل به على نفسي.

يسألني من أين أنا، أخبره، يسألني هل أنا في أجازة وماذا أعمل، أقول له أنني مدرس لغة عربية، لا أقول له أنني مؤلف حتى لا

تنفتح طاقة أن لديه قصصًا يحكيها لي، كان العجوز في السبعين تقريبًا، وجهه ممتلئ، رأسه صلعاء، عيناه تومضان رغم كبر سنه، لم أسأله عن اسمه ولكنه تبرع أن يخبرني به بعد فترة من حديثنا، مراد الشناوي، قالها ببساطة وكأنه توقع أن أعرف من هو بمجرد أن عرفت اسمه، وعندما لم يثر اسمه بداخلي أي شيء قال إنه كان لاعب كرة قدم مشهور منذ أربعين سنة تقريبًا، بل انضم للمنتخب القومي عدة مرات، لعب لنادي الاتحاد وللمنتخب لسنوات، رحبت به وأخبرته أنني من النوع الذي لا يهتم بكرة القدم للأسف، سألني أين أقيم في الإسكندرية، حاولت تذكر العنوان، وأخبرته وأنا أعبث في جيوبي بحثًا عن ورقة العنوان أن لدي مشكلة في تذكر أسماء الشوارع والأحياء، ابتسم وهو يقول ربما ذاكرتي ترفض الارتباط بالأماكن حتى لا يكون لدي ذكريات بها، أومأت برأسي في شرود وأنا أخرج كل الموجود في جيبي، لقد اختفت الورقة التي بها عنوان الشقة، ضحك كثيرًا عندما قلت له هذا، قال: لا مشكلة؛ لأتذكر فقط أول حرف من الشارع وهو سيأخذنني إلى الشقة ليس هناك شارع في الإسكندرية لا يعرفه، حاولت التذكر دون جدوى، قال: لا مشكلة من هذا؛ لأتذكر على مهلي في أثناء تناول الغداء، لم أفهم في البداية ولكنه أكمل مستطردًا أن السمك الذي اصطاده جاء على وجهي أنا أول شخص له الحق في أن يتقاسمه معي على الغداء، حاولت التملص منه ولكنه لم يعطني الفرصة وهو يسحبني كطفل صغير

تائه من أمه في اتجاه سيارة تقف على مقربة، فتح صندوق السيارة ووضع بالداخل صندوق السمك وعدة الصيد، ثم عاد بعد لحظات لجلب الكرسي الصغير الذي طواه بيده بقوة وهو يعود سريعًا ليضعه في السيارة، ويشير لي أن أركب بجانبه. للحظة أردت الفرار منه، شيء بداخلي أخافني من معرفة مراد الشناوي عن قرب، ربما حدس الكاتب بداخلي قال لي هذا، ولكن لم يكن هناك بدُ من الاستمرار في مجاراته في تلك اللحظة، في السيارة أخرجت التليفون وحاولت الاتصال بفتحي ليخبرني عن عنوان الشقة، جرس مستمر ولا أحد يرد، لا أريد أن أتصل بمنال فتعنفني عن ذاكرتي السيئة، أتذكر مقولة أن الحياة ذاكرة سيئة وصحة جيدة لا أتذكر من قائلها لابدّ أنه كاتب مشهور لتعلق في ذاكرتي هكذا، رحت أتأمل الشوارع وأحاول أن أحفظ أسماءها وأنا شبه متأكد أن بمجرد نزولي من السيارة لن أتذكر أي شارع، يعتقد بعض أصدقائي أن هذا مرض بي، قال الشناوي بهدوء وعيناه على الطريق: هذا حي المكس يؤدي إلى أحياء الورديان والقباري ومينا البصل والمنشية وشارع السبع بنات، ابتسمت ولم أرد، لم أعرف كم من وقت مرّ وأنا أعيد الاتصال بفتحي فلا أجد ردًا سوى صوت الجرس المتواصل على الطرف الآخر، بعد فترة كانت السيارة تركن أمام عمارة قديمة ولكن واجهتها تدل على عراقتها وأن سكانها من طبقة جيدة.

طلب مني النزول، قال إننا سنصعد السلم فالشقة في الدور الثاني، بعد لحظات كنا أمام باب الشقة طلب مني أن أحمل صندوق السمك حتى يفتح الباب، فتح الباب ودعاني للدخول، كانت الشقة من الداخل مضاءة، الأثاث فخم لحد مدهش ويحمل ذوقًا فريدًا، هناك لوحات متناثرة في جمال أخاذ على حوائط الصالة، قال: ثوان وسأعود لك سأطمئن على الحاجة. أحرجت في البداية، كيف ستستقبل سيدة زوجها وهو يصحب شابًا عرفه للتو للغداء، هل أتراجع الآن وأخرج، دقائق وكانت تلك السيدة تخرج من الغرفة، ولكنها لم تكن وحدها، كانت تجلس على كرسي بعجل وهو يدفعها من الخلف، قدمها لي وهي تمد يدها بالسلام كرستينا زوجتي، شعر أصفر متموج على بشرة شديدة الاحمرار، عينان عسليتان، وفم صغير، بلعت ابتسامة بداخلي كيف تكون الحاجة هي كرستينا؟! سلمت عليها، عرفها عليَّ وقال إنني سبب كل رزق اليوم من السمك، ابتسمت وهي ترحب بي بحفاوة غير مبررة، قال وهو يحمل من يدي صندوق السمك الذي كنت أمسكه للآن ولا أشعر: كرستينا سوف تسليك حتى أعد الغداء، فهي تعشق الحكايات.

وجدت نفسي بغتة بعد ذهابه للمطبخ أدفع كرسي كرستينا وهي تشير لي أن أفتح النافذة المطلة على الشارع لدخول بعض الهواء، أردت أن أقول لها قد يتبدل الجو ويصبح قارصًا في أية لحظة ولكني

صمت وأنا أفتح النافذة، ابتسمتْ وهي تقول إن الشناوي يبالغ وأنها لا تملك حكايات من الأساس، الكاتب بداخلي كان ينازعني وقتها أن أسمع منها، فمنظرها وهيئتها لا تدل على أصول مصرية، أظن أنها أقرب لليونانيين، بعد فترة عاد لنا الشناوي يحمل كوبين من الليمون وهو يقول إنني سوف أذوق أحلى سمك أكلته في حياتي.

كيف يتحرك هذا الرجل بهذا النشاط، ربما ربطت الأمر بداخلي لحالة زوجته، فهو لابدّ أن يظهر أمامها قويًا حتى لا يصيبها بالضعف أمام مرضها، لم أرد أن أسألها هل ولدت هكذا أم لا؟! سيأتي وقت للحديث هكذا علمتني الحياة. سيطر الصمت على المكان لفترة وهي تمد أنفها وتتشمم الهواء البارد الداخل من النافذة، بعد فترة قالت في خفوت هواء الإسكندرية تغير، أومأت برأسي في استسلام، فتابعتْ عندما عرفت الشناوي في بداية حياتنا كان الهواء غير الهواء، هناك شيء أصبح زائدًا يحمله الهواء لصدورنا، ربما شعورنا بالغيظ والاختناق.

سألتُ نفسي: هل تجيد تلك المرأة الفلسفة؟! وراحت أسئلة أخرى تظهر أمامي. لا أعرف كيف نسيت وقتها منال وهبة وفتحي والرواية وكل شيء، تابعتْ قائلة إنها كانت مهووسة بالشناوي تدور وراءه في كل الملاعب، تشجعه في جنون، حتى عندما كان يسافر خارج مصر كانت أحيانًا تسافر وراءه، أسرتها اتهمتها بالجنون قالوا إن مكانها

الخانكة، وسألتني أأعرف الخانكة التي بالمعمورة؟ هززت رأسي بلا، وضحكتْ وأنا أقول لكني أعرف العباسية، قالت إنها الوحيدة المتبقية من أسرتها في الإسكندرية، هرب الجميع، عبد الناصر كان مجنونًا ونحن صدقناه، وأنتم أيضًا صدقتموه، اللعنة الجميع كان يظنه صادقًا حتى أعداؤه.

لم أرد الكلام في السياسة ولم أرد أن أجاريها فصمت، شعرتْ هي، قالت إن عبد الناصر صار يؤمم الجميع، فكان لابدّ من الهروب، فقدت الإسكندرية الكثير بهروبنا، لم أعرف هل قالت إنها يونانية أم ماذا فقد دخل وقتها الشناوي علينا وهو يقول: «دقائق والأكل سيكون جاهزًا، تستطيع أن تغسل يدك في الحمام على اليمين».

قمت بهدوء وأنا أبتسم في وجه الحاجة كرستينا، دخلت الحمام فتحت الصنبور ورحت أغسل يدي، كل شيء منظم بدقة حتى في الحمام، من الجلي أنهم يعيشون حياة منظمة لدرجة كبيرة، لم أشغل بالي وسحبت المنشفة من على المشجب نشفت يدي وخرجت، سمعتها تضحك بصوت عال والشناوي يدغدغها وهي تواصل الضحك باستمتاع طفولي، كل شيء حولهما كان يدل على قصة حب عمرها سنوات طويلة، كان يواصل زغزغتها كطفل صغير حتى أصبحت أمامهما، قال بابتسامة: الحاجة طفلة تحب المداعبة، بينما قالت هي من وسط ضحكاتها: الشناوي طفل خبيث لا تصدقه.

ضحكت أنا بالمثل ثم لزمت الصمت، قال الشناوي تعرف أن منظري ومنظرها في أثناء الحج كان يثير البعض كنا كطفلين يلعبان تحت سماء الله.

عرفت الآن لماذا يقول لها الحاجة؟! فهي بالفعل زارت بيت الله الحرام، قالت وهي تبتسم: حجته باطلة إنه طفل صغير، هل يجوز للأطفال الحج؟

لم أقل رأيي في الأمر فأنا في حضرة مجاذيب بالتأكيد، شرحت لي أنها أسلمت عن قناعة وليس حبًا في الشناوي، ولكنها لا تحب اسم أمينة الذي أطلقوه عليها بعد إسلامها تفضل اسمها القديم، ضحكت لهذا الشناوي وأمينة، وسي السيد، نجيب محفوظ يفرض نفسه على الحكاية، قلت مبتسمًا: «ربما كرهت الاسم من أفلام الثلاثية وسي السيد».

فاجأتني أنها قرأت لنجيب، فهي تهوى الأدب والرسم، قالت ستريني مكتبتها بعد الغداء إذا كنت من النوع المهتم بالأدب، وهناك لوحات خاصة بها لو أحببت مشاهدتها، صمتُ ولم أعلق، أردتُ أن أعرف كيف تقرأ لنجيب وكيف تنطق اللغة العامية المصرية بتلك الصورة التي لا تشكك في لحظة لو سمعتها تليفونيًا وليس وجهًا لوجه أنها مصرية قحة.

غادرني الشناوي وعاد بعد دقائق وهو يقول إن السفرة جاهزة.

كان بالفعل ألذ سمك أكلته منذ سنوات، الشناوي يفصص السمك ويؤكِّل كرستينا بيده، كانت أمام السفرة صورة لفتاة تبدو في أواخر العشرينات، قالت كرسينا بعد أن رأت عيناي متعلقتين بالصورة: «ابنتي نجوان تحضر دكتوراة في ألمانيا ستعود بعد ستة شهور».

حاولت أن أبعد عيني عن صورة نجوان، ولكني ضبطت نفسي أكثر من مرة متلصصًا على الصورة، شيء في الصورة وملامح نجوان يجذبني بشدة، ربما حالة الحب التي تدور أمامي هي السبب، قال الشناوي حاولنا لخمس سنوات الحصول على طفل، وفشلنا وعندما استسلمنا ورضينا بالأمر الواقع أتت نجوان كهدية من السماء، شيء ملائكي كأمها..

لمحت دمعة تكاد تفر من عيني الشناوي، ولكنه ابتسم ابتسامة مقتضبة، وهو يدعك عينيه بظهر يده.

ضحكت كرستينا وهي تقول: خلبوص الشناوي يحاول دائمًا تثبيتي بالكلام. هل تعرف كم فتاة كانت تطارد الشناوي زمان؟!

قال الشناوي وهو يضع قطعة من السمك في فمها: «الكثيرات، الكثيرات ولكن عيني لم تكن ترى غيرك ليل نهار».

انتهيت من الطعام وسط جو شديد الحميمية، لا أعرف كيف كنت وسطهما بهذه الصورة وأنا المعتاد الهروب من البشر، إن لهما طبيعة خاصة تجعلك تغرق في تفاصيلهما، بعد الغداء قال الشناوي أنه سيعد الشاي، حاولت أن أعرض عليه أن أحمل الأطباق الفارغة معه للمطبخ ولكنه رفض، لقد أتينا على الأكل لآخره، قال لي وهو يهمس: لأول مرة تأكل هي بهذه الشهية منذ سنوات، إنها أحبتك بالفعل.

قالت كرستينا لي أن أدفع كرسيها لتريني المكتبة ولوحاتها المرسومة، دفعتها حتى فتحت بابًا صغيرًا يؤدي إلى غرفة واسعة كانت المكتبة دائرية بطول الغرفة، بينما هناك لوحتان معلقتان في فراغ بجوار الباب وبعض اللوحات مرصوصة على مائدة في وسط الغرفة، تعلقت عيناي بالكتب ورحت أقلب فيها، روايات وكتب سياسية واجتماعية، كتب لم أرها من قبل، لوحاتها كانت فاتنة فعلاً. وجدت بورتريهًا مرسومًا لنجوان، كانت عيناها تصرخان فيه بالسعادة وعلى شفتيها ارتسمت أعذب ابتسامات الكون، أردت أن أصرخ ما هذا؟ هل هناك ملائكة تسكن الأرض؟ منعت صرختي بداخلي وأنا أشيد بالمكتبة واللوحات، لاحظت كرستينا اهتمامي بالكتب، قلت لها أنني قارئ نهم، وما لديها كنز بالنسبة لي، قالت لو كنت من الإسكندرية كانت ستسمح لي بالاستعارة من مكتبتها، ضحكتُ وقلت لأجل هذه المكتبة من الممكن أن أنقل سكني لهنا. ابتسمتْ وهي تشير لي أنها

تريد أن تشم بعض الهواء البارد فهي تحس بالتخمة من الأكل، فقد أكلت كثيرًا وقد استغفلها الشناوي في أثناء الحديث على السفرة فملأ بطنها بالطعام، هي لا تريد زيادة في الوزن، حتى هذه اللحظة لم أجرؤ أن أسألها عن سبب أنها تتحرك على كرسي متحرك وهل هي حادثة؟

بعد لحظات كنا نتناول الشاي في شرفة الشقة، الجو كان بديعًا في تلك اللحظة وكأنه يشاركني لحظات سعادة قليلة نادرًا ما أحصل عليها، عند الانتهاء من الشاي عاودت الاتصال بفتحي، هذه المرة رد من أول جرس واعتذر أنه كان قد ترك تليفونه في عربته ونسيه، طلبت منه عنوان الشقة، وقلت له أنني نسيته، استغرب في البداية ثم أملاني العنوان، فكتبته، قال الشناوي لقد حفظته لا تقلق. سأوصلك، طبع قبلة على جبين كرستينا وهو يقول: أميرتي سأوصل الضيف سريعًا وأعود لك، سلمت على كرستينا بحفاوة وشكرتها على كل شيء، وعلى أشياء شعرت أنها تنمو بداخلي، حاولت أن أتلصص على صورة نجوان وأنا خارج ومنعت نفسي بشدة ولكن بداخلي شعرت بشيء ينمو ويأخذني بعيدًا فملامح نجوان شعرت أنها انطبعت بداخلي من أول وهلة، غادرت وابتسامة نجوان في البورتريه هي كل ما يشغل عقلي في تلك اللحظة، ضاربًا بعرض الحائط أي شيء آخر يبعدني عن ابتسامتها، ولا أدرك سببًا لهذا، وأفكاري تتناحر بداخلي بلا مستقر ولا مرفأ.

(٥)

صحوت من النوم في تكاسل، كنت أشعر بخمول، كنت قد استسلمت للنوم بعد وجبة السمك في بيت الشناوي، اتجهت للمطبخ وضعت البراد على النار، دخلت الحمام، غسلت وجهي، ونشفته.. عدت لصب الشاي.. كنت في حالة من الوعي واللاوعي.. أظن أنني حلمت بنجوان، لا أتذكر تفاصيل الحلم الآن.

المؤكد أنه كان حلمًا رائعًا.

الساعة الآن العاشرة والنصف مساء، رحت أدعك فروة رأسي بيدي وأنا أجلس على المائدة التي وضعت عليها اللاب توب مفتوحًا، ضغطت كالمعتاد الزر ليعمل الحاسوب، انتبهت أنني نمت بملابسي كاملة ولم أغيرها.

خواء يشمل عقلي كله، شعور تام أنني في فراغ، وكل شيء حولي عبارة عن حلم سينتهي، فضاء سرمدي ينتشر داخل تلافيف مخي بحجم الكون.

الهاتف الجديد موضوع أمامي على المنضدة، فجأة سمعت رنة وصول رسالة على الهاتف، لقد عملت باقة الاتصال كانت الرسالة على «الواتس آب» كانت من منال تقول فيها مبارك عليك دخول عالم «الواتس».

رددت بكلمة واحدة مقتضبة: «شكرًا». أرسلتْ رسالة ووش تعبيري يضحك أن فتحي أخبرها أنني تُهْتُ ونسيت عنوان الشقة، كتبتُ ردًا سريعًا: «حصل». قالت: «انتبه لنفسك جيدًا، لا وقت الآن للتوهان، ركز، أريد نتائج مبهرة».

أجبتها برسالة سريعة: «اتركيني حتى أعمل». أرسلتْ صورة تعبيرية أخرى مبتسمة وكلمات قليلة: «حاضر، ركز، سلام».

وضعت التليفون جانبًا، ورحت أتأمل شاشة الكمبيوتر، فتحت صفحة الفيسبوك، أردت أن أكتب شيئًا جديدًا معبرًا عما بداخلي، فوجدت أن عدم الكتابة أفضل الآن.

كنت في تلك اللحظة كالطفل الصغير الذي أمامه مئات اللعب ولا يجيد لعب أيّا منها، الفرجة تكفي، رحت أقلب عيني في صفحات الفيس وأنظر ماذا يكتب الآخرون، رحت أحاول شغل عقلي بمحاولة تفسير ما كتبه الأصدقاء على صفحاتهم ولماذا؟!

بعد لحظات وجدت رسالة من داليا: «أنا ورباب في الإسكندرية نزلنا في البيطاش، هذه نمرتي ٠١٢٥١٥٦٥١٢ اتصل بي ضروري».

رددت على الرسالة بغيظ لا سبب له: «تليفوني به مشكلة، غدًا سأكلمك صباحًا من الخارج».

أرسلتُ أنها تريد أن تراني اليوم، قلت لها غير ممكن اليوم، غدًا. أرسلتُ رسالة أخرى فأغلقت صفحة الفيس قبل أن أراها، ومددت يدي لأغلق الهاتف أيضًا. لماذا أخاف من لقاء داليا؟ أظن أنني لست خائفا حقًا منها، لكنها ستسبب لي صداعًا أنا في غنى عنه الآن.

أرحت رأسي إلى الوراء وحاولت أن أعود لحالة الخواء الفكري مرة أخرى. فجأة اتسعت عيناي واعتدلت بجسدي وأنا أضرب جبهتي بيدي، اللعنة، إنني لم آخذ رقم الشناوي منه، وفي نفس الوقت لا أعرف عنوان شقته، حاولت أن أتذكر أين قابلته تحديدًا على البحر، مستحيل!

بهذه الصورة سيختفي الشناوي وزوجته لن أستطيع الوصول إليهما، لماذا أرغب في الوصول إليهما؟! نجوان!

اللعنة لماذا لم أسجل عنوان البيت؟! لماذا سهيت عن أن أطلب رقم تليفونه؟! اسمه لن أنساه طبعًا حتى هذه اللحظة، ما هذا الزهايمر الذي راح يضرب رأسي. كلاّ إنني أعرف من قبل أنني لا أستطيع حفظ العناوين الجديدة، ما العمل؟

شعرت بأن شيئًا حقيقيًا ضاع مني، شيء ربما ظللت لسنوات أبحث عنه.

إنه جنون المؤلف بالتأكيد، رجل وامرأة عبرا حياتك فجأة وغداء وحديث بينكم، ما الذي سيحطم حياتك لو لم ترهما مرة أخرى؟!

اهدأ وركز في الرواية ومنال وباقي المبلغ المتبقي لك، منال ألم تقل إن فتحي سيعطيني فلوس التليفون؟ هل أطلب فتحي الآن ليجلبها لي أم أنتظر للصباح؟ كلاّ إني أحاول الهروب من خطئي القاتل، كان عليَّ الانتباه هذه المرة.

الشناوي أوصلني للبيت ولم يصعد معي لأن كرستينا بانتظاره، مؤكد أنه حفظ العنوان وسيزورني، مؤكد، هناك بصيص من الأمل عليَّ انتظاره.. صورة نجوان لا تفارق مخيلتي منذ رأيتها.. الشناوي أيضًا أشعر بحاجة ماسة إليه، شيء مجنون بداخلي يتصاعد وينمو.

حاولت أن أتذكر أصدقاء من الإسكندرية يساعدوني في معرفة مكان الشناوي، هل أكتب بوست على الفيس أنني أريد عنوان هذا الرجل؟! سأبدو مجنونًا وقد تتصل منال لتعرف القصة، كلاّ، الأفكار تلعب بعقلي كل ثانية في تغير فريد لا أستقر على فكرة حتى أرفضها، في النهاية وجدته في عقلي، وكأنه يحثني على الاتصال به، قلبت في نمر التليفون وجدت الرقم ضغطت زر الاتصال، جاءني صوته بعد أول رنة وكأنه كان ينتظر اتصالي، قال إنه كان متأكدًا أنني سوف أتصل به، سأل أين أنا وكيف حالي؟ وهل أستمتع بإقامتي في الإسكندرية وهل أحتاج شيئًا؟

جئنا لمربط الفرس، قلت له أنني أبحث عن صديق قديم لوالدي في الإسكندرية لا أعرف عنوانه، لكني أعرف اسمه كاملاً وأعرف بعض الأشياء عنه، وأن أبي أوصاني كثيرًا بزيارته ومعرفة أخباره...

كان عليَّ أن أخترع قصة.

صمت لثوان قبل أن يأتيني صوته: عذرًا كنت أجيء بورقة وقلم، أعطني اسمه كاملاً وما تعرفه عنه وبإذن الله سأجلب لك عنوانه قريبًا.

أمليته كل شيء، فقال بعدها عليَّ أن أنتظر مكالمته، وضحك وهو ينهي المكالمة قائلاً: ألم يحن الوقت بعد لتسمع القصة التي أرغب بحكيها لك.

أنهيت الاتصال أننا بالتأكيد سنلتقي قريبًا وسأسمع كل ما عنده.

في أثناء المكالمة كنت أسمع صوت دوشة حوله وصوت قواشيط طاولة مؤكد هو يجلس في مقهى.

بعد انتهاء المكالمة سألت عن جدوى ما فعلت، لماذا اتصلت بزميل القطار؟ هل فعلاً يستطيع فريد العطار أن يأتي لي بعنوان الشناوي؟ كل شيء ممكن، هذا ما قلته لنفسي وحتى لو لم يفلح فإنني لم أخسر أي شيء بمحادثته.

شردت قليلاً أمام شاشة الكمبيوتر وصفحات الفيس مرة أخرى.

لا أعرف فيما أفكر تحديدًا، شتات نفسي لا أدري أين سينتهي بي؟!

دقات رتيبة على باب الشقة، تأملت الساعة، إنها الثانية صباحًا، من يأتي في هذا الوقت؟!

قمت وبخطوات وئيدة اتجهت للباب، فتحت الباب لأجدها في وجهي، ابتسامتها رائقة، تحمل أكياس كالأمس بين يديها، هبة؟ نطقت اسمها باستغراب قوي، لاحظته هي.

نظرتْ لي نظرة متحيرة بعض الشيء وهي تدلف للداخل، تبعتها، وضعتْ ما تحمله على أول كرسي قابلها، وفردتْ جسمها على كنبة الصالة وهي تخلع فردتي حذائها وترميهما بعيدًا في تكاسل واسترخاء.

راحتْ تتطلع للسقف لبرهة، ثم مالتْ بجسدها على الكنبة وهي تنظر لملامحي، ثم قالت:

لماذا تنظر لي هكذا ما الأمر؟ كأنك شاهدت عفريتًا؟

زفرت بعمق وأنا أتأملها وأجلس على الكرسي المقارب للكنبة قائلاً:

- مفاجأة عودتك.

نظرت لي بريبة وهي تتشمم هواء الشقة للتأكد أن ليس هناك رائحة سوى رائحة البرفان الذي تضعه هي، قبل أن تقول:

- هل معك أحد؟ باستطاعتي النزول لو تنتظر أحدًا.

هززت رأسي وأنا أقول:

- لا أحد غيري وغيرك هنا؟ ولا أنتظر أي شخص.
- إذن افرش السفرة، لا تعتد أن أفرشها أنا كل يوم، الأكل عندك في الأكياس. وزجاجات البيرة في الكيس الأسود.
- أعتاد، وكل يوم، هل أعشم نفسي ألاّ تنقطع زيارتك الليلة؟.. سؤال فقط أين هربتِ صباحًا؟
- هو أنا صعلوكة مثلك، لدي عمل أؤديه، وفرقة وعرض مسرحي، هل كنت تظن أنني سوف أظل نائمة بجوارك طوال النهار، اصح يا أستاذ أنا شخصية مهمة الآن.

وأطلقتْ ضحكة عالية رنانة فلم أجد سبيلاً سوى مشاركتها الضحك.

- اتحرك يا أستاذ، جائعة، جوعانة ألاّ تقولوها هكذا باللغة العربية؟

تحركتُ بالفعل وحملت الأكياس ودخلت إلى المطبخ، شيء يدفعني للسكوت عنها حتى هذه اللحظة.

لن أعنفها لأنها تركتني وذهبت أمس صباحًا، وأغلقتْ هاتفها أمام اتصالاتي. الأهم الآن، كيف هي على قيد الحياة بينما محمود أقسم لي أنها ماتت منذ أربع سنوات؟

بالتأكيد أنا لم أفقد عقلي فهي في الصالة الآن، وها هي زجاجات البيرة والعشاء الذي جلبته، وإلاّ صار الأمر مضحكًا لي أن تعزمني متوفاة على العشاء.

أطلقتُ ضحكة عالية وأنا أتصور عنوان روايتي القادمة «ميتة على العشاء»

رصصتُ الأطباق بينما هي في مكانها على الكنبة تهز قدميها وتنظر لي وعيناها تبتسمان في ألق وضاء، بعد دقائق كنت انتهيت من إعداد المائدة، فأشرت إليها أن تأتي وأنا أقول:

- عزيزتي سندريلا، العشاء جاهز.

تمتطتْ وفردت ذراعيها وهي تطلق تنهيدة قوية وتقف، وتحرك جسدها يمينًا ويسارًا وكأنها تطرد الكسل الذي يلازمها، ثم جلست أمامي على المائدة وتطلعت لما فعلته وهي تبتسم قائلة:

- معقول لحد كبير.

هان عليَّ أن أصرخ بها كلي وأنت ساكتة، ولكني صمت وأنا أغمس لقمة عيش في الطحينة وأتطلع لشفتيها والطعام يذوب بينهما في رقة ونعومة.

إلى أين تأخذيني يا هبة؟ أي سر ورائك؟ وكيف أنت حية وميتة في نفس الوقت؟

أسئلة كثيرة كانت تحتاج لإجابات، فآثرت الصمت إلى حين.

صببت لنفسي البيرة، وأخذت أحتسيها في بطء، هناك شيء غريب في عيني هبة، جعلني أظل محدقًا في وجهها طوال العشاء.

قامت هبة بعد العشاء وقالت إنها ستستحم، نقلت الأطباق للمطبخ، سمعت صوت المياه المنسال على جسدها وأرضية الحمام، هذه المرة أغلقت عليها الحمام من الداخل، ربما لا تريد تعكير صفو استحمامها كما حدث أمس.

عدت للصالة، أغلقت «اللاب توب»، ولملمت الأوراق البسيطة التي كنت أكتب فيها ملاحظات خارجية.

انتهتْ من الحمام، وخرجتْ وهي تلف جسدها بالبشكير، أشارتْ لي أن الحمام خال، وربما قالت بهمس: الحمام لك.

ذهبتْ إلى غرفة النوم مباشرة، اتجهتُ للحمام لآخذ دشًا، المياه تنهمر فوقي، رحت أقلل من درجة حرارة المياه، حتى أحسست أن جسدي يرتجف من البرودة، كنت كمن يقوم بـ «بسترت» جسده، أغلق المياه الباردة وأترك المياه التي تغلي تنساب على جسدي مدة، ثم أفعل العكس، استمر الأمر لدقائق، شككت أنني سأخرج مجففًا من الحمام، في النهاية لففت وسطي بفوطة صغيرة وخرجت عاري الجذع والصدر، دخلت غرفة النوم، كانت هبة مغطاة بالبطانية ولا يظهر سوى رأسها، سحبتُ البطانية وتسللت بجوارها، أدارتْ رأسها تجاهي.

ولأ أعرف متى بالضبط وجدتْ شفتاي طريقها إلى شفتيها، ذبنا في قبلة طويلة، تحسستُ رقبتها بيدي، غصنا في الحب لنهايته، شعرت وكأنها تضيء وكأنني نجم أهوى من أعلى عليها، شعرت بطاقة تتخلل جسدي وتذيبني، أذوب في خلاياها، وتذوب فيّ، ترتفع تأوهاتها وتشبثها بي، لا أعرف متى انتهينا؟ وكم وقت مضى! إنها لحظات يتوقف فيها الزمن بي، تطلعتُ لعينيها بعد العلاقة وهي تهمس لي بصوت شديد الرقة:

- يخرب عقلك، أكنت جائعًا هكذا؟

- كنت أريد التأكد.

هكذا أجبتها، وأنا أتطلع لعينيها الزرقاوين شديدتي البريق، قالت وهي تدير وجهها تجاهي وتقرب شفتيها من أذني:

– التأكد من ماذا؟ اطمئن أنت تمارس الجنس وكأنك لم تر امرأة من قبل، أنت غير معقول.

قلت في بساطة وعيناها في عيني:

– كلاّ، كنت أريد التأكد أنك حية ولستِ ميتة؟

اعتدلت على الفراش فجأة وأسندتْ ظهرها للسرير وهي تقول:

– معك سجائر؟

فتحت درج الكومودينو بجوار السرير وأخرجتُ لها سيجارة ومدتُ يدي لها، وضعتْ السيجارة بين شفتيها، فمددتُ يدي بالقداحة وأشعلتُ لها السيجارة، ثم أشعلت لنفسي سيجارة أخرى، نفثتْ دخان السجائر وراحتْ تتطلع له وهو يخرج من بين شفتيها حذرًا وكأنه يخاف الهروب من بين تلك الشفتين الرائعتين. قالت بعد لحظات:

– ما الأمر؟ أخبرني بالحقيقة.

ابتسمت في وجهها ومددت يدي أتلمس رقبتها، لم أكن أريد أن أخفي عنها شيئًا في تلك اللحظة، فقلت بتؤدة:

– أمس عندما غبتِ جننتُ، تليفونك مغلق بعدها طوال الوقت،

وأنتِ لم تخبريني بشيء عنك يحدد لي مكانك، الأمر كله كان عبثيًا فوق الوصف، تغيبين خمس سنوات وتعاودين لتمنحيني ليلة من ألف ليلة وليلة ثم تختفين، كان لابدّ أن أجن، حاولت الوصول لمكانك، وانبرى الخوف بداخلي أنني ربما لا أراكِ مرة أخرى، كم كان هذا مؤلمًا آنذاك!! فحاولت حتى توصلت لتليفون محمود خطاب تتذكرينه بالتأكيد، وكلمته وقال لي أنك متِ، متِ منذ أربع سنوات. لك أن تتخيلي ما مررت به من حينها، ظننتُ أنني مجنون ويهذي أمام تأكيدات محمود أنك متوفاة، شككت في عقلي، وأن كل ما حدث بيننا أمس أضغاث أحلام.

تنمرتْ عيناها فجأة مع كلامي، وأطلقت شررًا في اتجاهي وهي تعتدل على الفراش قائلة:

- أنت السبب في كل ما حدث، لا أظن أنك ستسحب يدك من الموضوع ألم يخبرك محمود بما فعله بي، ألم يقل لك ابن أمه هذا كيف حطمني؟! لا تتهمني بالغباء، مؤكد قد حكى لك كل شيء، مؤكد أنك أيضًا كنت شريكه في الفخ، بقصد أو دون قصد.

قلت وأنا أحاول الفهم لاستيعاب تلك العصبية في صوتها:

- كل ما أعرفه أن محمود قد استلف منك مبلغًا من المال ولم يرده، ما دخل هذا بأن يقول لي أنك ميتة.

أطلقت ضحكة مجنونة وهي تهزّ رأسها، ثم راحت تتحسس رأسها وشعرها المفرود تشده برفق:

- استلف مبلغًا، كم أنت أحمق!! ألم تلح عليّ أن أتزوج محمود، وأنه يحبني إلى درجة الجنون، ألم تنقل لي عباراته وكلماته لك عني، ألم تقل أنه مريض بحبي. أليس هذا كلامك حينها، كل ما قلته آنذاك جعل قلبي يلين اتجاهه، حاولت أن أحبه، بل قل أنني أحببته بصدق لحد كبير، عندما عرفني على أمه لم تهضمني لسبب لا أعرفه، حاولتْ إبعاده عني، وقتذاك قررت أنا أن أفوز بمحمود، ووافقتْ على عقد الزواج العرفي بعد أن سألتك قبلها بأيام هل تتأكد من حب محمود لي حقًا وأنه لن يفرط فيّ، أتذكر ردك وقتها، بل أحفظه، قلت إن محمود وصل بعشقه لي إلى درجة الوله، أنه يذوب عشقًا فيَّ، ألم تقل ذلك؟

لا تنظر لي هكذا أنك لا تستطيع الإنكار، الرسالة ما زلت محتفظة بها في صندوق رسائل تليفوني القديم، لم أمسحها كدليل عليك واشتراكك في الجريمة. حتى المبلغ الذي أخذه محمود مني واتصلت بك ليعيده كان إيجار الشقة المفروشة التي أخذناها أنا وهو لشهور، ولكنه هرب وراء أمه بعد أن أخبرها بالأمر. هرب وهو يحمل عقد زواجنا العرفي في جيبه، ليتزوج بعدها، ابن أمه، لا تنظر لي بهذين العينين المندهشتين، قلت لك أنت تعلم مؤكد.

كنت في تلك اللحظة أربت على ظهرها وأنظر لعينيها المغرورقتين بالدموع، قلتُ في وجل:

- صدقيني إنني لم أكن أعلم عن الأمر شيئًا.

من وسط سحابة الدموع التي تتراقص في مقلتيها قالت:

- أشك لحد كبير، أنت من عرفني بمحمود، أتتذكر؟؟ لا تحاول ادعاء النسيان. عندما دعيتني إلى تلك الندوة الثقافية وعرفتني على محمود خطاب بأنه أديب له مستقبل وأنه خلال سنوات قليلة سيكون صاحب باع في دنيا الأدب، كنت تسوق لمحمود وكأنك تسوق لنفسك، كنت تقول إنه يكتب أفضل منك وأنت تعلم أنني كنت أذوب عشقًا فيما تكتبه أنت في المنتديات والصفحات الثقافية على الإنترنت، صدقتك وليتني ما فعلت، كان لابدّ أن أنتقم من محمود، فعلت ما فعلته بادعاء موتي وساعدني وقتها أنني لم أكن متواجدة بكثافة وسط مجتمعكم الثقافي الغبي، قلت لريم صديقتي أن تسرب له إشاعة أنني أصبت بالسرطان وأعالج في بلدتي، الغبي كان باستطاعته الفهم لو فكر وبحث قليلاً، فلم تكن هناك مستشفى للأورام في بلدتي، كنت أظن أنه سينهار ويبكي ويصحو ضميره وينتحر، حتى لو كان انتحر وقتها ما كنت ندمت، قفلت حسابي على الفيسبوك وغيرت تليفوناتي وقررت أن يكون موتي حقيقيًا لحد كبير، نقلت له ريم صديقتي خبر موتي،

وكان هو يجهز لزواجه، جبان خاف الانتحار وخاف أمه، وتزوج. تزوج من فتاة لم يبادلها الشعور يومًا، إنه انتحار أيضًا، من فترة عدت لفتح حسابي، وكنت قد عملت حظرًا له ولكل الأصدقاء المشتركين بيني وبينه، حتى لو لم أفعل فإنه نسيني تقريبًا، شخص واحد لم أعمل له حظرًا وقتها وهو أنت. شيء بداخلي كان يقول أنك ستحتاجني يومًا ما.

بدأت خيوط الدموع تنسال على وجنتيها فمسحتها بيدها وهي تدفعني بيدها قائلة:

- اخرج، اخرج هات زجاجتي بيرة من الثلاجة وتعالى نكمل سهرتنا.

وقفت واتجهت إلى باب الغرفة قبل أن أغادر التفت ناحيتها وأنا أكاد أصرخ:

- أنتِ مجنونة!

●●●

كان الليل قد بدأ يفرش عباءته على الحياة بينما الجو يزداد برودة وأنا أحكم ياقة معطفي حول رقبتي وأدخل إلى ذلك المقهى الشعبي.

رائحة الدخان تعبئ المكان، سعلت بمجرد دخولي، وبصقت جانبًا، ومسحت البصقة بحذائي وأنا ألقي عينيّ تبحثان عن وجه مألوف وسط الوجوه الغريبة.

الزبائن منشغلون بالكامل في لعبهم، بينما بعضهم مشغول في كوب ساخن من الشاي يدفئ به يديه وسط ذلك الصقيع.

كان فريد العطار غاطسًا برأسه وسط مجموعة وبدا أن هناك لمّة تتابعه، بينما يلعب الطاولة هو مع أحدهم، صرخ بغتة وهو يرمي النرد وأنا أقترب منه وتلتقي عيناه بعيني: «دش يا برنس، خلصت»، وقام وهو يغلق الطاولة ويمد يده ليسلم عليَّ، ويسحبني إلى منضدة شاغرة.

طلب من النادل كوبين من الشاي وهو يقول لي: الجو شديد البرودة، شاي يضبط الدماغ، كيف حالك اليوم؟

أردت أن أقول له أنه لا دخل له بحالي، عليه فقط أن يقول لي ما المعلومات التي عرفها عن الشناوي، وعن العنوان، كان قد اتصل بي وقال أنه تقريبًا قد وصل للشناوي لكنه يريد رؤيتي ليخبرني بالتفاصيل.

وضع النادل كوبي الشاي فراح العطار يقلب الشاي وهو ينظر لي، ولم ينبس بحرف حتى قلت له:

- هل عرفت العنوان؟

- يومان بالكثير وسنعرفه.

هكذا جاءني رده، لحظتها شعرت بأنني أخدع، أردت الوقوف، لقد نزلت لك في مثل هذا الجو حتى تقول لي: «يومان وسنعرفه»، تبًا!

شيء داخلي جعلني أنتظر قليلاً وهو ينظر لي وعلى شفتيه ابتسامة أكرهها، قال في بساطة:

- لي صديق في إدارة نادي الاتحاد السكندري، لعب في الماضي للنادي والآن يشرف على عمل في النادي، إنه تقريبًا لا يتذكر الشناوي لأنه لعب في جيل مختلف عنه، أنا أيضًا حاولت تذكره وفشلت رغم أنني مدمن قديم للاتحاد، لكن صديقي أكد لي أننا نستطيع الذهاب لإدارة النادي، ومن مديره أو من سجلات اللاعبين قد نعرف مكان الشناوي، هل أنت متأكد أن من تبحث عنه لعب لنادي الاتحاد؟

أجبته بهدوء وثقة:

- نعم، لعب للاتحاد ولمنتخب مصر.

هزّ رأسه وهو يمصمص شفتيه قائلاً:

- عجبًا! كيف إذن لا أتذكره؟

لا تهمني ذاكرته الآن في شيء، ولكن لو صدق فيما قال فقد

قطعنا شوطًا لا بأس به، وربما يهون عليَّ الكثير ويقلل مدة بحثي عن الشناوي.

أسبوع تقريبًا منذ وصلت الإسكندرية وأنا تائه، لا أعرف مستقرًا لي، لم أتقدم خطوة واحدة ذات أهمية في الرواية، منال تلح طوال الوقت، وأنا طوال الوقت أقول لها أنني أعمل فلا تقلق، ظهور هبة أيضًا لخبط لي الموازين والأحداث، هبة التي تحمل بداخلها ألغازًا كثيرة لا أعرف كيف لم أعرفها في الماضي!! هبة أمس، غير هبة اليوم، غير هبة الغد.

هناك أشياء كثيرة عليَّ أن أتوقف أمامها بالفحص والتأمل، لقد زارتني ثلاث مرات للآن، وكل مرة تزيدني حيرة، لماذا أنساق وراءها بهذه البساطة؟! حتى اللحظة لم تخبرني أين تقضي نهارها وأين تسكن هي الأخرى؟ وما هي الفرقة التي تقوم بإخراج مسرحية لها؟ قالت فقط، دع الأيام تمضي ولا تحرق المفاجآت سأجعلك سعيدًا، لكن منذ ظهورها وأنا في قلق وتوتر، أحيانًا أتصورها وهمًا ليليًا، أو حالة من الفصام جاءتني.

الآثار التي تتركها لي ليلتنا معًا تقول لي أنها الحقيقة حتى الآن الواضحة بين يدي. ولكنها حقيقة السراب الذي تدنو منه فيبتعد أكثر وأكثر.

جاءني صوته من وسط ضجيج المقهى عاليًا:

- إلى أين ذهبت يا حضرة المؤلف؟؟

انتبهت له فنظرت له وأنا أهرش حاجبي بظفري:

- متى سنقابل مدير النادي؟

انطلقت ضحكته عاليًا بلا سبب وهو يقول:

- وما الحاجة لنا لزيارة مدير النادي؟؟

حملقت فيه دون فهم فابتسم ابتسامته المريبة وهو يكمل:

- مدير النادي يعني أسئلة وإجابات، وس وج، وربما لن نتوصل معه لشيء.

رفعت كوب ماء أمامي ورشفت منه لأبتلع غيظي، لماذا أتى بي هذا الرجل لهنا الآن؟!

وضعت الكوب جانبًا وأنا أجز على أسناني قائلاً:

- والحل؟

- مائتي جنيه للأسيوطي في النادي سيجلب لنا ما نريد، لن تدفعهم أنت اعتبرهم هدية مني لك، الأسيوطي دقائق وسيكون هنا سيأخذ منك التفاصيل كاملة وبعد يومين

سيأتيني بالعنوان ولا داعي للذهاب للنادي والأسئلة والصداع، أليس هذا أفضل؟ هل المبلغ كبير؟

- مائتي جنيه ليس بمبلغ كبير، أستطيع أنا دفعه، لا عليك.
- كلاّ أقصد المبلغ المدين به الشناوي لك.
- الشناوي ليس مدينًا لي بشيء بالعكس أنا المدين له.
- الدنيا ما زالت بخير والله، أتبحث عنه كل هذا البحث لأجل أن ترد دينًا له لديك، صحيح مؤلف.

اعتبرت كلمة مؤلف في تلك اللحظة سبة في وجهي فقد أطلقها بالفعل وكأنه يسبني.

لم تمر عشر دقائق حتى كان الأسيوطي يجلس إلى مائدتنا، رجل ربعة في الخمسينات تقريبًا، عيناه بارزتان وأذناه طويلتان لدرجة مثيرة للسخرية والابتسام، أخرج ورقة وقلمًا من جيبه وسجل كل شيء، وقال لو أن الاسم والعنوان موجودان في الملفات سيجدهما فلا نقلق.

ودعت العطار والأسيوطي بعد نصف ساعة تقريبًا من اجتماعنا نحن الثلاثة. ودعني العطار بجملته المعتادة أنه يحمل قصة لي وسيأتي الوقت الذي أطلب منه أن يحكيها.

الشوارع مبتلة بماء المطر، كنت قد عودت نفسي على محاولة حفظ العناوين.

رحت أعيد ترديد عنوان الشقة التي أسكنها في فمي عدة مرات، وأخرجت الورقة التي كتبت فيها العنوان من جيبي بعد ركوبي التاكسي لأتأكد فقط أنني في الطريق الصحيح.

يومي كان شاقًا بالفعل، وأحتاج لبعض الراحة، لقد ظهرت داليا لتثير الكثير من حيرتي، كان لابدّ أن أقابلها بعد كم الرسائل المتواصلة على حسابي في الفيسبوك، قالت أنها ورباب أخذتا شقة مفروشة في محطة الرمل، وأنها قررت أن تقضي شهرين في الإسكندرية استجمامًا وهربًا، طليقها عاد إلى مصر وهي لا تريد مقابلته، أمها تلح عليها أن تفكر في العودة إليه، وأبوها يقول ضل رجل ولا ضل حائط وهو ليس بقادر على مصاريفها هي وأختها، أختها نوفا كما تناديها تضرب الدنيا صرمة، تعيش اليوم بيومه لا يهمها كلام أبيها في شيء، فهو لن يقدم أو يؤخر وأنها لن تفعل مثل داليا وترمي نفسها لأول رجل يرمي شباكه عليها، بالتأكيد رباب تُحمس نوفا في كلامها، وربما هي الأصل الذي ترضع نوفا من منهله، رباب عشرينية، عينان واسعتان عسليتان، جبهة عريضة، وشعر مفرود شديد السواد من الملاحظ أنها تعتني به جيدًا، قوامها رشيق ومتناسق، وساقاها محشورتان في بنطلون جينز ضيق بينما ردفاها يحتلان مساحة تريدان الهروب منه، بينما هناك

بلوزة يختفي أسفلها نهدان متماسكان، جسدها رجراج في تحركها، وانسيابيتها عالية.

لفتت نظري منذ الوهلة الأولى، ولكني لم أعط لها أهمية كبرى.

لاحظت داليا نظراتي لرباب وتفحصي لها، فبدا أن هناك غيظًا مكتومًا يتراكب فوق بعضه بداخلها، وفي أية لحظة قد ينفجر في وجهي.

دعوتهما على أكلة سمك في مطعم على البحر، سألت فتحي فدلني عليه وأعطاني عنوانه، السمك كان بالطبع لذيذ ويذوب في الفم، ولكني في تلك اللحظة كنت أفتقد طعم السمك من يد الشناوي، تذكرت صورة نجوان ورحت أقارنها بالفتاتين الجالستين أمامي، ففازت نجوان بالصدارة في مخيلتي.

شرحت لداليا أنني مشغول هذه الأيام في كتابة رواية، وهي تأخذ كل وقتي، لم أكن أتهرب منها، بل أهرب بنفسي حتى لا أنشغل عن الرواية.

راحت رباب تجاذبني الحديث وتحاول أن تفهم كيف أخلق شخصياتي، وكيف أطاوع تصرفاتهم، وإذا اختلفت شخصية في الحكايا عما رسمت لها ماذا أفعل هل أستسلم لها أم أفرض شخصية المؤلف على الشخصية وأرجعها للطريق الذي رسمته لها من البداية؟ وصلتْ بخيالها إلى درجة أن سألتني أبطال روايتي مسيرون أم مخيرون؟!

كانت داليا كلما ازداد حديث رباب معي يرتعش جسدها رعشة بسيطة، بينما جحظت عيناها السوداوين وانكشف قاع عينيها يحمل شرًا مستطيرًا، كنت أرجع لبر الأمان قبل الوصول لقاع جهنم، فعدت لأهتم بداليا أكثر، فهي مجنونة بالفعل!

وظننت أنها عندما تعود للشقة التي أجراها قد تطرد رباب منها، فكما علمت أنها من دفعت إيجار الشهرين من مبلغ كانت تدبره في أثناء زواجها.

تمشينا على البحر، أهلكتني داليا بأسئلتها غير المنطقية، واستشارتي في أمور أجهل عنها الكثير، وكأنما فجأة أصبح عليَّ أن أقرر لها حياتها، وغضبتْ عندما قلت عن أشياء لا أعلم، فارتفع صوتها وهي تخبرني أن أعتبرها كشخصية في رواية لي، وعليَّ أن أحل مشاكل البطلة لتستمر الرواية.

حقيقة لم أكن أريد أن تستمر روايتي مع داليا، فما الشيء الذي يدفعني لكي أجاريها فيما ترجوه أو تأمله؟!

إني شخص لا أرض له، لا مكان ثابت تحت قدميه لأية علاقة، حتى علاقتي بهبة هذه الأيام، فهي مجرد نزوة لا أمل في استمرارها، كنت أعرف هذا وأنكره على نفسي، الكورنيش والهواء البارد وداليا وقد تعلقت بذراعي، بينما رباب تمشي بحذائي وهي تلقي نظرها على البحر الصاخب، والضجيج الذي يمور حولنا.

لمحته يقترب مني، في عينيه نظرة غريبة، كنت قد نسيته أو تناسيته منذ لقيته أول مرة، تطلع لداليا ولرباب وأعاد نظره ناحيتي وهو يمر من جواري قائلاً: «لعبت يا أستاذ».

ثم ضحك ضحكة مجنونة وانطلق ليصعد على إفريز الكورنيش ويجري، يضرب رذاذ الموج ظهره وقامته القصيرة، وشخص يزعق عليه مناديًا: «أنص كوب من الشاي».

بينما هو لا يلتوي على شيء ويواصل جريه على إفريز الكورنيش المرتفع وكأنه يطير للسماء، اللعنة! ها هو «أنص» الذي كان يريد أن يبيعني أخته لليلة أول مرة أتيت إلى هنا، ينظر لي بفضول وهو يكاد يطير بفعل الهواء بجسده الضئيل. وكأنه يقول لي إن البنتين اللتين معك أحلى وأجمل.

عكر ظهور «أنص» مزاجي كثيرًا، حاولت أن أبتسم ولكن الابتسامة هربت. قالت لي داليا وهي ترى عينيّ تتابعان أنص وقد تعكر صفاء وجهي: هل تعرفه؟ هل ضايقك في شيء؟

لم يكن لدي قدرة على الحكي الآن، فتحججت بأن أطفال الشوارع يسببون ألمًا بداخلي، ابتسمت رباب وقتها وقالت أنني رومانسي حالم، الحياة أشد ضراوة في أن نضيعها في التألم على رؤية طفل شارع.

وقتها أنقذني من كل هذا تليفون العطار، أنقذني من داليا

ورباب ومقابلة أجبرت عليها وكأنني طفل يأخذه أبوه للحلاق غصبًا، كان العطار يحدد لي مكان القهوة وميعادي معه، استأذنت الفتاتين، فقالتا أنهما سيذهبان لشارع خالد بن الوليد.

أظن أنني ألقيت مزحة سمجة وأنا أودعهما عن علاقة خالد بن الوليد بعمر بن الخطاب.

كان التاكسي في تلك اللحظة قد وصل إلى العمارة، فعدت لنفسي والسائق يقول لي العنوان يا أستاذ.

نزلت من السيارة وعقلي وأفكاري مشتتة في أماكن لم أطرقها بعد.

انتبهت أمام باب الشقة أن هناك موسيقى تنبعث من الداخل، فتحت الباب فوجدت الموسيقى تضرب أذني بشدة، كانت آتية من غرفة النوم.

فوجئت بأن نور الصالة مضاء، كنت متأكدًا أنني أطفأت النور قبل نزولي.

من بالداخل؟

اتسعت عيناي عندما دخلت لغرفة النوم، ورأيتها تجلس على السرير وقد مدت أمامها منضدة صغيرة عليها وجبتين عشاء.

ارتفعتْ ضحكتها عالية وأنا أسالها: كيف دخلتِ؟

وراحتْ تنظر لي وهي تهزّ قدميها في تلذذ غريب ولم تجبني.

●●●

obeikandl.com

(٦)

شعور بالسخافة أصبح يطاردني طوال الوقت، ما أسرع مرور الأيام! عشرة أيام تقريبًا منذ وطأت قدمي أرض الإسكندرية والحيرة لا تنفض من حولي، بل تزداد بصورة مؤلمة وغبية.

اتصلت منال اليوم وعنفتني بشدة، وهددتني أيضًا، فهي لا تسمح لي بالتلاعب في شيء قررته، قالت إن فتحي مر على في الشقة ثلاث مرات في مواعيد مختلفة، ولم يجدني، إنها لا تدفع لي كي أتفسح في الإسكندرية، هناك صفقة وأنا وافقت عليها ويجب أن يكون الأمر كما كان، يسير على وتيرته وليس بمزاجي الشخصي.

انتظرت فتحي كما قالت لي ليمر عليّ، لم أحاول أن أخفي عنه شيئًا ذا أهمية. قلت له أنني أحاول أن أخرج من حالة عجيبة انتابتني بالخروج والمشي في الشوارع؛ لأعود لأكتب، قال إن منال كلفته بأن أمضي على إيصالات استلامي لمبالغ مالية منها، أعطاني دفعة جديدة ومضيت له على إيصال أمانة. قال عندما أنتهي من الكتابة وأسلمه الرواية سآخذ باقي المبلغ والإيصالات، لم أعترض، فعقلي كان في منطقة أخرى وقتها، كانت صورة نجوان ما زالت تحتل كياني منذ رأيتها، ولم يكن الأسيوطي قد توصل لشيء حتى الآن؛ لدرجة أنني بدأت أشك أنه والعطار يلعبان بي، ولكني كنت أنفي هذا

وأنا أتساءل لماذا؟ ماذا سيستفيدان؟! للحظة لم يأخذ مني العطار قرشًا واحدًا، حتى عندما أجتمع معه في المقهى بانتظار أي جديد من الأسيوطي يقوم هو بدفع حساب الطلبات ويرفض أن أدفع أنا قائلاً دومًا أنني ضيفه.

داليا هي الأخرى تضغط بشدة، ورباب تدفعها لتستمر في علاقتها بي، نظرات رباب أيضًا صارت محيرة لي أكثر، قابلتهما منذ يومين، دعتنا رباب هذه المرة لمطعم فاخر، ودفعت بسخاء وهي تراقب عينيّ المتطلعتين إليها.

كنت أريد أن أفعل مثل الرجال في العادي وأقوم بالدفع، لكن رباب قالت إن اليوم عيد ميلادها فلتحتفل به ومعها حسب مزاجها، أظن أنها تكذب وليس في الأمر أية عيد ميلاد، ولكني طاوعتها، كما طاوعت داليا في مجيئي إليهما، كما أصبحت أطاوع جنون هبة.

ما كل هذا العبث الذي صار حولي؟

كلما حاولت أن أفصل شيئًا عن شيء اختلطت الأمور أكثر وأكثر.

كل شيء بدا غامضًا ويدعو للتساؤل.

الغموض أصبح هو الحقيقة الآن في كل ما يحيط بي وفي تصرفاتي شخصيًا.

هل أكتفي بهذا العبث وأمضي فيما أتيت من أجله؟! كل شيء كان يقول لي أن عليَّ أن أفعل هذا وإلاّ انسقت وراء منال في مشاكل لن تنتهي بسهولة.

منال ليست غر ساذج تسامح ببساطة، لا أعرف لماذا تذكرت شخصية عاطف الأشموني وقتها تلك الشخصية المسرحية لمحمد عوض، ولكن من البداية أنا أدرك أنني لست عاطف الأشموني مؤلف الجنة البائسة، وأدرك أن منال قادرة على إنجاح الرواية لأقصى درجات النجاح، ابتسمتُ وأنا أتأمل المارة متخيلاً نفسي هاتفًا فيهم أنا عاطف الأشموني مؤلف الجنة البائسة.

كنت أمر على الكورنيش في تلك اللحظة أتأمل الشباب الجالس وبيدهم الصنارة والبحر أمامهم مفتوح بلا مدى واضح للأعين، ومياه البحر تداعب الشاطئ في عنف بسيط.

صار عليَّ يوميًا أن أقطع هذا الطريق غدوة ورواح عدة مرات متمنيًا بداخلي أن ألمح الشناوي جالسًا وبيده صنارته فيراني فيبتسم في وجهي ويدعوني للغداء. ولكن للآن لم يحدث هذا.

رحت أتأمل كل ما حولي منتظرًا حدثًا لم يأت بعد وعيناي لا تفارقان الشاطئ في لهفة وكأن من وسط البحر سيخرج الشناوي لي وبيده نجوان ويقدمها لي قائلاً: اذهبا.

خيالات كثيرة تمر بعقلي وبلا هوادة، أتابع المارة والشاطئ والحركة حولي تزجية للوقت.

أصبحت أرى الطفل أنص في كل مكان وكأنه يطاردني، كل الكورنيش فجأة صار ذاك الطفل وأخته، صار عقلي أحيانًا لا يميز بين أنص وطفل آخر يشبه يعبر أمامي، ولكن أنص كان يمر أحيانًا وهو ينظر لي من فوق لتحت وكأنما صار بيننا شيء مشترك قبل أن يقول جملته التي صارت مكررة: «لعبت يا أستاذ». وسرعان ما يختفي وسط المارة بسرعة عجيبة.

هذا الطفل محير هو الآخر، لكن ما الطبيعي الذي يحدث لي منذ أتيت لهنا؟ وجوده لن يضيف الكثير لما يجري.

أرسلت لي داليا رسالة على الواتس آب تقول أن زوجها عرف أنها في الإسكندرية، وأنه قد يأتي إليها.

ما الذي تنتظره مني داليا؟! أن أمسك سيفًا في محطة مصر أنتظر زوجها السابق وأول نزوله من القطار أضرب السيف في قلبه، بينما الناس حولي يصفقون ويهتفون: اسم الله عليه، اسم الله عليه، ضحكت وأنا أتخيل الموقف، العبث وقتها أن يأتي زوجها بسيارته الخاصة فيفشل الخيال بالنسبة لي.

من الطريف أن أفكاري لم تتوغل أكثر من هذا في خيالاتها المجنونة وإلاّ كان عليَّ أن أسلم نفسي للعباسية، نظرت للبحر نظرة أخيرة قبل أن أشير لتاكسي وألقي بنفسي داخله.

رسالة أخرى من داليا تسألني لماذا لا أرد وكيف تتصرف؟

وجدت نفسي أكتب لها سائلاً: هل يعرف زوجها السابق عنوانها في الإسكندرية؟ فقالت سريعًا: كلاّ. فأخبرتها ألا تقلق لأنني لمدة أسبوع تقريبًا أبحث عن عنوان صديق لي هنا ولا أستطيع الوصول إليه، ترسل كلامًا كثيرًا بمعنى أنها لا تريد أن تقابله، وأنها تكرهه بشدة وتريد في النهاية أن تراني لأتكلم معها ونبحث عن حل للموضوع، أرسلت لها أن أمامي أمورًا متأخرة كثيرة ويجب عليَّ أن أنتهي منها وإذا حدث وانتهيت، فسأتصل بها، أخبرتها أن الهاتف في طريقه ليفصل شحنًا، قبل أن أغلقه تهربًا منها ضاربًا نفسي بالحذاء لأني أعطيتها رقمي الجديد.

أخرجت النوتة من جيبي الذي بدأت في تدوين العناوين فيها، لا أريد أن أخطئ مرة أخرى ذاك الخطأ القاتل، سأحاول أن أجعل لي ذكريات في كل مكان أدخله حتى لا أنساه، ما قالته صديقتي يومًا أنني لا أحفل بعناوين الشوارع والأماكن لأنني لا أريد ذكريات تربطني بالمكان ربما كان صحيحًا لحد كبير، وقالها العطار أيضًا على ما

أتذكر.. للآن تقريبًا لا أستطيع أن أفهم نفسي. النوتة في البداية ستصير ضرورية مع الوقت سأعود عقلي على حفظ الأماكن. أمليت للسائق العنوان فقال أنه يعرفه، ويعرف الشباب هناك فقد أوصلهم أكثر من مرة لأماكن مختلفة، أومأت برأسي وأظن أنني تمتمت بغمغمة غير مفهومة.

وقفت أمام باب المسرح مترددًا في الدخول، كان المسرح يقبع خلف نادي الاتحاد السكندري، فغصب عني تذكرت الشناوي ونجوان وأنا أمر من جوار النادي.

دخلت للقاعة التي أخبرتني هبة عنها، كانت هبة تقود بروفة، تأملتها لثوان قبل أن أتجه ناحيتها، هبة بجنونها كما هي أمامي الآن، كان يعتلي خشبة المسرح في تلك اللحظة خمس شباب وفتاة واحدة، لم أرد أن أقطع جو البروفة، فأشرت لهبة أنني سأجلس مشاهدًا بعيدًا عنها، كانوا يقدمون مسرحية لنجيب سرور الحكم قبل المداولة، نجيب سرور بالنسبة لي شخصية ثرية تحتاج إلى عدة كتب لفهمها. بداياته ونهايته، نجيب اللغز والحل، أفكار كثيرة راودتني عنه حينها وتذكرت أني قرأت رواية قريبة عنه جيدة اسمها سرور لطلال فيصل وأعجبتني حقًا، كان أداء الفرقة لحد ما منتظم، وكانت هبة تدير البروفة باحترافية غريبة لدرجة شككت عندها أني أعرفها، بدأت عدة تشكيلات تكون على المسرح للكورس وهم يلقون منولوجاتهم

الفرعونية، كنت قد قرأت المسرحية من قبل منذ فترة طويلة. أظن أنني لم أترك شيئًا كتبه نجيب سرور لم أقرأه، ربما حلمي أن أنتهي في مستشفى المجاذيب أو أمسك مقشة لأكنس ميدان التحرير مرتديًا بيجامة وأحمل كيسًا به قمامة.

انتهت البروفة بعد ساعة تقريبًا من دخولي، بدأت هبة تعريفي على الفرقة، كل شخص باسمه الثنائي، وقالت لهم أنني كاتب مسرحي كاره للمسرح لي عدة مسرحيات مثلت ولكني كالعادة أهرب من المسرح المصري ومشاكله، بعض الرءوس انحازت لوجهة نظري وهروبي عن كتابة المسرح والمعوقات التي قد تقتلني قبل أن أقتلها، تنتهى التعارف سريعًا فقد كانت هبة في عجلة من أمرها لسبب لا أعرفه، لم يلفت نظري سوى محمد وجيه ليس لقدراته التمثيلية، لاحظت أن ثمة خط ما موصولاً بينه وبين هبة، كان ثلاثيني تقريبًا، معتدل القامة، عينيه سوداوين وعميقتين، هدوء عارم تحسه عاصفًا حولك رغم السكون، هل شعرت بالغيرة؟

عندما حدثت هبة عنه في أثناء خروجنا من المسرح ضحكت وقالت إن وجيه قصة لوحده، سألتها عن علاقتها به فاتسعت ابتسامتها وارتفعت ضحكتها قبل أن تتحول لقهقهة وهي تقول لي: «بتغير يا بيضة». حقيقة لم أعرف بما أجيبها، ولكنها استطردتْ أن وجيه صديق حميم لها منذ زمن، يمر بأزمة نفسية رهيبة فقد ترك

عمله وطلق زوجته بسبب المسرح، الجوائز التي أخذها والوعود التي انصبت على أذنه ليحترف وأنه سيكون نجم مصر القادم أصابته بحالة من الجنون المؤقت عندما اصطدم بالحقيقة، هي وزملاؤه الآن يحاولون إعادته مرة أخرى للمسرح والحياة، فقد كان يفصله عن الجنون شعرة؛ لدرجة أنه تأتأ لفترة وكان الكلام يخرج من بين شفتيه غير مفهوم لشهور، ربما ما يشجعها على إكمال هذه المسرحية هي إعادة وجيه للخشبة مرة أخرى مع حلم بسيط أن يصل العرض إلى مهرجان المسرح القومي، سألتني لماذا توقفت عن كتابة المسرح؟ فابتسمتُ وأنا أقول أنني قريبًا سأتوقف عن الكتابة كلها، فهي تستهلكني جسديًا ونفسيًا وماليًا، لم أعد أستطيع المقاومة، الزمن يمرّ وأنا أحارب الوهم، ضحكتْ وقالتْ كلام.. كل ما أقوله كلامًا ولن يحدث.

لم أرد أن أدخل معها في مناقشة نخرج منها نحن الطرفين خاسرين، فآثرت الصمت لفترة وهي تسير بحذائي صامتة بالمثل، شعرت أنها تحتاج للهدوء بعض الشيء بعد تلك البروفة.

بعد دقائق وجدنا أنفسنا أمام سينما، لم أعرف أننا في طريقنا لمشاهدة فيلم إلاّ عندما أخرجت هبة التذكرتين من حقيبتها وهي تقول حجزت لنا، فهمت وقتها لماذا كانت العجلة منها؟ لم أسالها أي فيلم سندخله في تلك اللحظة، ليكن الأمر مفاجأة للنهاية.

لم يكن لدي الرغبة في مشاهدة أية أفلام حقيقة، استسلمت للأمر ولا أدرك لماذا لتلك اللحظة منذ ظهرت هبة لي في الإسكندرية وأنا منساق خلفها دون تردد؟! قالت لي أنها اختارت فيلمًا أجنبيًا جديدًا الكل يتحدث عنه.

هززت رأسي في استسلام، ودخلنا، جلست بجوارها، شبكتْ أصابع يدها في أصابعي وكأنها تبحث عن الراحة بين يدي وأراحت رأسها إلى الوراء مغمضة العينين لثوان.

لم تمر هنيهة منذ دخولنا حتى دار الفيلم، ففتحتْ عينيها لتتابع.

حاولتُ أن أندمج مع الفيلم دون فائدة، كل فترة كنتُ أتطلع لوجه هبة في الظلام، وتذكرت يوم أن وجدتها ليلاً في شقتي هناك على السرير تهز قدميها كطفلة، عندما أخبرتني آنذاك أنها استغلت نومي الصباحي الثقيل وذهبت واستخرجت نسخة على مفتاح الشقة حتى لا تنتظرني إذا لم أكن موجودًا، عرفت حينها أنني أتعامل مع طفلة شقية سوف تتعبني، كيف عرفتها لسنوات ولم أفهمها؟ سؤال طرحته على نفسي كثيرًا ولم أجد أية إجابة، كنت أكتشف هبة جديدة في كل شيء، هبة ترفض المجتمع والناس وتطلق الحرية لتصرفاته. الشيء الوحيد الذي أثار حيرتي مدة وأحاول أن أجد له تفسيرًا، لماذا منحتني نفسها بتلك البساطة وهذه الصورة؟! بالطبع لم أكن أول رجل

في حياتها وأظن أنني لن أكون آخر رجل، ولكن طريقتها في المنح كانت جديدة عليَّ، بل قد تكون جديدة على أي رجل شرقي.

سألت هبة ألا تخاف أن أخبر محمود بعلاقتنا، قالت أنها تثق في وأنني لن أفعلها، وعليَّ أن أدع الأيام تمر، وهي تنتظر تلك اللحظة التي تكون فيها في قمة نجاحها وترى الحسرة في عين محمود.

رحت أقارن بينها وبين نجوان التي لا أعرف شيئًا عنها سوى صورة، صورة تنغص حياتي ليل نهار، ولا أستطيع الفكاك منها، لعنة أصابتني فجأة وفي مقتل ودون مبرر.

انتهى الفيلم، غادرنا السينما ورحنا نقطع الطريق متشابكي الأيدي، مررنا على محل كبير جلبت هبة العشاء الذي قالت أنه سيكون عشاء خفيفًا هذه المرة، عدة زجاجات من البيرة، وزجاجة خمر عمر الخيام، قالت أنها تريد أن تسكر قليلاً الليلة، لم أعترض، شيء في خطواتها وثقتها الزائدة بنفسها كان يشغلني عن الاعتراض، ويجعلني أتابع تصرفاتها فقط، بعض الزيتون المخلل، حبات فستق، وأشياء جمعتها بيدها الاثنتين لتضعهم في الكيس وهي تقول اعتبرني سيدة المنزل. الحيرة كانت تأكلني وأنا أتساءل ما نوع هذه العلاقة بيننا؟!

في الطريق وجدت نفسي أقول:

- «هبة، إني تقريبا لا أعرفك الآن!!»

ضحكت وهي تخبط كتفي بيدها في دلال قائلة:

- «وهل كنت تعرفني سابقًا؟ راجع معلوماتك يا أستاذ».

- «أنت تثيرين حيرتي بالفعل، كل شيء فيك مختلف وجديد عليَّ».

- «لأنك لم تكن تنظر لي إلا نظرة خاصة، هل تتذكرني قديمًا؟ أيام المدونات. بداية معرفتنا، كيف كنت تراني؟ أتذكر لا تقل، كنت تراني فتاة طموحة موهبة تؤمن بموهبتك وتملك هي أيضًا جزءًا من الموهبة تحتاج لصبر حتى تكبر، أظن أنني أتذكر بعض كلماتك لي أنه سيصبح لي شأن يومًا ما في عالم الأدب، ما الذي عرفته عن حياتي وقتها، فتاة خريجة حديثًا تعيش مع أمها في بلدة صغيرة بعد وفاة أبيها، أنت كنت تبعد بنفسك عن تفاصيلي، كنت تحررني من منطق الحكي والشكوى لك».

- «إني أتذكر أول يوم هبطتِ فيه على ندواتنا الثقافية، وكيف صار الجميع يطلبون ودك، أظن أن أحدًا من الشلة وقتها لم يسلم من الوقوع في حبك».

- «إلا أنت، أليس كذلك؟ كنت تنظر لي كطفلة تحتاج للتدليل، أتذكر ذلك الكاتب الشاب المتأنق البسيوني، كيف وقع في حبي، وكيف صدم عندما عرف أنني أشرب البيرة، كان ريفيًا حقًا، منغلقًا عن الواقع، متأخرًا سنوات ضوئية عن الحياة».

- «ولكنه كان يعشقك، كلمني في هذا قبل محمود، أتذكر أيضًا تلك الرسائل التي وصلتني من فتيات كنّ صديقات لك في الظاهر، بينما في الرسائل الخاصة كنّ يقذفنك بكل أنواع الفجور، من أجل عدة زجاجات بيرة وسهرة بريئة مع صديق في مقهى ريش».

- «نحن جيدون في سلخ بعضنا، التلذذ في القتل وهتك عرض الأفكار والجسد، طفل أنتَ، للحق لم تكن السهرات بريئة كليًّا، أنتَ الذي كنت بريئًا، كنتَ تريد دومًا أن تراني طفلتك المدللة، اكتشافك، كيف أكون اكتشافك وأنت من حينها تبحث عمن يكتشفك، عذرًا، كنا نبيع الوهم لبعضنا، كلنا بلا استثناء. أتعرف حقًا أين تكمن حدود الغواية؟»

- «إني لا أفهمك».

- «لأنك لم تقرر يومًا أن تعرفني حقًّا، كنت تريد الإطار الخارجي، فتاة مثقفة تعتبرك أستاذها، تهرب من حضن

الجميع لتأتي لتحكي لك بعض مشاكلها الطفيفة، أتذكر أنك كتبت قصة يومًا عن أب يهمل زوجته وبنته، وقتها أحسست حقًا أنك تصفنا أنا وأمي وأبي وحالة بيتنا وما يحدث فيه قبل موته. منذ عاد أبي من الغربة وهو مشغول عنا بعالم خاص به، وهو مسافر كنا نتحجج بغيابه أنا وأمي وأنه سيعوضنا سَنِيَّ جفاف المشاعر، بعد عودته كان يظل بالساعات أمام شاشة الكمبيوتر، يرفع عينيه ليطلب كوبًا من الشاي أو فنجانًا من القهوة أو الأكل، عاش بيننا لفترة طويلة وكأنه ضيف، نزيل فندق؛ لهذا كنت أنت بالنسبة لي طفرة، بديلاً أعوض فيه أبًا هرب عني مرة بالسفر وتارة بانشغاله بأشياء لا أفهمها، أنت كنت ضرورة حتمية آنذاك».

سعلت بغتة وأنا أحاول أن أرد عليها، فنظرت لي وهي تربت على كتفي بيدها الحرة، بينما يدها الأخرى تحمل كيس مشترياتنا، قالت وهي تقف بغتة:

- «أتعرف أكثر ما يرهبني حاليًا، الخوف، طوال الوقت الخوف يحاصرني. الخوف ليس كشعور إنساني بل كنبض يحدث في جسدي، الخوف يجري في عروقي مجرى الدم، معك لحد كبير لا أشعر بالخوف هذه الأيام، فنحن لم نرتب للقائنا، بل القدر، لا أحد هنا يعد علينا تحركاتنا وهمساتنا، تعرف

أنك أحييت فيَّ شعور الأنثى من جديد، أشعر بنفسي لأول مرة كأنثى متحررة، حتى فيما سبق وبكل ما مرّ بي لم أشعر بهذه الحالة».

– «هل لديك تفسير لعلاقتنا اليوم؟»

– «لماذا تريد أن تضع مسميات لكل شيء؟ نحن صديقان جمعتهما الصدفة يستمتعان معًا، لا تنظر لي هكذا تلك حقيقة، حتى ممارستي الحب معك هو لقاء بين شخصين أحرار، لا وعود، لا شروط، لا شيء، لا تستبق الأحداث ودعنا نستمتع، إني في مزاج مرح اليوم فلا تعكره لي بالتفكير».

بدأت السماء ترتجف فجأة ويرتفع صوت الرعد فتطلعتُ لها ولعينيها الواسعتين المتألقتين بعد حديثنا معًا، وكأنها كانت تتحرر من ثقل عليها واتسعتْ ابتسامتها وهي تنظر للسماء ولبريق البرق قبل أن أقول لها:

– «من الأفضل أن نأخذ تاكسيًا».

تأملتِ السماء فوقنا وكأنها تودعها وأنا أشير لسيارة تمر ليس ببعيد عنا، لم تتوقف أول سيارتين أشرت إليهما، بينما توقف السائق الثالث.

دخلنا السيارة والسماء تواصل فتح محابسها على الأرض.

(٧)

كان كل شيء مغريًا بالكسل، هبة النائمة في غرفتي شبه عارية، زجاجات البيرة التي تجرعتها بعد العشاء، الجو الهادئ، والأمطار التي تنهمر في الخارج.

الحياة بكل كسلها كانت في تلك اللحظة تدعوني للركود، لكن رسالة من منال أيقظت حواسي أدركت حينها أني لهذه اللحظة لم أفعل شيئًا مما اتفقنا عليه. فتحت اللاب توب، وفتحت ملف الرواية لكي أعمل عليها، شيء يأخذ عقلي لبعيد، صورة نجوان تكبر في داخلي، لدرجة أنها أصبحت تمثل كياني كله، أرتجف لمجرد تذكرها، هبة تغط في النوم، باب غرفة النوم مفتوحًا، أختار مكانًا ألمح منه جسدها وهي نائمة، لماذا أشعر طوال الوقت أن هبة تجهز لي مصيبة؟ إحساسي بهبة لا يزال غير مكتمل، أشعر بأنها تخفي أشياء كثيرة عني، أشياء لا تريد إخباري بها الآن، أتأمل ساقيها العاريتين المفرودتين على الفراش، ورقبتها العاجية وهي ثابتة في وضعها على المخدة، وشعرها الذي فردته لينسال ببساطة متحررًا، أتأمل تفاصيلها المرئية والمخفية بعيني وبعين خيالي، وأتساءل لِمَ تفعل ما تفعله؟ حقيبتها موجودة الآن على المائدة أمامي، أقف لأفتحها، أجد كمية كبيرة من النقود في جيب الحقيبة، أخرج مبلغًا من الظرف الذي أعطاني إياه فتحي،

وأدس المبلغ وسط النقود، حسبة بسيطة في عقلي تجعلني أحسب ما صرفته منذ جاءتني أول مرة حتى اليوم، أخرج مبلغًا آخر من الظرف وأضعه أيضًا، هكذا أظن ما دفعته، كنت أريد ألا أكون مدينًا لها هي الأخرى بشيء، شيء من الرجولة وإحساسي جعلني أفعل ما أفعله الآن، ملف الرواية أمامي، ورسالة منال الساخطة ككل مرة هذه الأيام تطاردني لأعمل.

مرت ساعة تقريبًا وأنا لم أتقدم خطوة في الرواية، أعيد وأكتب ولا أفهم ما أكتبه، فأعود لمسح كل ما كتبته، كنت أظن أن الأمر أبسط من هذا، ولكنه يزداد تعقيدًا، وجود هبة، وظهور داليا ورباب في الإسكندرية مع بحثي الخفي عن فتاة لم ألتقيها في حياتي ولا مرة، ولكني أشعر أنها تمتلك كياني كل هذا كان يبعثر أفكاري، يجعلها مشتتة، وكلما قدرت لنفسي وحمستها لتكتب أتوقف ساخطًا وسط جمل لا معنى لها، أملأ الورق فتسود الصفحات بلا شيء.

الماضي يزاحمني بكل إحباطاته، والمستقبل بكل سخفه يطارد عقلي، الشعور بأن كل شيء سخيف سيطر عليَّ، ظهور هبة الآن سخافة، داليا ورباب وزوج داليا سخافة أخرى، حتى بحثي عن الشناوي وإصراري على معرفة مكانه قد يعتبر نوعًا آخر من السخافة.

الشعور باللذة وأنا أكتب يهرب مني، يقولون الكتابة ولادة، الجنين يريد أن يخرج مشوهًا، لا يشبهني، وكأنه جنين لشخص آخر ليس لي، وليس من حقي أن أملكه، أن أهبه اسمي، جنين سيخرج للعالم به سخف كل ما يدور حولي. أتوقف، لا أطيق النظر إلى ما أكتبه.

أبحث لنفسي عن مخرج لما يجري، فأجد الأمر يزداد صعوبة.

هل أتوقف وأرتمي بجوار هبة على السرير؟ اتفقنا أنه لا جنس بيننا اليوم، فهي تعبة وأنا تعب، ولن نستمتع، تقول أنها عندما تمنحني يجب أن تمنحني كامل الحب؛ لآخذ منها كما أشاء، لآخذها لآخر مدى لتمنحني وكأنها لم تمنح من قبل، لا ليكون مجرد فعل ميكانيكي وحركة بين كائنين آليين، أصبحت فيلسوفة هذه الفتاة، حتى في الجنس.

اكتفيت ببعض النقاط البسيطة التي قمت بتعديلها في الرواية، وأغلقت اللاب توب.

جاءني شعور أن أنزل في تلك اللحظة، أن أدور في الشوارع، أن أصطاد فتاة ليل وأعود بها وأقول لهبة وقتها سأجمعكما في فراش واحد وليلة واحدة.

سأرى رد فعل هبة حينذاك، هل ستضربني؟! أم ستضرب الفتاة أم تطردني من الشقة؟! سأذكرها أنها شقتي أو هي الشقة التي على

اسمي في هذه اللحظة، ستخيرني بين أن أطرد الفتاة وأمارس معها هي الحب، سأتمسك بفتاة الليل، ستقبل هبة بامتعاض.

خيال مريض أن أجعلهما يمارسا السحاق حتى أرضي غروري، ولم فتاة ليل؟ لأتصل بداليا، هي منذ أتت تحاول أن تجد أي حجة لتعرف عنوان الشقة، سأمليها العنوان وستأتي ببساطة، لن يوجد لدى داليا أي مانع، ولكن ما رد فعل داليا نفسها عندما تجد هبة عارية في فراشي، هل سأستقبلها على الباب وأقول لها قبل دخولها هناك فتاة عارية بغرفة نومي، يزداد الجنون بداخلي، سيجارة حشيش تركتها لي هبة قبل نومها ملفوفة أشعلها، يشتعل الخيال بداخلي، أبحث عن الخيال فقط، أمد يدي إلى هاتفي، أتصل بداليا، من أول رنة أجدها ترد وكأنها كانت تنتظر مكالمتي، لا أعرف كيف أبدأ مع داليا حديثي وسط هذا الهذيان وهجوم الأفكار العبثية، أسألها عن زوجها، تقول لي أنه حسب معرفتها جاء للإسكندرية خلفها، ولكنه لهذه اللحظة لا يعرف مكانها، سعيدة داليا بالمكالمة تريدني أن أواصل معها الكلام حتى الصباح، فجأة أنتبه أنني أحاول أن أنهي المكالمة، تخبرني أنها حلمت بي، أضحك وأقول أني صرت هذه الأيام مجرد زائر لصديقاتي في أحلامهن، تسألني هل هناك أخرى حلمت بك؟! أرد في غرور كثيرات، إني مادة خام للحلم.

تحكي لي حلمها الساذج والذي حاولت أن تجعله شبقيًا، فأتملص من السماع. أقول لها أني زهقت من الأحلام، الواقع يقتلني، تقول أن رباب نائمة من بدري. ولولا هذا لجاءت بها وجاءتني في تلك اللحظة.

أجبتها ضاحكًا أن صحتي لا تتحملها هي ورباب في ليلة واحدة، فهي تحتاج لثور ليهد جوعها ويحرث أرضها، فلن تترك لأخرى أي شيء، أحس أني صرت مراهقًا يحادث فتاته في منتصف الليالي ليتكلما في الجنس والشبق، أعود لنفسي وأحاول توديعها، تترجاني أن أنتظر معها قليلاً، فأنا اليوم مختلف وهي مستعدة لتنفيذ أية رغبة لي، أتملص برفق وأقول وسط مزاحي أن اليوم غير مناسب فهناك فتاة عارية في فراشي بالفعل، ترفض تصديقي، أقول لها إن عدم تصديقها لا يهمني، تقول لو كان هذا صحيح لأسمعها صوتها، قلت إنها نائمة، قالت إنني كذاب أحاول أن أثير غيرتها، أضحك وأنا أقول إن ما بيننا لا يجعل هناك أية سبب للغيرة، أتحداها في بساطة أدخل للغرفة، أهزّ جسد هبة فتفتح عينين متثاقلتين متسائلتين، أبتسم وأنا أقرب التليفون من شفتيها قائلاً: قولي آلو، تقول هبة في تكاسل آلو وهي شبه نائمة آلو، أسحب التليفون وأغادر الغرفة، بينما هبة تواصل نومها في بساطة، داليا على الطرف الآخر سكتت لوهلة، أردتُ أن أغلق الخط، جاءني صوتها من وسط دموع مكتومة متسائلة من التي معك؟ وهل عرفتها هنا أم أنها أتت معك منذ البداية؟ ابتسمت

وأنا أقول لداليا إنها رزق وجاء من السماء لي، ثم أغلق الخط بمنتهى الهدوء وأضع التليفون جانبًا، أتحرر بعض الشيء من التفكير المجنون، هل آذيت داليا؟ لا أظن، إني فقط وسط هذا العبث أردت بعض الحرية، بعض المنطق في العلاقة.

تخيلت أن داليا ستعيد الاتصال عدة مرات، ولكن التليفون ظل صامتًا.

أعصابي ملتهبة دون سبب مفهوم، أحاول أن أبحث عن حل لترطيب أعصابي.

يقولون إن النوم في حالتي قد يكون مفيدًا، أذهب للغرفة، أتمدد في الفراش بجوار هبة، أتأمل وجهها، وأتحسس شعرها، تميل بوجهها ناحيتي وفي تكاسل تطبع قبلة على خدي وتلف ساقيها حول قدمي وتواصل النوم، حائر في شكلها في تلك اللحظة.

ملاك نائم بين ذراعي، ملاك يحمل خلفه سرًا يخيفني وأحاول فك غموضه، أريح رأسي على المخدة بتكاسل وخدر، ولم أعرف متى زارني النوم؟

●●●

صحوت من النوم، كان الوقت ظهرًا، لم أجد هبة في الفراش، خرجت للصالة، وجدت الإفطار مجهزًا وموضوعًا على المائدة بجانب اللاب توب، ناديت على هبة ربما تكون في المطبخ أو الحمام، لم أتلق ردًا، نظرت لمكان حقيبتها على كرسي الصالون فلم أجدها، بعد أقل من دقيقة تأكدت أن هبة غادرت الشقة. انسلت خلسة خارجة وأنا نائم كعادتها معي.

أخذت حمامًا سريعًا، وصببت لنفسي كوبًا من الشاي، وعدت للصالة، نظرت للهاتف متطلعًا لأي رسائل جديدة، لم أجد، فارتحت قليلاً، بدأت أشعر بأن كل رسالة جديدة تحمل لي شرًا مستطيرًا.

فتحت اللاب توب وأنا أفطر، وفتحت ملف الرواية، وقد صممت أن أقطع شوطًا فيها اليوم، بدأت في العمل، أخرجت النسخة الورقية القديمة من الرواية، وأخذت أضع خطوطًا حمراء تحت بعض الجمل، وأقارن بينها وبين المكتوب على الشاشة أمامي، وأشرع في العمل، غصت بكياني كله في التعديلات، كان كلما جاء خاطر بعيد عن الرواية إلى عقلي أتجنبه وأثبت نظري فيما أمامي، لا أعرف كم مضى من الوقت ولكني عندما انتهيت كنت راضيًا لحد كبير عن التعديلات التي أجريتها على الفصل الأول والثاني، نظرت لساعة اللاب توب، اكتشفت أني لمدة خمس ساعات كاملة لم أتحرك من مكاني، طفاية السجائر أمامي ممتلئة. وباقي الإفطار في مكانه، شعرت بحاجتي

إلى فنجان قهوة، ذهبت للمطبخ ورحت أعد القهوة وعقلي ما زال منشغلاً بالرواية عندما ارتفع رنين هاتفي المحمول، نظرت للرقم فوجدته دون اسم، قررت ألاّ أرد، وصببت القهوة وعدت لمكاني أمام اللاب توب، فتحت صفحة الفيسبوك ورحت أستعرض صفحات الأصدقاء، كنت أريد أن أغير من مودي وأسرح قليلاً فيما يكتبه أصدقائي على صفحاتهم، لم أجد شيئًا جديدًا ملفتًا للنظر، عاد هاتفي يرن مرة أخرى كان نفس الرقم السابق، رددت في ملل وبصوت به رنة سخف، جاءني صوت عرفته، كانت رباب، اللعنة إني كنت قد نسيت أو تناسيت داليا، كانت رباب شديدة الغضب وهي تعنفني عما فعلته في داليا أمس، وأن داليا لم تكف عن البكاء منذ أمس، تعجبت لرنة الغضب في صوت رباب ولوهلة ظننته غضبًا مصطنعًا ولابدّ أن بجوارها داليا، شرحت لها أن ما حدث بالأمس مني لا يهم داليا في شيء، وأني لم أعد داليا بأي شيء، وما بيننا مجرد صداقة، داليا هي من تريد أن تحول الصداقة لشيء آخر، بإرادتها هي وليس عن طيب خاطر مني. وإن كنت أجاريها أحيانًا فيما تفعله، فهذا من منطلق شعور الصداقة بيننا، ويجب عليها أن تفهم هذا، أظن حينذاك أن داليا خطفت التليفون من يد رباب وسبتني، واتهمتني بأشياء كثيرة كانت جديدة عليَّ، لم أرد حتى لا يتفاقم الموضوع دون داع، وأنهيت المكالمة، بعد دقيقة ارتفع الرنين مرة أخرى، كنت أحاول أن أحافظ

على هدوء أعصابي، وفي نفس الوقت لعب الشيطان بعقلي أن أرد السباب لها مضاعفًا، ماذا تريد هذه المجنونة؟ قحبة أخرى لا أريدها في حياتي، هل الارتباط صار غصبًا؟ ولكني وجدت رباب تعتذر لي وترغب في مقابلتي، ربما لتوضح لي الصورة، قلت أني لن أقابلهما مرة أخرى، قالت رباب أنها هي من ترغب في مقابلتي وليس داليا، حاولت أن أتهرب من لقائها، ولكن صوتها الهادئ ورقتها وهي تطلب ذلك جعلني أقول أني سأتصل بها بعد ساعة وسأحدد آنذاك إذ كان باستطاعتي مقابلتها أم لا؟!

لم أعرف لماذا قلت لها إن بعد ساعة قد أتصل بها، ولماذا ساعة بالذات؟ ما الذي سوف يتغير في تلك الساعة يدعوني لمقابلتها؟

لم يتغير شيئًا فعليًا بعد مرور الساعة إلاّ لو اعتبرت عدة بوستات سخيفة على الفيس بوك تغيرًا، أطلقت زفرة حارة وأنا أقفل اللاب توب وأضغط على زر الاتصال بآخر رقم في هاتفي، لم تمر وهلة حتى وجدت صوتها يسألني ماذا قررت؟ كانت تنتظرني حقًا، قلت إني مستعد لمقابلتها، قالت إنها تعرف كافتيريا على البحر هادئة نستطيع التقابل فيها، أعطتني وصفًا فطلبت منها أن تمليني العنوان وتنتظرني هناك بعد نصف ساعة وحذرتها من وجود داليا لأني لم أعد أحتمل جنونها وتصرفاتها الهشة، كتبت العنوان في ورقة وضعتها بجوار اللاب وأنهيت المكالمة، غيرت ملابسي بسرعة كعادتي

في اللبس، وضعت الورقة التي كتبت فيها العنوان في جيبي وخرجت.

كان الجو صافيًا ورائقًا، قررت أن أمشي لمدة عشر دقائق، قبل أن أركب للكافتيريا.

كان رائعًا أن تختلط وسط تيار المشاة وأنت لا تحمل بداخلك إلا شعور بالخواء. التعديلات التي أجريتها على الفصلين جعلتني أشعر برغبة في الرقص، ربما الآن أو بعد قليل، داليا لا تهمني في شيء، رباب لا تشغلني في شيء رغم أني في طريقي إليها، حتى هبة تراءت لي كشبح بعيد عني يحاول الاقتراب دون فائدة. أشعر بقدميّ ترقصان في أثناء المشي، انسلت وسط المارة بهدوء وانسيابية، أتأمل الوجوه بأريحية منذ مدة طويلة وكأني أحتضنها، كل شيء جميل وهادئ بداخلي الآن ودون مبرر حقيقي، أشرت للتاكسي وركبت وبمجرد أن قلت له اسم الكافتيريا لم يدعني أكمل باقي العنوان قال إنه يعرفها جيدًا.

هل مرت نصف الساعة أم أكثر، الشوارع المنداة بماء المطر، والنسيم الهادئ الذي يداعب وجهي من نافذة السيارة، والشوارع الغاصة بالبشر، والكورنيش والبحر الممتد بلا نهاية لعيني، وسواد الليل تكسر حدتها الأضواء المنبعثة من كل مكان، كل شيء كان يدعو للبهجة أن أكون مسرورًا، لن أنغص يومي بداليا، لثوان فكرت أن

أعدل الخطة وأترك رباب تنتظر ولا أذهب، ولكني عدلت عن الأمر وانتهيت وأنا أدخل للكافتيريا متأملاً الموائد.

رباب كان تجلس لوحدها وأمامها كوب من العصير، تحركت اتجاهها راسمًا ابتسامة بلا معنى، عندما أوقفتني يد في وسط الطريق؛ لأرى وجهًا مرحبًا متسائلاً، كان فتحي الذي بدا وجوده في تلك اللحظة كضرورة من ضروريات النص، ولا أعرف لماذا بدت لي الصدفة مقصودة ومرتبة مائة في المائة؟! دعاني للجلوس إلى مائدته ورحب بي هو وصديق له، أشرت أني بالفعل مع أحد وضروري سيكون لنا موعد آخر.

تغيرت شكل ابتسامتي وأنا أجلس أمام رباب، أظنها لاحظتْ ذلك؛ لكنها آثرتْ عدم التعليق، وظلت محدقة إليَّ بعينين ساطعتي البريق، بدا أنها تبحث عن نقطة لانطلاق حديثنا، ولكنها تتشبث لآخر لحظة أن أبدأ أنا الحديث حتى تقول ما لديها، ولدقائق ظهر أننا نمارس لعبة القط والفأر، ونظراتنا تتقابل في تخابث متفق عليه ضمنيًا.

لم تمر هنيهة حتى تلقيت رسالة على الواتس آب تطلعت لها سريعًا كانت من منال تقول فيها: «من السنيورة التي معك؟ هل تلعب بذيلك؟». تطلعت لمكان فتحي ونظرت له بعينين جامدتين، ألحقت

أيها الخبيث في نقل تحركاتي؟! رفع وجهه وكأنه شعر بنظراتي إليه وابتسم في خبث وعيناه الجاحظتان تنظران اتجاهي في تحدٍ.

لاحظتْ رباب نظراتي اتجاهها، فقالت في خفوت:

- أهناك شيء؟

بلعت ريقي وأنا أنقر المنضدة بأطراف أصابعي:

- صديق قديم يداعبني ليس إلاّ، ويسخف برسالة أنني أجلس مع فاتنة.

- أتحب أن ننصرف من هنا؟

- كلاّ، لا داعي لإعطائه شعور بنصر مزيف.

- إني لا أفهم، هل قيامنا الآن سيمثل له نصرًا؟

ابتسمت وأنا أنظر اتجاه فتحي مرة أخرى، فوجدته يبدو منشغلاً بالحديث مع صديقه، ولكني كنت أدرك أنه منشغل بما أفعله أنا أكثر؛ فقلت:

- بعض الناس يؤمنون بالانتصارات غير الحقيقية، المهم ما الذي دعاك للاتصال بي اليوم؟!

رفعت كوب العصير ورشفت رشفتين قبل أن تقول:

– داليا، داليا صديقتي منذ زمن، وأرى أنها تتحطم كل يوم عن اليوم الذي سبقه، وأرى أنك تشارك في تحطيمها دون أن تقصد.

تحسست شعري قبل أن أسند مرفقي على المائدة متطلعًا لعيني رباب وأنا أقول:

– المشكلة كلها لديها، وليس لي دخل فيما تفعله، ما بيننا مجرد صداقة، هي من تريد أن تحول الأمر لأكثر من هذا، إني يوما لم أقل لها ما يخل بشروط صداقتي لها، لكنها تبحث عن فارس لأحلامها ولست أظن أني هذا الفارس، أنا شخصيًا وحقيقة مهزوم من البداية، هي لا تفهم ما ذنبي أنا؟!

بدت رباب مترددة قليلاً قبل أن تقول:

– إني تركتها في أسوأ حالة ممكنة، ولا أريد أن ينتهي الأمر هكذا بينكما، هل تستطيع أن تأتي معي لمصالحتها؟!

تطلعت لوجه رباب ونظراتها المتوسلة وأنا أقول:

– إني لم أخطئ في حقها للحظة، وفي نفس الوقت ليس بيننا خصام أو خصومة. لماذا تريد هي أن نمضي في هذا الطريق؟ لقد حكت لي داليا عنكِ كثيرًا، وأعرف أنك أكثر نضجًا مما يبدو على ملامحك، هل حقًا تظنين أني مخطئ في حقها؟

ابتسمت رباب للإطراء ولمعت عيناها وهي تقول:

- حقيقة أنت لم تخطئ، صديقتي مجنونة هذا مؤكد ولكني أحبها، وأرغب أن تكون سعيدة، هي أتت الإسكندرية من أجلك أنت، تريد أن تكون بجانبك.

- لا أستطيع، حقًا لا أستطيع أن أتحمل الضغط النفسي عليَّ من داليا، أعصابي لم تعد تتحمل، وأمامي أعباء كثيرة هي لا تعرف عنها أي شيء، أرجو أن تفهميني.

- مؤكد أني أفهمك، لكن ظروف داليا، وظروف طلاقها وما مرت به لا ترى غيرك، إنها كالغريق يبحث عن قشة يتعلق بها، وأنت تلك القشة.

داعبت شفتي بلساني وحاولت أن أقول شيئًا ليرضي رباب فوجدت نفسي أقول:

- ليس هناك مانع أن أراها، ولكن ليس الآن، الأفضل ليس الآن، ستكون مقابلة كئيبة مليئة بالجفاء والتحدي، دعينا نختار وقتًا آخر.

- متى؟

- سأتصل بك، ونحدد ميعادًا، لا تقلقي لن أهرب منكما..

شخص آخر غيري يأتي بسرير له ويسكن معكما في الشقة، هل هناك أحسن من التواجد مع فتاتين حسناوين مثلكما؟

أطلقت رباب ضحكة قوية، ووضعت يدها على فمها لتمنع علوها، ثم قالت:

- لم يصل الأمر إلى هذه الدرجة بعد.

ابتسمت بدوري وأنا أقول:

- وإن وصل يا سيدتي ما المانع؟!

وانطلقنا في ضحكنا سويًا، قبل أن تقول رباب:

- الأفضل أن أعود لداليا، سأنتظر اتصالك، لا تتأخر، لا أريد أن تنتحر البنت.

- مجنونة من تنتحر لأجلي.

استأذنتني رباب بعد مدة أمضيناها في كلام بلا معنى ندور في حلقة فارغة من المعاني والأحاسيس، وغادرتِ المكان، ظللتُ في مكاني لفترة، وعيني تجول في المكان حولي لوهلة، كان فتحي قد غادر هو وصديقه، وبدا الأمر لي شديد الملل، ما الذي تنتظره داليا مني؟ حمقاء هذه الفتاة!

obeikandl.com

زايلني شعور بالتوتر لا أعرف من أين أتى منذ دخلت وكنتُ أحفظه بداخلي، ربما كان فتحي وسخافته ومنال ورسالتها الساذجة السبب، وربما قصة داليا كلها وما تحمله لي من هم وتفكير أنا في غنى عنه هذه الأيام بالذات.

أطلقتُ زفرة حائرة وعيناي تجوسان المكان دون هدف وبداخلي مشتعل.

لم أكن أريد أن أصنف أي شيء يحدث لي على أنه مصادفة، ولكني أصبحت مجبرًا على تصديق المصادفة حتى لا أصاب بالجنون.

اتصلت بمنال وعنفتها بشدة وبصورة لم تتخيلها، قلت أني سأنهي كل شيء وسأعطيها ما دفعته، لم أكن فعليًا قادرًا على دفع ما صرفته من المبلغ الذي أعطاني إياه فتحي، لكني كنت في شدة الغيظ بالفعل، ربما رد فعلي العنيف جعل صوتها يأتي إليَّ هادئًا رقيقًا وهي تحاول استرضائي، قالت إن مقابلة فتحي في المقهى لي كانت صدفة، حتى عندما حدثها في أثناء وجودي في المقهى كانت صدفة أخرى، رسالتها فقط لم تكن صدفة، كانت نوعًا من المداعبة والهزار. حاولت أن أبتلع غضبي وفي نفس الوقت أتمسك بجزء من كرامتي المهدرة. بالفعل كانت كرامتي لا معنى لوجودها في علاقتي بمنال الآن، فقد وافقت على صفقة رخيصة بلا معنى، الاحتياج، مرارة الهزيمة وسط كل ما

حدث لي سابقًا. في النهاية قالت أنها ستتركني على حريتي لأفعل ما أشاء، وأن فتحي لن يلتقي بي أو يبحث عني قبل انتهاء الشهر إلاّ لو اتصلت به أنا ورغبت في شيء.

أحسست أني خرجت فائزًا بعض الشيء من معركة ليس لها وجود أو معنى، إحساس الانتصار سيطر عليَّ لمدة بعد نهاية المكالمة.

●●●

opeikandl.com

obeikandl.com

(٨)

شعرت للحظة أن كل شيء يمضي على ما يرام، ها قد مر يومان وأنا عاكف على الرواية، أعدل فيها وأعيد سياقة بعض الجمل لو استمر الأمر على هذه الصورة ربما انتهيت في موعدي، طوال الوقت وأنا أكتب كان ذهني هناك وراء نجوان وعائلتها، وراء السرّ الذي لم يكن سرًا لولا إصراري على وضع نفسي في موقف غامض.

كلمني فريد العطار عدة مرات قال أن صديقه الأسيوطي يواصل البحث وأنه قريبًا سيأتي بعنوان مراد الشناوي، وداعبني وهو يقول إن لاسم مراد الشناوي موسيقى خاصة كاسمه هو، لم أعلق على ما يقوله بالرفض أو القبول ولكني أنهيت المكالمة وأنا أحاول أن ألم بملامح نجوان في عقلي، للحظة شككت أن ملامحها ذهبت من الذاكرة، وأني لو تخليت قليلاً عن فكرة البحث عنها لصارت من الماضي.

هبة هي الأخرى مختفية لا أعلم لماذا، وليس لدي رغبة في البحث عنها، فهي تفاجئني عندما تريد، ما زالتْ تعرف أن أمامي بعض الوقت في الإسكندرية، لم أحك لهبة عن نجوان وعائلتها رغم أن هاجسًا داخليًا ملحًا كان يطاردني أن أحكي لها.

لهذه اللحظة لم أكن قد فهمت هبة، تصرفاتها لغز آخر، ولكن لا يهم لأهتم أن أنتهي من الرواية وأسلمها لمنال وأقطع دابر الأمر لأعود لحياتي، ولكني حقًا كنت ملولاً، وكانت فكرة أن أعود لحياتي كما كانت ليست ذات جدوى حقيقية، سأعود لأناصب نفسي العداء وأتهم نفسي بالفشل، وأسب في الجميع عندما أرى أن الذوق العام ينحدر، ومن أنا لأحكم على الذوق العام أو الناس. سعيد صديقي ذاك الكاتب السكندري كلمني، قال أن دور البرد الذي أصابه بدأ ينسحب من جسده، ويومان بالكثير ويكون في مقدرته مقابلتي، لم أعط للأمر أية أهمية وكأنني فجأة جاء القرار الداخلي ألا أعطي لأي شيء يحدث أهمية؛ لأواصل الكتابة؛ لأبحث عن شخصيات بأنماط مختلفة، أحيانًا أظن أني بحاجة إلى طبيب نفسي مرافق وأضحك لهذا الخاطر، سأجننه معي.

كنت أملك كمًّا من المشاعر المختلطة التي ليس لها تفسير منطقي.

فتحت الفيسبوك ورحت أقرأ الرسائل السابقة، لا شيء ذو أهمية، كلها ثرثرة فارغة، وجدت رسالة من حمدي صديقي اللبناني، أرسلت له تحية الصباح، فوجدته يرد توًا وكأنه كان ينتظر ردي، قال أنه مشغول عليّ، وأن صداقتنا التي طالت لسنوات تحتم عليه أن يبلغني بقلقه، لم أعرف بما أجيبه سوى أن أطمئنه أني بخير، وأن اختفائي يرجع أني مشغول بالكتابة، جرني بحديثه إلى سكة السياسة،

لا أعرف هل يطمئن أم يشك أنه ما زال لدي القدرة على الحديث في السياسة؟ راح يضع مخاوفه أمامي وكأنه ينتمي لمصر أكثر مني، كلمني عن حرب السنتين في لبنان وعن بيروت وقصف الأشرفية وعن الحرب الأهلية التي استمرت لخمسة عشر عامًا وراح ضحيتها فوق مائة وخمسين ألف شخص. وخاض في تعمير بيروت والحريري حتى اغتياله في ٢٠٠٥ وانهيار شرفات فندق سان جورج والانفجارات التي كانت تهز لبنان، قال أنه يخاف أن تجر مصر إلى حرب أهلية أو تكثر حوادث الاغتيالات والتفخيخات لتصل لأقصى درجة لنستيقظ على كابوس، راح يكرر مخاوف الناس في لبنان بعد اغتيال الحريري وهل ستعود الأمور كما كانت أم سيعود التدمير لكل شيء، حدثني عن أشياء كثيرة لم أكن أرغب في معرفتها أو الخوض فيها، قلت لنتحدث عن بنات لبنان، فضحك بشدة، وقال أن جحا أولى بلحم ثوره، قلت مازحًا إن كانت بنات لبنان ثيران فالذي لدينا في مصر ديناصورات في طريقها للانقراض أو هذا ما نتمناه نحن الذكور المصريون، راح يعدد في مزايا البنات المصريات لدرجة أني بعد ثوان كنت أهتف بثقة غريبة إن البلدي يؤكل، جاءت كلماته لذيذة وهو يقول أني بالطبع قربت أن أركب طقم أسنان من كثرة أكلي للبلدي، لا أعرف لماذا رحت أدافع عن نفسي وقتها وأبرر له أن علاقتي قليلة جدًا بالجنس الناعم وأني أحيانًا أكون أشد خفرًا من النساء، بينما راح هو يمزح ويقول

أنه لا يحسدني، أنهينا الحديث في نقطة غير محددة وسكتنا سويًا، هكذا الفيس بوك يعطيك الفرصة فجأة أن توقف حديثك لوقت آخر أو تستكمله بعد عام. راجعت آخر حديث بيني وبينه وجدت أنه مرّ عليه أكثر من سبعة شهور. حديثي معه ربما أخرجني قليلاً عن حالة الكتابة والبحث فيما وراءها، حمدي في النهاية شخص رائق البال.

أخذت أنظر لواجهة الفيسبوك للحظات وأنا أتساءل كيف كان سيكون العالم بدونه؟! أظن أني أحد مدمني هذا الفيس الملعون، رن هاتفي رأيت نمرة غريبة، في البداية لم أرغب في الرد ولكن وجدت أصابعي تلمس الشاشة وأنا أضع السماعة في أذني، لم أعتد بعد أن أضع سماعة وأتكلم، جاء صوتها محايدًا، كانت رباب صديقة داليا، ذكرتني أن بيننا اتفاقًا وعليَّ أن ألتزم به، تحججت بالكتابة والانشغال بها، وعدتها أني سأتصل بها ليلاً، وسألتها رقمك هذا، فقالت أنه رقم صديق لها لأن رصيدها نفد، من الواضح أن رباب لا تضيع وقتها، ها قد اكتسبت صديقًا جديدًا وأتت به لهنا أو استدعت صديقًا قديمًا ليملأ جزءًا من فراغها الذي أظن أن داليا لا تمنحها وقتًا للفراغ، حقيقة لم أكن هذه المرة أريد الهروب من داليا، بداخلي لحظة أمتلكها الآن ويجب أن أحافظ عليها وهي لحظة مصارحتي لنفسي عليَّ ألا أترك بابًا مفتوحًا إلاّ وأغلقته، لا داعي لأبواب خلفية وثغرات جديدة في حياتي، أنهيت المكالمة على وعد أني سأتصل ليلاً

لنحدد مكانًا تختاره هي للقاء فلم أعتد قط اختيار الأماكن، دومًا أدفع إليها دون سابق معرفة أو اختيار، أظنها رضيتْ لهذا.

كنت أحتاج شيئًا جديدًا في تلك اللحظة لا أفهمه، فتحت حسابي الإلكتروني ورحت أقلب فيه، وصلت لرسالة أرسلتها لنفسي كانت تحمل اسم مسابقة كبرى، وبها صفحات من فصل أول في رواية، قمت بتنزيل الفصل ومحاولة تذكرها ورحت أقرأ في بطء فصل من رواية كتبتها غير معنون:

(كنت قد أخذتها لحجرتها وأغلقت النور عندما ارتفع رنين هاتفي، كانت سارة على الهاتف، تراجعت بسرعة إلى غرفتي وأغلقت الباب وأنا أرفع الهاتف على أذني، كلمات سارة بدت موجعة كالعادة، هل انتهيت؟ قالتها سارة بصوت به بحّة حزن، أجبتها أني منذ لحظات وضعتها في حجرتها وأغلقت الأنوار وأنها تسبح في النوم في تلك اللحظة، سمعت همهمة من سارة حاولت أن أميزها فلم يصلني سوى كلمة طيب بصعوبة، كنت أحتاج الآن لمن يطبطب على روحي، يأخذني في حضنه، هل ستنام؟ هكذا قالت سارة، كنت بالفعل مجهدًا لأقصى درجة، ولكني أجبتها أني قد أسهر قليلاً في عالم الإنترنت، جاءني صوتها هامسًا وهي تقول: سأنتظرك، ثم أغلقت الخط، لم أعرف حقيقة هل كانت تعني أنها ستنتظرني على الإنترنت أم سوف تنتظرني في العموم؟! ولمتى ستنتظرني؟! منذ ستة أشهر تقريبًا عندما

صدمني الواقع بغتة، وجدت أني وتلك النائمة أصبحنا ظلين من الصعوبة أن يفرق بيننا شيء، لقد جاء القدر ليضع في تلك اللحظة شروطه التي كان عليَّ أن ألتزم بها، فتحت جهاز الكمبيوتر، ورحت أتابع الدائرة الزرقاء وهي تدور أمامي، ولا أعرف لماذا شعرت بأن روحي نفسها تسحب مني وتعود للوراء.

أمامي كانت صورة أبي في إطار ألمحه ناظرًا إليَّ وكأنه يسألني هل تعبت؟ أشعر بأن بين لحظة وأخرى ستكلمني الصورة، بينما صورة أمي أحتفظ بها في درج مكتبي، وكأني أعاقب أبي بابتعاده عنها في حياته، فأبعدتها عنه بعد موته، يأتيني صوته من منطقة لا أعرفها وهو يقول: يوسف أنت رجل البيت الآن، عليك أن تحافظ على أمك وعلى أختك، إني أترك في البيت رجلاً، هل تفهم؟

كانوا وقتها واقفين وفي عيونهم تلك النظرة التي لم أفهمها، متصلبة وجوههم بعد أن فتشوا البيت عدة مرات قبل أن يصحبوا أبي معهم، لا أعرف حقًا لمتى! أعتاد على تلك اللعبة، وعلى نفس نوع الكلمات، أول مرة أخذوه ثلاث سنوات ثم أعادوه إلينا، كان لحمًا على عظم، عندما رأته بوسي أختي أخذت تصرخ لساعات طويلة حاولنا فيها تهدئتها دون جدوى، كانت أمي تحتضنها حتى تجهش بالبكاء هي الأخرى وتختلط دموعهما ونشيجهما، كانت نظرة بوسي لأبي مختلفة، للحظات طويلة كنت أشعر أنها توصمه بالجبن وأنه مذنب، لماذا يفعل ما يفعله؟ لمتى سيتركهم يأخذونه مرة بعد مرة؟

عندما أخذوه أول مرة كانت بوسي في السابعة من العمر، وعندما عاد كانت في العاشرة، بينما أنا كنت في الخامسة عشر حين عودته، الفرق بيني وبين بوسي خمس سنوات، أمي تقول إن بوسي جاءت نتيجة لقاء بينهما بعد أن عاد ثاني مرة بيومين في لحظة شوق، ولكنهم أخذوه بعدها لسنة، لم أعتد العد لأعرف كم مرة جاء وذهب، المرة التي كانت قاتلة بالنسبة لي عندما عاد آنذاك حيًا وظل يصرخ كلما دخل دورة المياه صرخات مجنونة كانت ترعبني، قال أنه مصاب بحصوات على الكلى، وأن عملية التبول تمثل له انتحارًا، أتذكره وهو يمد في يدي النقود ويهمس لي أن أذهب لعم زكريا البقال لأجلب له زجاجات البيرة، التي كان عم زكريا حريصًا على لفها في ورق جرائد ووضعها في كيس أسود وهو يعطيها لي، كنت أستمتع وقتها جيدًا بصوت زجاجات البيرة وهي تتخبط داخل الكيس، أدفعها لأبي فيدخل المطبخ ويتجرعها على دفعات متتالية. عندما يخرج من المطبخ يكون قد وصل لدرجة من السكر وهو يتمتم: أشار عليَّ بها طبيب، فأهزّ رأسي مستسلمًا، أضع الزجاجات الفارغة أسفل الحوض، لأني أعرف أن عليَّ إعادتها وجلب غيرها، ولكن صراخه في الحمام لم يتوقف، خرج مرة فرحًا وهو يمسك حصوة صغيرة بين يديه وهو يتأملها فرحًا قائلاً لأمي: لقد خرجت من جسده، كان منتشيًا وسعيدًا وهو يظن أن هكذا انتهى الأمر، الأمر حقًا لم ينته،

بل زاد الألم لدرجة رهيبة لديه وراحت صرخاته تتصاعد في البيت فتحوله إلى قطعة ملتهبة من جهنم، بوسي كانت تصرخ على صرخاته أحيانًا، آخر مرة أراحونا من صرخاته عندما جاءوا فجرًا ليأخذوه، كان مستعدًا ومبتسمًا وهذا ما جعلني أنظر إليه حينها في غيظ وأنا أضرب كتفه بيدي وهو يحتضني ويهمس بكلماته عن أني رجل البيت في غيابه، وقال لأمي وهم يسحبونه: سأريحكم من صراخي، لا أعرف حقًا كيف كانت أمي تسير الأمور المادية آنذاك، كل ما أعرفه أن خالي في كثير من الأحيان كان يدفع ليدها مبلغًا من المال وهو ينظر إلينا بشفقة، بينما بوسي تنسحب بكرسيها المتحرك إلى غرفتها، بلى كانت أختي بوسي قعيدة طوال عمرها، وكانت أمي تقول لنفسها ولي أحيانًا أن بوسي جاءت هكذا بسبب تعذيبهم له في السجن، لا أعرف لماذا ربطت أمي بين شلل أختي وبين أنها جاءت نتيجة لقاء جمعها بزوجها بعد خروجه من السجن بيومين، حملتْ أبي الجزء الأكبر من شلل أختي، وربما لهذا كانت نظرات بوسي لأبي في كثير من الوقت محيرة وعجيبة.

لم تمر ثلاثة أشهر حتى فوجئنا بأحدهم يقول لنا إن علينا استلامه، لم تصرخ أمي في وجه من جاءها بالخبر، بينما تحجرت الدموع في عيني، وظلتْ بوسي تصرخ بجنون، عندما استلمناه قال من غسله أنه تعرض لتعذيب رهيب وأن جسده مغطى بالحناء وأن

علينا أن نقدم بلاغًا ضد هذا، ولكن أمي أشاحت بوجهها وهي تقول آنذاك إكرام الميت دفنه، كان خالي ثائرًا وراح يسب ويلعن، واستسلم في النهاية لمنطق أمي وهو يهمس لي كن رجلاً، أبوك طوال حياته تتبعه المشاكل.

نزلت إلى القبر وقتها تلقيته أنا وعم زكريا الذي كان يبيعه البيرة، وسدَّدنا جسده للتراب داخل القبر، وخرجت والدموع تحطمني، كانت أمي متشحة بالسواد تقف وسط جمع من النسوة تحافظ على صلابتها، بينما ظلت بوسي بالبيت مع بنت الجيران، عندما أغلق عليه باب القبر، ارتفعت صرخة أمي بغتة، صرخة منعتها بداخلها حتى أغلق القبر عليه، صرخة شقت السماء وضربت قلوبنا في قسوة قبل أن تسقط فاقدة الوعي، بينما أكمل الشيخ دعاءه للميت والنسوة يحاولن إفاقة أمي، لم أستطع أن أغادر مكاني، وقفت أتلقى العزاء على القبر، همس خالي حينها في أذني: يكفي هذا لن نقيم عزاء عند البيت، يكفينا مصاريف.

شعرت بظلم بداخلي رهيب وكلمات خالي تشق صدري بسكين لا أراه. لحظتها شعرت بالفقد الحقيقي لأبي رغم كل الغياب السابق كنت أعرف أنه سيعود، هذه المرة الأمر مختلف، عليَّ أن أصدق أنه كفن ودفن وأنه لن يعود.

رأيت أيقونات الكمبيوتر على سطح المكتب فَدُسْتُ على متصفح الفيس، رأيت سارة بالفعل كانت تنتظرني، بمجرد أن دخلت وجدت كلامها في المحادثة أمامي.

- ماذا كنت تفعل كل هذا؟

لم أعرف هل ظللت طويلاً محدقًا في الشاشة، سارحًا وراء أبي وموته وأمي وموتها ولكني أجبتها قائلاً:

- لم أكن في مكان، لابدّ أني نمت دون أن أدري.

- هل كلمتها فيما سيحدث؟

- نعم، كلمتها.

- ماذا فعلت؟

- سارة أرجوك، لا أريد الكلام عن بوسي الآن.

لم تجبني آنذاك وتأخرتْ في الرد بعض الوقت قبل أن ألمح كلماتها الجديدة:

- حبيبي أنت تعرف كم أحبك، حقيقة أصبحت أغار من علاقتك بأختك وحبك لها أعتبره دلع بنات.

- مرة أخرى تعودين للحديث عن بوسي، سارة أحذرك إنها أختي الوحيدة.

obeikandl.com

- وأنا، ألست حبيبتك الوحيدة، يجب أن تخبرها، يجب.

- أغلقت شاشة المحادثة ولم أرد، بل خرجت من عالم الفيس كله، سارة تضغط على أعصابي أكثر، أني لم أعد أحتمل كل هذا.

أشعر بأن هواء الغرفة يخنقني، أخرج للصالة، أفتح باب غرفة بوسي بتؤدة ألقي نظرة عليها وهي نائمة، أقترب منها، ألمح أثار دموع على خديها لابدّ أنها نامت وهي تبكي، أتأمل الروايات والقصص المجاورة على سريرها، هوايتها الأثيرة في وحدتها القاتلة، كان أبي حريصًا في حياته أن يجعل لها عالمًا آخر تعيش فيه، فكان عالم الروايات والقصص، أقبلها على جبينها وأنسحب من الغرفة، قبل أن أغلق الباب أسمعها تقول لي: كنت أحبه، أنت تعلم!

أغلق الباب بهدوء وأسمع صوت بكائها المكتوم بالداخل، أشعر وكأن الكون كله يعاندني، منذ وفاة أبي وأنا أفقد شيئًا مهمًا في حياتي، ومع وفاة أمي شعرت أني فقدت الحياة كلها، لا أعلم لماذا غادرتنا فجأة؟ هل ملت الحياة بعده؟ يومها ذهبت لتنام في حضن بوسي، صباحًا سمعت صرخات بوسي، عندما دخلت الغرفة، رحت أهزّ جسد أمي التي كانت متشبثة به أختي وهي لا تتوقف عن الصراخ، دفعت وقتها بوسي بيدي دون قصد لتسقط عن السرير وهي تتشبث في ملابسي وأظافرها تغرز

في لحمي، لا أشعر بيدي وهي تهوي على خد أمي. أفيقي، ليس الآن، إني تسلمت عملي منذ شهرين فقط وهو عمل ليس دائمًا، أفيقي، نحتاجك، اللعنة، لماذا تذهبين هكذا؟ صوت الصفعة على وجه أمي جعل بوسي تغرز أظافرها أكثر في جلدي وتحاول أن تمد يدها لتتعلق برقبتي، لا أعلم كيف حملت أمي ونزلت جريًا على السلالم، بينما تركت بوسي في مكانها على الأرض بجوار السرير، في المستشفى قال الطبيب الشاب: من الأفضل أن تعود بها لقد ماتت، لا تنزلها من سيارة الأجرة، لا داعي لبهدلة الجسد، عد بها.

قالها الطبيب في وجهي عد بها، إلى أين أعود بها، إلى البيت، كيف ولمن؟ سائق السيارة بدأ القلق يعصف به وهو يراني ذاهلاً، حاول أن يهدئني بكلمات كثيرة لا معنى لها.

دار في مخيلتي وقتها مئات التصورات والشطحات، وفي النهاية قررت سأذهب إلى بيت خالي، سنخرج النعش من هناك، كانت السيارة تمضي ودخلنا شارع مسكن خالي، شعرت وقتها أني أقتل بوسي هذه المرة لن تغفر لي ّ ستقول أني لم أعطها الفرصة لتودع أمها، كلاّ، ستخرج أمي من بيتها، السائق أصابته الحيرة وأنا أطلب منه أن يعود مرة أخرى لطريق آخر، بل من حيث أخذني أول مرة. صعدت بأمي درجات السلم، وكأني أصعد للسماء، دخلت الشقة، كانت بوسي ما زالت في وضعها على الأرض تمسك بملاءة السرير بعنف والدموع

تغرق مقلتيها وقد راح صوتها من كثرة الصراخ، وضعت جسد أمي على السرير وأنا أمد يدي وأربت على خد بوسي قبل أن تستسلم ليدي وأنا أرفعها لأضعها بجوار أمي قائلاً: ودعيها وسأذهب لأجهز كل شيء، كلمت خالي وزوجته دقائق وسيكونان هنا.

لم أعرف بمن أتصل وقتها، بلغت صديق لي بموت أمي وموعد خروج الجنازة بعد صلاة الظهر وأبلغت الجارة التي تسكن في الدور الأول لتبلغ الآخرين، لا أعرف كيف تم الأمر إلا وباب القبر يغلق على أمي وصوت خالي يتردد في أذني مرة أخرى وكأنه صار عادة لديه أنه يكفي العزاء في المقابر عليها، أجبته بغيظ وحرقة: إني جهزت كل شيء وسوف آخذ عزاء أمي ثلاث ليال، إذا أراد الحضور ليأتي أو لا داعي لمجيئه.

أجفل خالي لردي بهذه الصورة، خرجت من المقابر أدفع كرسي بوسي المتحرك وحاولت أن أمسح دموعها بمنديلي وأربت على يدها، بينما الطريق أمام عيني متشح بالسواد.

كنت قد دست على زر إغلاق الكمبيوتر لتظهر شاشته أمامي شديدة السواد، وراح جسدي يرتجف للحظات قبل أن أذهب للفراش وأتمدد مغلقًا عينيَّ بشدة متلذذًا بالظلام.

●●●

كان قد مرّ شهر منذ وفاة أمي، حالة الفقد التي أحسستها لم أحسها في موت أبي ربما بسبب غيابه المتكرر والكثير عن البيت، كنت قد جهزت مائدة العشاء ودخلت لغرفة بوسي لأنبهها أن عليها أن تأكل، منذ وفاة أمي أحرص على أن أتواجد مع بوسي في أثناء العشاء على الأقل، كانت لا تأكل تقريبًا، بضع لقيمات صغيرة تلوكها بضعف ويبدو على وجهها أنها تبذل مجهودًا لتبلعها، أرفع العشاء عن المائدة لم يمس منه إلا القليل، الاكتئاب الذي أصاب بوسي جعلني مثلها، وكأن الاكتئاب هو الآخر مرض ينتقل بالعدوى، عندما مددت يدي لأدفع كرسي بوسي أزاحتني بيدها وهي تقول: أنها تستطيع أن تذهب لغرفتها وحدها.

آنئذ شممت تلك الرائحة الكريهة نظرت حولي، وبوسي تحاول الابتعاد بكرسيها، ما هذه الرائحة؟ من أين تأتي؟ نظرت لي بوسي بعينين بائستين وهي تقول: مر أسبوعان لم أستحم.

ودفعتُ كرسيها بعنف وسمعتُ صوتها وراء الباب باكيًا، كيف لم أنتبه لهذا؟

كانت تجلس خلف باب غرفتها، حاولت دفع الباب ولكني خفت عليها أن تسقط، سمعت صراخها من وسط نشيجها وهي تقول: إيمان بنت الجيران التي كانت تصعد لي وتساعدني منذ وفاة أمي، لم تعد تجيء حذرها أبوها من أسبوعين أن تصعد لي، صفعها، هناك

شاب يعيش مع أخته المشلولة، كيف تجرؤ على الصعود، قال لها: إن الشباب كافر.

كيف لم أنتبه؟ لقد غصت في مشاكلي الخاصة بعد وفاة أمي ونسيت بوسي تمامًا، كان يكفيني أن أجالسها وقت العشاء، أي واجب هذا نحوي لها، كيف لم ألحظ أنها لم تغير ملابسها منذ أسبوعين؟ صدمني الموقف بشدة، حاولت أن أجد حلاً، توقف عقلي عن التفكير، ما أحصل عليه من مال لا يجعل في استطاعتي أن أجيء بخادمة ترافقها، اللعنة لقد جاءني خالي منذ عشرة أيام دفع في يدي مبلغًا من المال رفضته في أول الأمر ولكنه قال: أنه حق أمي، إنه آخر دفعة لأمي لديه من نصيبها في بيت أبيها إرثها وهو هكذا يسدد ما عليه.

كان جليًّا أن خالي يتملص من كل شيء اتجاهنا وقتها، وضع المبلغ في يدي وانصرف دون أن يسأل عن بوسي.

وجدت نفسي على السلالم أهبط لأسفل، أنظر إلى أبواب الشقق وأسب الجميع بداخلي، أليس فيكم من يساعدها، أعاود شتمهم في سري حتى وصلت لباب العمارة، الهواء البارد بالخارج يصفع وجهي، أتنفس بعمق وأنا أحكم معطفي حول رقبتي، كان البركان بداخلي تتصاعد نيرانه، أشعر بحمم تسير تحت جلدي، هل أعود لأصرخ في وجهها أن تفكر، أن تتصرف، الحنق البالغ يمزقني لماذا يا أمي؟ لماذا؟

أغمض عيني وأنا أتخيل العالم من حولي طبيعيًّا، وأنه لا شيء من هذا قد حدث، سأعود للبيت لأجد أمي في انتظاري، قد أعدت لي صحيفة العشاء وغطتها على مائدة الصالة، سآكل وأذهب لغرفتي وأنا أحمل آخر ساندويتش في يدي، سأفتح الكمبيوتر، وأبعث رسالة حب لسارة، سأقول لها أني سأحطم كل القيود التي تفصلني عنها، سأعمل وأكد لنتزوج، سأرضي أباها، سيراني شابًا مكافحًا، سوف ينسى فرق الطبقات بين عائلتي وعائلتهم، سيفرح بي، لا تقلقي، سأشعل سيجارة وأنا أقول لنفسي أن الامتحان سيأتي بسيطًا، سوف أحصل على تقدير مرتفع، درجات السنوات السابقة تقول أني قد أعين معيدًا، سأحضر الماجستير، سأدرس في الجامعة، سأقول لأبي سارة أني كفؤ لابنته، بل حلم، سأقضم لقمة من الساندوتش الذي أعدته أمي، قبل نومي سأمر على غرفتها أراها نائمة هادئة، سأسمع صوت أنفاسها، وأنفاس بوسي، سأغلق التلفاز الذي تركتاه مفتوحًا في أثناء فرجتهما على المسلسل، سأعود لغرفتي لأدخن سيجارة أخرى وأنام، وأنتِ يا سارة في حضني، تحت جلدي، أتنفسك.

مرّت ثلاث ساعات تقريبًا وأنا أقطع الشوارع مشيًا، لا أعرف إلى أين تقودني قدماي، كل الطرق تتشابه عليَّ، ملعونة تلك الخطوات التي أمشيها ولا أعرف لها هدفًا، عقلي لم يتوقف لحظة عن التفكير، بوسي، أي حمل ثقيل هيأته الأقدار لي، أشعر بالهواء البارد يلسع

وجهي، داخلي مشتعل، الشوارع تمضي أم أنا الذي أمضي بداخلها، أبتلع ريقي أجد حلقي جافًا، أمرر عيني على الشارع الذي أنا فيه، أقرأ اللافتات المضيئة على المحلات، مقهى عماله يسحبون الكراسي من على الرصيف ليدخلوها لداخل المقهى في عجلة من أمرهم. أتوقف لثوان أتأمل فعلهم قبل أن أشعر بالسبب عندما راحت السماء تسكب ماءها فوقي، شلال لا يتوقف، شعرتُ فجأة بالخوف على بوسي، وجدت نفسي أقطع الشوارع جريًا، شارعًا يقودني لآخر، الشوارع لا تنتهي وأنا أواصل الجري، والمطر ينهمر بغشومة على رأسي، ملابسي كلها ابتلت، وجدت نفسي أعطس عدة مرات وأنا أجري، لا أريد التوقف للحظة، الأضواء من حولي تتراقص أمام عينيّ، والطريق إلى شقتنا شعرت أنه يمتد لما لا نهاية، أخيرًا وجدت نفسي أمام باب العمارة، صعدت السلالم جريًا. فتحت الباب واتجهت إلى غرفة بوسي، لم أجد لها أثرًا، رحت أنادي عليها وأنا أخرج من غرفتها، تأملت الصالة، لمحت باب الشرفة مواربًا، دفعته ودخلت، لم يتوقف المطر بعد، وجدتُ بوسي جالسة على الأرض في بركة مياه صغيرة وبجوارها كرسيها المتحرك بينما ترفع يدها لأعلى وهي تنظر للسماء بينما غرقت ملابسها بالكامل بماء المطر الذي ما زال متواصلاً وتجهش بالبكاء، أدرتُ وجهها لي بيدي وجلستُ بجوارها على الأرض وأنا أحتضن وجهها بين يدي وهي تهمس من وسط دموعها: لقد استحممت بماء المطر.))

قرأت الفصل ولم يعجبني، ما كل هذا الفقر والبؤس الذي وضعت فيه البطل، لماذا أنا مغرم بالأبطال الفقراء، ما أسهل أن أكتب عن شاب غني لا ينغص حياته سوى بعد حبيبته عنه! لماذا ألجأ لأبطال شوهتهم السنين وأتعبتهم؟! أظن أني أحمل جزءًا من بؤس اشتراكية عبد الناصر، لا، لا سياسة، ولا تاريخ، لأعبث ما دام الوقت يسمح بالعبث، قررت أن أغلق جهاز الحاسب المحمول، وأعد لنفسي كوبًا من الشاي وأجلس لأستمتع بمشاهدة فيلم، لن أنغص حياتي أكثر من هذا، حتى تلك الرواية التي أعيد تجهيزها لمنال سأحاول أن أجعل أبطالها متفائلين، في طريقهم للسعادة، هيهات بالطبع فأنا أعرف نفسي، وأعرف أني مهما حاولت ستكون الرواية مليئة بالشخصيات الدرامية شديدة البؤس.

عندما كنت أضع الشاي على النار جاءني تليفون من فريد العطار مرة أخرى، كان يريد أن يتسلى ويملأ فراغ وقته هو الآخر فراح يرغي في اللاشيء مع توكيد أنه في أية لحظة سيجلب عنوان الشناوي لي، ويدعوني للغداء معه، لا مانع لأقفل هذا الباب لو استطعت هو الآخر، وافقت على دعوة الغداء، وقلت أني سأتصل به بمجرد نزولي للشارع، أظن أنه فرح بردي هو الآخر، قرار غريب أن أجعل من الجميع سعداء اليوم، ولما لا؟!

●●●

(٩)

وجدت هبة فوق رأسي وأنا أغلق اللاب توب، طبيعي لم أسألها كيف دخلت ولِمَ لمْ أشعر بدخولها؟! وبالطبع لن أسألها أين كانت؟

كانت تبدو غاضبة ومتنمرة كعادتها، تطلعت لي وقالت بهدوء غريب وعيناها مليئتان بالغضب أأكلت؟ هززت رأسي بنعم، فقالت وهي تتأملني لثوان قبل أن تتحرك في اتجاه المطبخ، لمحت عدة أكياس في يديها، لا رغبة لي في مشاكستها الآن أو معرفة أي شيء، وجدت نفسي أتحرك بعد هنيهة في اتجاه المطبخ، كانت ترص أشياء على الرخامة، وراحت تقطع الطماطم بطريقة غريبة بها بعض الحدة، السكينة بين يديها تنهال بها على ثمرة الطماطم وكأنها تنفس غيظها بها فلا تكاد ترى يديها وهي صاعدة هابطة على الطماطم، اقتربتُ منها، لاحظتْ وجودي ولم تهتم وهي تضع طاسة على نار البوتجاز وتشعله، وصبتْ قليلاً من الزيت قبل أن تضع الطماطم وتبدأ في تقليبها في الطاسة، ظللت في مكاني أتأملها وملامحي محايدة قدر الاستطاعة، قالت بعد لحظات: «ابن الكلب، ابن الكلب فاكرني منهم».

صمتُ ولم أرد فلم تحكِ شيئًا وراحت تستخرج حبات بطاطس من إحدى الأكياس وتبدأ في تقشيرها بالسكينة، نظرت لي وأنا أتابعها صامتًا قبل أن تهمس بصوت بدا أكثر هدوءًا: «ستأكل من إيدي النهاردة».

ابتسمت لها وتراجعت إلى الوراء خطوة؛ لأفسح لها الطريق تجاه الثلاجة، أخرجتْ من الثلاجة زجاجة مياه وراحت تشرب منها مباشرة قبل أن تقذفها إلى الحوض بعنف وهي تصرخ: «حيوان، كلب زي كل الكلاب، عشان يمشي المسرحية تتعرض في القاهرة والمهرجانات عايزني أفتح رجلي ليه، هو فاكرني إيه ابن الكلاب ده».

تنحنحت وبلعت ريقي وأنا أسألها بصوت غير واضح: « مَنْ؟ مَنْ؟». نظرت لي وكأنها تنظر لشخص غبي وأن سؤالي لا معنى له: «الحيوان، مدير المهرجانات. حيوان».

هجمتْ على البوتجاز وأمسكتِ الطاسة بعنف، تراجعتُ إلى الخلف ظانًا بأن جنونها سيجعلها تقذف الطاسة بالزيت في وجهي، ولكنها رمتِ الطاسة في الحوض، ورجعتْ لتستند بجسدها على الثلاجة قبل أن تنهار على الأرض حاضنة قدميها، وارتفع نشيجها، وعلا صوت بكائها.

وجدت نفسي مدفوعًا لثني قدمي والجلوس في مقابلها واحتضنتها، راحت تزيح يدي لثوان وأنا أقترب منها حاضنًا إياها، قبل أن ترتمي في صدري وتبكي بشدة وترتجف في حضني، لا أعرف متى كانت شفتاها بين شفتي، ومتى خلعنا ملابسنا لنمارس الحب، لكنها كانت تفترش وقتها أرضية المطبخ وأنا أعتليها وأمسك جسدها

بشدة، كانت تتأوه كلبؤة، وترتفع تأوهاتها وأنا أضاجعها بقوة وكأنني مساق خلف شيء لا أعرفه، طعمها كل مرة متغير وكأنها تغير جلدها، كانت تبكي وتتأوه وتضحك وهي تلف ساقيها حول ظهري وتطلب المزيد، لم أبخل عليها، حلقت معها، كانت كل فترة ومن بين تأوهاتها تشتم مدير المهرجان وهي تتمتم صارخة: «دا عايز يـ...»، بداخلي كنت في عالم آخر، كنت حقًا منتعشًا بما أفعله، لم أتوقف، مارسنا الحب لثلاث مرات، لم أشعر بالتعب كنت في عالم مسحور تفتحه هبة على مصرعيه أمامي، لِمَ يا هبة لمْ توافقي؟

كانت قد شعرتْ بالارتواء الكامل عندما انتهينا، اختفت دموعها، وراحتْ تضحك كطفلة صغيرة دخلتِ الملاهي لأول مرة مقررة أن تلعب كل الألعاب. كان تليفوني قد رن عدة مرات وأنا أضاجع هبة، ولكن ليذهب المتصل إلى الجحيم، ارتميت بجانبها عاريًا على أرضية المطبخ، فراحت تتشمم جسدي كقطة، وتداعب صدري بيدها، ورمت رأسها على صدري وهي تقبل رقبتي هامسة: «هأكلك النهاردة اللي عمرك ما كلته». انطلقت ضحكتي عالية وأنا أقول: «تاني».

رحنا نتداعب لوهلة، قبل أن تقف فجأة هي قائلة: «ياللا اطلع من المطبخ، خد دش وغير هدومك واشتغل شوية عقبال ما الأكل يخلص».

قبلت رأسها وداعبتُ شعرها وأنا أهمس في أذنها: «طب ما تيجي ناخد الدش سوا «. هزت رأسها بلا وهي تدفعني تجاه باب الحمام وتغلقه عليَّ، بعد ثوان وجدت يدها تمتد بفوطة لي، ولم أجد مفرًا من تنفيذ الأمر، فهي اليوم في حالة جنونية خاصة، فلا داعي لأرمي نفسي أمامها وإلاّ أكون منتحرًا.

الماء ينساب وصوت ضحكتها يأتيني من خلف الباب وكل فترة أسمعها تشتم. ابن الكلب، ولا أعرف أي كلب تقصده تحديدًا في تلك اللحظة.

انتهيت من الحمام، وسمعتها وهي تدخل الحمام بعد خروجي بفترة، ارتديت ملابسي وجلست في الصالة، فتحت اللاب توب ودخلت على حسابي في الفيسبوك، تابعت منشورات الآخرين، كنت أسمع صوتها خلفي وهي تتحرك جيئة وذهابًا في الشقة ما بين المطبخ وغرفة النوم، نظرت لتليفوني لأرى من اتصل كانت هناك مكالمة من سعيد، ومكالمتين من رباب ولم أرد على أيٍّ منهما. شغلت نفسي في صفحات الفيسبوك ورحت أعلق هنا وهناك تمضية للوقت. بعد فترة بدت طويلة، وجدت هبة خلفي وهي تقول: «شيل اللاب بعيد شوية وجهز نفسك للأكل». بعد دقائق كانت مائدة الطعام أمامي عامرة بما لذ وطاب كما يقولون، ورحنا نتناول طعامنا في هدوء لوهلة، سألتني هبة عن رأيي في الأكل أجبتها أنه مذهل وممتع، أرضى ردي

غرورها وشعرت أنها زادت انتشاء. أخذت تحكي لي ما فعلته مع مدير المهرجانات وكيف أن الفرقة خلصته من يديها بصعوبة وأنها هجمت عليه وعضته في يده وهو راح يحاول إزاحتها وأسنانها تقبض على يده لدرجة أنها ظنت أنها ستخلع لحمه بأسنانها، ولولا الفرقة موجودة ربما تطور الأمر لجره إلى القسم أو كانت قتلته، ابتسمتُ وأنا أواصل الأكل، وبعد هنيهة كنتُ أقهقه من الضحك وأنا أتصور الفرقة تحاول تخليص يد مدير المهرجانات من بين يديها وفك أسنانها عن يده، وراحت هي تضحك بالمثل.

كنت قد قررت أن أجعل يومها سعيدًا وأنفذ كل ما ترغبه في تلك اللحظة، سأترك نفسي لها، وهي ترفع الأطباق بعد انتهائنا من الأكل، سألتني من الذي كان يتصل ونحن معًا في المطبخ وكأنها تسأل بطريقة عابرة، قلت لها عن سعيد صديقي الكاتب السكندري، وبعد ثوان من ذهابها للمطبخ ورجوعها لتحمل باقي الأطباق قلت لها عن رباب، وضعت الأطباق جانبًا وتطلعت لي بفضول أنثوي وهي تسألني من رباب؟ وجدت نفسي مدفوعًا لعدم الكذب، ورحت أقص عليها كل ما بيني وبين داليا في السابق وما حدث عندما جعلتها ترد وهي نائمة على تليفون من داليا لي، واتسعت عيناها لوهلة وقالت إني قاس ومجنون، وأنها تتعاطف مع داليا، وفي نفس الوقت لمحت لوهلة الغيرة تطل من عينيها الواسعتين، ولكنها عادت لتحمل المتبقي من

الأطباق وتذهب للمطبخ، غابت في المطبخ قليلاً، قلت لنفسي هانت ثوان وستأتي لتقتلني لتنهي يومها بسعادة. خرجت من المطبخ بعد فترة وجلست قبالتي وهي تقول: هل تريد أن تتخلص من داليا حقًا؟ أم تضعها احتياطيًا لوقت آخر.

أجبتها بهدوء من تظنين! إني لست زير نساء، ضحكت في خبث وهي تقول:

- كل هذا ولست زير نساء، تتبقى لك جارية واحدة وتصبح شهريار.

في النهاية قالت لي خطتها التي جهزتها في أثناء غيابها في المطبخ، وراحت تُخرج خطتها أمامي وكأنها تجهز مسرحية جديدة، ستحضر معي المقابلة وستصدم داليا بأني وهي متزوجين عرفيًا منذ فترة طويلة لمشاكل لديها في العائلة، وأني أبدًا لم أخبر داليا أني أحبها، وعلى داليا أن تبتعد وإلاّ حدث ما لا يحمد عقباه منها، فهي أنثى غيورة شرسة ولا تترك حقها، وراحت تعيد صياغة الحوار أكثر من مرة، وتسألني رأيي فيه وهل تجيد التأليف كما تجيد الإخراج؟ لم أرد أن أخبرها أنها تجيد التأليف والتخطيط وهل هناك أروع من إخراجها لخبر موتها وتسريبه لمحمود صديقها القديم واختفاؤها، أي تأليف أروع من هذا؟

في النهاية وافقت على خطتها فلا شيء أخسره، ورحنا نعد مسرح الجريمة سويًا، ماذا سترتدي؟ كيف سيكون شكلها ومكياجها؟ وهل تضع طلاء أظافر جديد أسود اللون؟ رفضت اللون الأسود، وقلت لتجعله ورديًا أو أحمر، واستقرينا على اللون الأحمر.

كانت قد جاءت من قبل بعدة أثواب لها، فأخذت تريني إياها تباعًا حتى استقرينا على بنطلون أسود وبلوزة رقيقة تجعلها تبدو فتاة قوية وتبرز فتنتها، حقيقة الأمر أن فتنة هبة كانت طاغية في تلك اللحظة، ولو خرجت للشارع بجلباب فلاحي لجرى خلفها الكثيرون.

وقفت في النهاية أمام المرآة تتأمل تفاصيلها، كنت أتابع مع تفعله بشغف، جانب آخر من هبة لم يظهر لي من قبل، جانب شعرت معها وقتها أن ما تحمله لي ربما كان حقيقيًا.

رحت ألملم الأوراق المبعثرة، وأغلقت صفحتي على الفيس لمحت قبل إغلاقها رسالة من شخص ما، لم أنتبه من هو ولم أهتم، ربما عدت إليه في وقت آخر. انشغالي الكامل كان بهبة التي أخذت تتحرك جيئة وذهابًا وكأنها تعد نفسها لمعركة حربية، في النهاية كنا نهبط السلالم سويًا ويدانا متشابكتان، وكأنها من تلك اللحظة تعلن للعالم أني أخصها، أو ربما كان اندماجًا منها أكثر من اللازم. لم أكن أرى أن أمر داليا يستحق كل هذا، قراري بأن أجعل يوم هبة سعيدًا هو ما أسكتني حتى هذه اللحظة، وربما كنت راضيًا حقًا.

الساعة السادسة والنصف تقريبًا، موعدي مع رباب في السابعة، العنوان ليس ببعيد، دخلنا المكان قبل وصول داليا ورباب بدقائق، أخذنا ركنًا منزويًا وجلست أنا وهبة، كنت متحفظًا بعض الشيء، وقلت لنفسي إن هذا الركن القصي من المكان ربما يعفينا من بعض الحرج الذي ربما حدث.

في السابعة بالضبط كانت رباب وداليا تدلفان إلى داخل المكان، فتاتان متأنقتان متفجرتان بالأنوثة، لمحت رباب تفتش بعينيها بين الموائد، أشرت لها بيدي لمكاني، لوهلة ربما لمحتُ نظرة من التردد في حركاتها عندما لمحتْ هبة جالسة كملكة متوجة في خيلاء.

بدت خطوات داليا مرتبكة وهي تقترب من المائدة، بينما يدها مستكينة في يد رباب، ثلاث فتيات لا فرق بينهن في العمر كثيرًا، متأنقات في أزيائهن، يجالسن رجلاً واحدًا أمر لافت للنظر بشدة، ربما لأقل من دقيقة تطلعت العيون للمائدة والفتاتان تقتربان منها، قبل أن يعود كل زبون إلى حالته الأولى قبل دخول الفتاتين، لم تنطق داليا بكلمة وهي تمد يدها بالسلام، وأنا أعرفها على هبة بالاسم فقط، لست في حاجة لبدء الجولة مبكرًا، وقد وكلت هبة بكل شيء في المعركة، عليَّ فقط أن أكون المشاهد، وبرغم أن الأمر بدا لي طفوليًا، آثرت الالتزام بالخطة، السؤال الذي كان سيأتي ميعاده أتى مبكرًا بمجرد أن أنصرف النادل بعد أن وضع ما طلبته من مشروبات على

المائدة، ولمحت في عينيه تلك النظرة وكأنه يصرخ بعينيه في وجهي يا ابن المحظوظة، آه لو يدري الدائر في نفوسنا في تلك اللحظة، جاء السؤال من ناحية هبة كهجوم ضاغط في وجه رباب الشاحب، التي علمت أنها خسرت المعركة بمجرد أن رأت هبة، ومؤكد أنها عقدت المقارنة بينهما؛ لذا لم يمر وقت حتى كان وجه داليا يزداد شحوبًا وهبة تسألها في عنف عما تريده مني، واماذا ترمي بنفسها في أحضاني رغم رفضي هذا؟ حاولت رباب أن تدافع عن زميلتها، ولكن نظرات هبة ولسانها اللاذع أسكتها، من الجليّ أن هبة تقود المعركة جيدًّا، بل ومن الدهاء أن أقول أني أنا نفسي شككت أن يكون هناك عقد عرفي بالفعل بيني وبين هبة، جاء انسحاب داليا ورباب متأخرًا قليلاً ربما لآن داليا في تلك اللحظة لم تكن تستطيع الوقوف على قدميها اللتين بدتا مرتخيتين ومتشابكتين وهي تقوم بمغادرة المكان، كانت نظرة رباب لي نظرة غريبة، وربما سمعتها تهمس وهي تغادر المكان «الحقيرا»، لم أعرف لماذا شعرت بعد انصراف داليا ورباب أني فعلت شيئًا خاطئًا، ومؤكد أن هبة ربما لاحظت ذلك، لأنه بعد عشر دقائق تقريبًا من مغادرة الفتاتين، قامت وهي تقول: ياللا أعزمك على سينما.

رفضت هبة أن أدفع فاتورة الحساب وقالت أنها كانت مخرجة العمل الليلة لذا فهي تتحمل تكاليف العرض، ضحكتُ رغمًا عني،

وخرجنا من المكان بصورة مغايرة عن صورة دخولنا إليه، فقد كانت ملامحنا توحي بالعبوس.

كان الجو رائقًا، ونسيم من البرودة اللذيذة يداعب وجهينا، ارتفع رنين هاتفي في أثناء سيرنا، قطع الرنين الصمت بيننا فنظرت لي، نظرت لرقم المتصل كان فريد العطار وقلت أنه صديق، لم أرد وهزت رأسها، ربما ظنت لهنيهة أن المتصل قد يكون داليا، تلقيت رسالة وهبة تقطع تذاكر السينما وتختار أماكننا، كانت من كلمة واحدة ومن تليفون رباب: «حقير!». ابتسمت وأنا أغلق الهاتف وأضعه في جيبي.

ساعتان تقريبًا والفيلم يدور على الشاشة وأنا لا أتابعه، حاولت أكثر من مرة الانتباه للفيلم، ولكني ضبطت نفسي أكثر من مرة شاردًا في أشياء غير محددة. شارد من أجل الشرود نفسه، لاحظت هبة حالتي وربما أرجعت الأمر لنوع من تأنيب الضمير لدي تجاه فعلتنا ناحية داليا ولاذتْ بالصمت مثلي.

عند خروجنا من السينما وجدت هبة تقول أنها لن ترجع معي للشقة فأمامها أشياء مهمة كانت تؤجلها وعليها أن تنتهي منها اليوم وليس غدًا، هززت رأسي متفهمًا وهي تحييني وتبتعد، وجدتُ نفسي في النهاية وحيدًا في الشارع بينما يمر من جانبي آخر المغادرين للمكان وانتبهت لطول وقوفي، ربما مرت عشر دقائق وأنا في مكاني لم أتحرك خطوة منذ تركتني هبة.

أعدت تشغيل الهاتف فجاءت لي رسالة أن فريد العطار حاول الاتصال بي أكثر من مرة، ما الذي يريده العطار في ليلته هذه؟

اتصلت به فجاء صوته رخيمًا وهو يسألني: أين كنت؟ وأنه يحاول أن يكلمني من فترة، قلت له أني كنت في حفلة سينما، فقال وهو يقاطعني أنه وجد أخيرًا عنوان مراد الشناوي الذي أبحث عنه، فطلبت منه أن يمليه لي في التليفون، لكنه أصر أن أجيء له في المقهى لأنه يرغب في السهر معي قليلاً، وقال أن سهري معه اليوم سيعتبره مكافأة حصوله على العنوان، حاولت التهرب والتحجج بالتعب وفشلت أن أكسر إصراره على ذهابي له، في النهاية قلت أني لن أتأخر وسأكون في الطريق إليه، لا أعرف لماذا ضرب الخوف صدري وأنا أفكر فيما يجب عليَّ عمله بعد حصولي على عنوان مراد الشناوي، وما الخطة الآن؟ لا أعرف لماذا في تلك اللحظة تذكرت هبة مرة أخرى وأردتها بجانبي ربما طمعًا في أن تخرج لي هذا الموقف أيضًا.

الطريق للعطار لم يكن طويلاً، حاسبت سائق التاكسي ولم أهتم أن آخذ منه الباقي، دخلت للمقهى وجدت العطار منغمسًا بالكامل في دور طاولة مع صديق له، بمجرد أن رآني أغلق الطاولة وسط غضب صديقه وهو يقوم ليسحب كرسي لي لأقعد، جلست وهو يطبطب على ساقي ويسألني ماذا أشرب؟ قلت: أي شيء.

ولم تمر دقائق كان هو يعاكس فيها زميله حتى وجدت القهوة التي لم أطلبها أمامي، وقال العطار قهوة كي تركز، وأخرج بعدها ورقة من جيبه بها عنوان رحت أقرؤه عدة مرات وأحاول حفظه بذاكرتي.

ساعة ونصف تقريبًا جلستها في المقهى مع العطار وعندما هممت بالانصراف قال أنه يحب أن يراني مرة أخرى ولا يكون الأمر كالمثل الشعبي «خلصت حاجتي من عند جارتي»، وعدته أني بعدما أنتهي من مقابلة مراد الشناوي سأجد وقتًا كافيًا لأجلس معه كي يحدثني عن قصته التي يرغب في أن أسمعها منه.

هزّ رأسه وقال: أنه يتمنى هذا قبل أن يمر الوقت.

لم أعرف لماذا وجدت جملته حزينة، وشعرت من نبرة صوته أنه يخفي شيئًا أكبر عني، لائذًا بالصمت وأنا أغادر المكان، بينما كان عقلي يلتهب في التفكير. وصورة نجوان تعود لتضرب مخيلتي بقوة بل وتستقر داخل روحي وشعور داخلي أن رحلتي مع نجوان لم تبدأ بعد.

●●●

obeikandi.com

(١٠)

الراحة، الشعور بالراحة، وكأني أبحث عن شخص آخر بداخلي، وكأن روحي نفسها قد ضلت الطريق لتسكن في جسد آخر.

طوال اليوم ومنذ عودتي أمس وحدي للبيت بعد لقائي مع فريد العطار، وأنا أرسم حدودًا لنفسي بحثًا عن الراحة، شعرت لفترة بجفاء لنفسي وكأني لا أعرفها، بل أكره وجودها يقولون أن الأرواح تتقابل فهل تقابلت روحي معي في يوم ما أم ما زالت روحي حائرة تنتقل من جسد لآخر؟

أسئلة حمقاء وإجابات أشد حماقة.

كل ما في الأمر أني أريد أن أشعر بأني حر في اختياراتي وأني أمتلك حق الفلسفة والعمق، بينما بداخلي أحس بالضحالة.

كل أفكاري ضحلة وبلا هدف، كل ما أراه في عيون الآخرين من حماس لي مجرد عبث، لمحات تعاطف غبية أو هكذا يتخيلون.

اتصلت بمنال أمس أخبرتها أن كل شيء يسير على ما يرام وفي القريب سوف أسلمها الرواية، لكني أترجاها أن تعطيني فسحة من الوقت كما يقول الأدباء. قالت أنها مستعدة لذلك لو خضعت لشروطها وتنازلت قليلاً وكسرت كبريائي أمام رأيها في تغيير بعض

شخصيات الرواية أو بالأصح تغيير نهايتهم، كنت في تلك اللحظة مستعدًا لأفعل أي شيء لأظل في الإسكندرية مدة أطول وبالذات هنا، داخل تلك الشقة، ففجأة بدأت أشعر بالألفة بيني وبين المكان، ربما كان لهبة الأثر الأكبر في ذلك، ليس من السهل أن تنسى مكانًا شاهد مواقع مضاجعتك لأنثى، فما بالك بأنثى متفجرة كهبة، حتى تفكيري في نجوان وبحثي عن أبيها بدأ من هنا، حميمية الأشياء نكتسبها بمضي الوقت الذي نقضيه فيها أو بجوارها، أصبحت مدينًا لمنال دون أن أدري، شعرتْ هي بالفعل أني على استعداد للمناقشة، ثلاث ساعات مهدرة من الكلام الذي لا معنى له ومن آرائها الخائبة في فن الرواية وكتاباتها، ولكني واصلت الحديث حتى وقفنا عن النقطة التي أريدها، سأنتهي وقتما أريد الانتهاء بشرط ألاّ تزيد المدة عن ثلاث شهور، مرّ شهر وبقي اثنان، وأن يزيد حجم الرواية لتبلغ خمسمائة صفحة أو تزيد فهي ليست أقل من علاء الأسواني وليست أقل من أدباء هذه الأيام الذين يفرشون رواياتها بالفراغ لتتعدى الخمسمائة صفحة، وعدتها أن أكون طويل النفس في الحكي وأزيد بعض العبث المطلوب حتى نصل لما ترضاه، أرسلت لي رواية حديثه كنموذج لما ترغبه وقالت أن صاحبها قد رشح بالفعل لجائزة كبرى، قرأت خمسين صفحة تقريبًا من الرواية التي أرسلتها وأغلقتها وأنا غير راض، أشعر أن كل شيء في الحياة حتى الكتابة بدأ يسير إلى الرداءة

وكأن هناك جهة مسئولة تسعى بيننا لكي نعطي للرديء وجودًا صحيًا ليصبح هو الجيد بعد هذا في عيون الجميع حتى متذوقي الأدب القدماء، الراحة، كل ما يحدث لي حتى الآن هو رحلة بحث عني، اكتشافاتي طوال الوقت أني من البداية أبحث عني، بحثي عن نجوان هو بحث عني أنا وليس هي، بل أشعر بأني كلما أتذكر صورتها الآن ألمح نفسي بداخلها، أرى من المدهش أن تكون لوحتي مرسومة تحت لوحتها وأنه يكفي بعض الكشط لتظهر صورتي للعيان، كلاّ؛ لأترك نفسي على راحتها لأبحث عن شيء يضيع باقي ساعات الليل، أنهيت محادثتي من منال وأنهيت قراءة أجزاء من روايتي ومللت، شعرت بالملل من روايتي نفسها، أفتقد هبة لابدّ أن أكون صريحًا أمام نفسي حتى أنجح، رحت أقنع نفسي بهذا وأنا أكتب بعض الأشياء في ورقة بجوار الحاسب المحمول، حاولت أن أنظم تفكيري، لكن عقلي طوال الوقت أخذ يسحبني لمناطق لا أريدها الآن، لماذا بدا لي كلام فريد العطار وكأنه يودعني ولن يراني مرة أخرى.

سمعت صوتًا يدل على وصول رسالة جديدة لي، كانت فتاة قد أضافتني منذ فترة ولم نتحدث؛ لأملأ بعض الوقت بالحديث معها، بعد التعارف الصغير المعتاد في حوارات الفيسبوك، وجدت نفسي أسألها من أين هي؟ قالت أنها من المغرب. حاولت أن أتذكر أي شيء عن المغرب فوجدت عقلي قد شل لدرجة أني لم أتذكر رئيسها

وهل هي جمهورية أم ملكية؟! اللعنة الإجهاد أكل خلايا مخي، وقريبًا يضرب الزهايمر ضربته، في الأربعين من العمر والزهايمر يسيطر عليَّ؟!. فيما بعد سوف أتذكر اسمي مصادفة، سألتها ماذا تدرس؟ قالت أن أباها منعها من الدراسة وهي حاليًا تجلس في البيت لا تذهب إلى جامعة، سألتها بفضول: هل هذا ممكن هذه الأيام أن أب يمنع ابنته من الدراسة؟ قالت إن الأمر بخلاف أن أباها يخاف عليها أن الجامعة بعيدة جدًا وتكاليفها عالية، وهي أيضًا ربما كسولة، أنهيت المحادثة معها بغتة وكأن اتصال الإنترنت قطع، لا أريد حديثًا مع فتاة نصف عمري أو أقل، فهي لن تكون أكبر من السابعة عشرة، وشعرت أن هذا الحديث قد يكون تم بيننا من قبل في حالة من الديجافو يجوز أصابتني. المهم أن الحديث معها الآن بحالتي النفسية هذه قد ينعكس عليها ويصيبها بالإحباط، بل ربما آرائي نفسها قد تدعوها للانتحار الآن، ضحكت من نفسي ومن تلك الأهمية المزعومة التي أحاول أن أكسبها لشخصيتي، «أنت أهيف من هذا». رحت أخبر نفسي بهذا وأنا أفتش في الثلاجة عن زجاجة بيرة قد نسيت شربها من قبل، لم أجد في البداية ولكني وجدت في النهاية على رخامة المطبخ زجاجتين لنصفهما تقريبًا، البيرة ساخنة، أفضل! يقولون أن البيرة الساخنة أسرع بالوصول بك لحالة السكر، وبرغم أني كنت شبه سكران بنفسي وعقلي وحديثي الذي لم ينقطع بعد مع روحي،

لكني كنت محتاجًا لأن أغيب لفترة عن العقل، أو يغيب العقل عني، لا أعرف لماذا راح يلح محمود خطاب على ذهني في تلك اللحظة؟ بل أشعر وكأن هناك شخصًا داخل رأسي ينادي باسمه، هل أرسل له رسالة؟ ولكن ماذا سأكتب فيها؟ ما الذي قد أقوله لمحمود خطاب الآن؟

إن هبة سالم لا تزال حية ترزق وأنه قفل، ضحكتْ عليه، حتى لو قلت هذا ما الفائدة؟ هل العبث بالآخرين مرض ينتقل بالعدوى نقلته لي هبة؟ فأريد تعذيب محمود وتجربة الأمر عليه.

كلاّ سأشرب البيرة وأنام هكذا حدثت نفسي.

لا داعي لاختلاق مشكلة ليس لها وجود، إذ كان مهمًا لي أن يعرف محمود أمر هبة معي فليس الآن على الأقل.

فهبة لم تبخل عليَّ بأي شيء للآن.

بل إن وجودها معي نفسه يثيرني ويجعلني أفكر لماذا؟

لماذا أنا بالذات يا هبة؟!

●●●

دومًا أبحث عن منتصف المسافات، لا أريد أن أقف في أول الطابور ولا في آخره، يهمني أن أكون في المنتصف، حيث تكون مختفيًا تقريبًا وسط الحشود وبعيدًا عن عيون الآخرين، ربما لهذا السبب وافقت أن أمنح روايتي لمنال، فمنال في أول الطابور وحولها الكثير من الحمقى، نظرة منها لهم تحول يومهم من حال إلى حال، أتمنى للحظة أن أقف فوق رأسها وأن أدب أصابعي لتنغرس في فروة رأسها، وأنزع قشرة المخ لأرى فيما تفكر.

أحيانًا أشعر أن منال تخيفني شخصيًا عندما تحدق في بعينيها اللتين لتلك اللحظة لم أستطع أن أحدد لونهما، أحيانًا أرى فيهما كل ألوان قوس قزح، منال قد تظهر في البداية لي كشيء مفضوح، ولكن لهنيهة تفكير تدرك أنك أمام فتاة غير عادية.

لا أريد الحديث عن منال في تلك اللحظة ولا يهمني فيما تفكر، فلقد وافقت وانتهى الأمر بيننا على اتفاق به شبه إرضاء لي.

كل ما يشغلني الآن أن أذهب لمقابلة مراد الشناوي.

بدأت في ترتيب أفكاري ومحاولة الوصول إلى طريقة تجعل مقابلتي له مصادفة.

لن أقول له عن رحلة بحثي الطويلة عنه، سيظن فيَّ الحمق والجنون.

سأذهب إلى العنوان وأنتظر خروجه ومن بعيد سوف أتبعه، وربما يذهب للصيد فيراني بجانبه ويأتي صيده وفيرًا فنذهب سويًا للغداء كالمرة السابقة.

أتت دقات الباب سريعة وعنيفة كنت في تلك اللحظة على وشك الانتهاء من ارتداء ملابسي، من الذي يطرق بابي بهذا العنف في تلك اللحظة؟

اتجهت للباب وأنا أكمل ارتدائي للجاكت، فتحت الباب فدفعتني بيدها ودخلت، تطلعت لها متسائلاً عن سبب كل هذا الطرق، ارتمت على الكنبة في أول الصالة وأجهشت بالبكاء، لم أر دموع هبة من قبل بهذه الصورة، والأرجح أني لم أر دموعها قطّ، تساءلتُ في حيرة عن سبب بكائها، رفعتْ إليّ عينيها الغارقتين بالدموع قبل أن تقول في صوت أتعبه البكاء، أنت السبب، أنا؟!

ازداد عجبي وأنا أواصل التحديق في عينيها لتكمل، وجدتها تمسك يدي فجأة بعنف وتقبض عليها وهي تقول أن ما فعلته أمس معي من تمثيل على داليا وصديقتها رباب لا يجعلها تنام، إنها تعرف حقًا مشاعر الأنثى التي تصدم في حبها، وأنها منذ الأمس وتشعر بأن هناك نيران تأكل جوفها وقلبها، لم تستطع النوم أو العمل، إني قاتل! هكذا راحت تعدد لي أوصافًا جديدة أقلها أن أكون قاتلاً.

حاولتُ قدر استطاعتي احتواء غضبها ولكنها كانت مستمرة فيه، انطلق الغضب من وجهي وأنا أقول لها أني لم أظلم داليا، وأن داليا هي من ظلمت نفسها، هي من أنشأت علاقة في الفراغ من مخيلتها، ورسمت حدودًا لعلاقة ليس لها وجود، الأمر أبسط من أن يزعجها هكذا، فداليا لم تكن أبدًا جزءًا من حياتي أو على الهامش حتى، هي علاقة سطحية تحولت في خيالها إلى حب وهمي، وما فعلته هبة معي أمام داليا مجرد صفعة بسيطة لتفيق داليا وتعود لحياتها، زوجها يريد أن يردها لعصمته مرة أخرى، وأنا لست في حمل تحمل مسئولية أحد، إني أتحمل مسئولية أنا كشخص مضطرًا، بل طوال الوقت أبحث عن من يحمل مسئوليتي فكيف تظن أني قادر على أخذها من زوجها وربط حياتي بها، داليا مجنونة، وأنتِ يا هبة مجنونة أيضًا، بدأتْ تتفرس ملامحي وكأنها تراني لأول مرة. قبل أن تمسح دموعها بيدها وتنظر لي نظرة أخيرة لم أفهم معناها قبل أن تقف وتقول ببساطة: طيب، بدأت تتحرك في اتجاه المطبخ فتطلعت إليها متسائلاً: إلى أين؟

أجابتني ببساطة وهدوء وبصوت خال من البكاء وكأنها لم تبكِ حقًا: سأبحث عن شيء أشربه إني عطشى.

عادت أدراجها قبل أن تصل للمطبخ وراحت تتأملني من فوق لتحت ومصمصت شفتيها ثم قالت: ما هذا التأنق، أكنت خارجًا؟

ابتسمت وأنا أتأمل ملابسي قبل أن أقول في همس: لا أظنك تغيرين عليَّ.

انطلقتْ ضحكتها عالية فجأة وراحت تتأملني مرة أخرى بعينين متسعتين متألقتين غسلتهما دموعها، ثم أطلقتْ تنهيدة بسيطة وألقت نظرة عليَّ وكأنها تقول «اتئيل» ثم اتجهت للمطبخ وكأن شيئًا لم يكن.

اختفتْ عن عيني فرفعتُ صوتي وأنا أفتح باب الشقة وأقول لها إني نازل، لم أتلق ردًا منها فغادرت الشقة.

ابتسمتُ بداخلي وأنا أهبط سلالم العمارة، ما هذه التمثلية التي قامت بأدائها هبة أمامي الآن؟! هل حقًا شعرت بتأنيب الضمير تجاه داليا، لم يبد عليها شيء من هذا الضمير عندما كنا نعد مشهدها التمثيلي لتقوم به أمام داليا، يا للنساء لا أحد يستطيع فهمهن مهما حاول!

سيل من الأفكار لا يتوقف، أحاول أن أطرد الأفكار خارج عقلي ولكنها تعود بقوة أكبر لتضرب كل خلاياه، فتشت جيبي وأخرجت النوتة الصغيرة التي أصبحت أستعين بها في كتابة العناوين وأي شيء مهم يطرأ على عقلي فجأة. أطلقتُ تنهيدة قوية وأنا أدلف إلى عربة أجرة، تأملني السائق ففتحت النوتة على عنوان مراد الشناوي وأمليته على السائق، فهزّ رأسه وأطلق لسيارته العنان لتقطع الطريق في

سرعة، لم يمض أكثر من ربع ساعة حتى وقف السائق أمام عمارة من سبعة أدوار وهو يقول لي وصلنا، تأملت العمارة بدهشة من شباك السيارة لم يكن عقلي يحفظ تفاصيلها بهذا الشكل، كلاّ ليست هي؟ هذا ما قلته للسائق ولكن السائق عاد يكرر العنوان كما مكتوب أمامي في النوتة وهو يشير لرقم العمارة، لم أعرف حينئذ ما عليَّ فعله حقًا، أعطيت للسائق أجرته ولمحته يرمقني بنظرة لا مبالاة وهو يغادر الشارع، كان أمام العمارة كشك صغير يبيع المثلجات، أي مثلجات يبيعها في هذا الجو الشتائي القارس، لا يهم اتجهت للكشك وأنا أرسم ابتسامة واسعة على شفتي، كانت هناك فتاة في العشرين تقريبًا تقف بالداخل، تطلعت لي لوهلة وأنا أقترب ثم عادت لترص بضاعة خلفها بهدوء وكأنها لا تهتم لأمري، وقفت أمامها ثم تنحنحت فأدارت ظهرها لي وهي تقول: طلبات حضرتك؟

فاجأني سؤالها وكأني لم أكن أنتظر منها سؤالاً بل إجابة، لزمت لثوان الصمت فأعادت تكرار جملتها، فاعتذرت لها وأنا أسألها هل العمارة التي أمامها هي المذكورة في العنوان معي؟ فهزّت رأسها بنعم وهي تسألني: من تريد بالضبط؟

قلت لها إني أريد شقة الأستاذ مراد الشناوي وزوجته كرستينا.

تأملت العمارة التي أمامها بعينيها وكأنها تقيس الشقق بها وتعد

سكانها، وتهبط عيناها من أعلى لأسفل مع كل دور حتى استقرت عيناها أخيرًا في وجهي وهي تقول: لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم؟ حضرتك متأكد من العنوان؟

فتحت النونة على العنوان المكتوب وأريته إياها، فقالت إن العنوان مضبوط ولكن لا أحد يسكن العمارة بهذا الاسم وقالت ربما عزل منها منذ زمن، وأخيرًا قالت أن جدها أمامه دقائق ويصل من صلاة العصر فلو أني متأكد من العنوان أنتظره وهو سيخبرني لو سكن أحد بهذا الاسم العمارة من قبل، فالكشك أمام العمارة منذ سنوات بعيدة وجدها أدرى منها بمن غادر ومن أقام.

لم يكن أمامي حل سوى انتظار الجد، أردت في تلك اللحظة أن أتصل بفريد العطار لأعنفه على العنوان الخاطئ، ولكني آثرت التمهل قليلاً حتى تتضح الأمور ليّ، فربما نصب الأسيوطي على فريد العطار وأعطاه عنوانًا وهميًا ليرح دماغه من كل هذا الصداع في البحث والتساؤل.

رحت أتحرك على الرصيف بجوار الكشك وأنا أتشمم الهواء، لا أعرف لماذا شعرت برائحة هبة حولي، تشممت يدي، شعرت برائحتها تتغلغل مسامي، بل للحظة شعرت أن جسدي هو من يفرز رائحتها، لماذا في تلك اللحظة تلح عليَّ رائحة هبة؟ هل لأني طوال الوقت في

طريقي تجاه نجوان تلك الفتاة الخيال التي صنعتها في عقلي ورحت أروي شوقي إليها كل ليلة بفكرة جديدة؟ هل هبة تحاول في تلك اللحظة طرد نجوان من طريقي؟ أي سحر مجنون تستخدمه هبة حتى أكاد أشم رائحتها حولي في كل مكان؟ لجسد هبة رائحة ناضجة قوية تؤثر الخيال وتقويه، للحظة تظنها مثل ملكة النحل التي تفرز رائحتها ويطاردها الذكور حتى يفوز أقواهم بها فيضاجعها ويموت، هل ينتظرني مع هبة نفس النهاية نهاية ذكر النحل؟ ملك لم يتوج على مملكته، بل وضع بذرته ومات، أي مُلك هذا الذي ينتهي دون رعية ودون كرسي حكم؟ قرأت منذ فترة عن أنثى العنكبوت السوداء التي تلتهم ذكرها ليلة زفافه إليه.

كلاّ هبة أقرب لملكة نحل منها لأنثى عنكبوت، رحتُ أستعرض الخيالات في رأسي وأضع هبة كل مرة في مرتبة حيوانية حتى شطح خيالي كثيرة، لبؤة هي؟ قطع أفكاري صوت فتاة الكشك التي نادت عليَّ وهي تشير لي أن جدها قد حضر.

كان الجد يقف وبجواره اثنان في مثل سنه تقريبًا، لحية خفيفة بيضاء أسفل ذقن الجد، نظارة نظر مقعرة أمام عينيه مرتكزة على أنف عريض، تشعر لوهلة وأنت ترى الثلاثة رجال أنهم نسخة واحدة مكررة، ربما بفعل زمن صداقتهم الطويل بالتأكيد، طردت أفكاري جانبًا وأنا أقترب منه.

- مساء الخير.

هكذا بادرته بالكلام فابتسم في وجهي ابتسامة رقيقة وهو يقول:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أية خدمة؟

- أسأل عن الأستاذ مراد الشناوي، قالوا لي إن عنوانه في هذا العمارة.

أشرت للعمارة المقابلة بيدي، تطلع الجد ليدي وللعمارة وبدا ذهنه سارحًا قبل أن يقول أحد مرافقيه:

- الاسم ليس غريبًا عليَّ.

حك الجد ذقنه البيضاء وسرحت عيناه لثوان قبل أن يقول:

- أظن أني سمعت الاسم من قبل.

حاولت التعلق بهذه القشة الجديدة في كلامهم فقلت:

- الكابتن مراد الشناوي، كان يلعب في نادي الاتحاد السكندري زمان.

تهلل وجه الجد فجأة وكأنه تذكر كل شيء وبدا يهنئ نفسه لتذكر الاسم قبل أن يعبس وجهه بغتة وهو يقول:

- آسف يا أستاذ، إني تذكرته بالطبع، ولكنه لم يسكن تلك العمارة سوى سنة أو أقل.

قال مرافقه مكملاً:

- تذكرته يا حاج مدبولي أليس هذا الذي كان يلعب معنا في الدورات الرمضانية وقتها؟ لقد وضع فيك هدفًا جميلاً حينذاك.

تجهم وجه الجد الذي عرفت الآن أن اسمه مدبولي ونظر لي:

- للأسف لا نعرف عنوانه الجديد، هذا إذا كان ما زال على قيد الحياة.

قلت في صوت حائر:

- إنه كان حارس مرمى في الاتحاد.

ضحك مرافقه بشدة وهو يربت على كتف الحاج مدبولي:

- حارس مرمى وسجل فيك ثلاثة أهداف وقتها وليس هدفًا واحدًا لقد تذكرته، أظن أنه هاجر بعد هذه السنة، كانت له زوجة فرنسية جميلة، كانت عينك تطلع عليها يا حاج في الطلعة والنازلة.

تجهم وجه الحاج مدبولي وهو يقول:

- أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، اتق الله يا أخي.

ابتسمت بداخلي لتلك المحادثة العجيبة ولكني لم أصل لأي حل.

لا يهمني إذا كانت عينا الحاج مدبولي تتابعان زوجة مراد الشناوي أم لا؟ يهمني أنا أن أعرف مكانه فقط، تساؤل ضرب مخيلتي أليست عيناي أيضًا تبحثان عن ابنته الآن؟

obeikandl.com

انسحبت من أمامهم عندما وجدت أن الحديث صار حديث ذكريات ولن ينتهي بسهولة، أخيرًا حين انصرافي ودعني الحاج مدبولي بأن عليَّ عندما أرى مراد الشناوي أن أسلم عليه نيابة عنه وقال لي عن رقم الشقة التي كان يسكنها مراد ربما لدي رغبة أن أسأل ساكنها عن عنوانه ربما يعرفه.

بالفعل نفذت كلام الحاج وصعدت للشقة ورننت الجرس فخرج لي رجل خمسيني تقريبًا لم يقل أي جديد، قال أنه لا يعرف شيئًا عن الرجل وأنه لم يره مرة في حياته فقد اشترى الشقة من صاحب العمارة وليس من مراد الشناوي.

حاولت إيجاد أية أخبار عن مراد من البواب والبقال المجاور للعمارة ولكن دون فائدة.

تسأل الجيران عن شيء فيسألونك عن أشياء لا تعرفها هكذا جرى الأمر معي لساعتين أو أكثر، وفي النهاية قررت أن أغادر.

اتصلت بي هبة بعد ساعة أخرى قضيتها مشيًا في الشوارع المحيطة بالعمارة، قالت أنها تنتظرني في الشقة ولن تنزل لا رغبة لديها في أن ترى أحدًا غيري اليوم، طلبت مني أن أجلب بعض أشياء للعشاء معي وألاّ أتأخر.

وجدت فيَّ رغبة في أن أكلم فريد العطار، وفوجئت به يتصل بي قبل أن أقرر مكالمته، حكيت له عما حدث فغمغم قليلاً وفي النهاية قال أنها ليست غلطته ولا غلطة الأسيوطي فهذا هو العنوان المسجل في الدفاتر الخاصة بالنادي آنذاك. وضحت له أني لا أتهمه بالتقصير بل أوضح له ما حدث وشكرته في نهاية المكالمة، وقال أنه سيواصل البحث مع الأسيوطي ربما وصلا لعنوان آخر.

أنهيت المكالمة واتجهت للسوبر ماركت لأجلب ما طلبته هبة مني، شعور بالفراغ يشملني ويلف كياني، وكأني كنت أجري في سباق طويل ثم بغتة انتهى السباق وغادر الجميع بينما أنا أواصل الجري بلا توقف والفراغ يحيط بي من كل جانب.

جاءني اتصال آخر من هبة تمليني أشياء أخرى لأشتريها، وجدت نفسي أضاحكها وأنا أسألها: حبيبتي ماذا تلبسين لي اليوم؟

جاءت ضحكتها عالية رقراقة مثيرة وهي تنهي المكالمة قائلة: عمري أنت من النوع الذي نخلع له لا نلبس له.

لم أعرف لماذا صرت أشتهي هبة في تلك اللحظة بجنون، ربما لأدفن معها خيبتي وفشلي في الوصول إلى نجوان، وتراقصت ابتسامة على شفتي بلا معنى.

عندما غادرت السوبر ماركت محملاً بما طلبته هبة، كان عقلي لا يزال مشغولاً بمراد الشناوي وصورة ابنته نجوان لا تفارق خيالي للحظة، وبداخلي شعور رهيب بألا أتوقف فحتمًا سأصل إليه وإليها.

فنجوان قدر لا مفر منه، هكذا تخيلت!

ليتني وقتها أوقفت بحثي عن نجوان ربما صارت حياتي في اتجاه آخر غير ما حدث.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

(١١)

الحياة وحرية الاختيار، ليتنا نملك اللحظة الحقيقة للاختيار، كل لحظاتنا موسومة بالتجربة والخطأ، في الغالب نتعمد الخطأ.

كنت جالسًا على السرير، مغطيًا جسدي بالبطانية وبجواري هبة تغط بالنوم بعد تلك الليلة الحافلة، كانت عارية تمامًا إلاّ من ملابسها التي صممت أن ترتديها بعد أن أنهينا ممارسة الحب، رأيت معها ليلة لم أر مثلها من قبل، مررتُ لسانها وشفتيها على كل جزء من جسدي، قالت اترك نفسك لي وسترى، حلقتُ معها إلى عالم آخر موغل في القدم، شعرتُ وكأنها المرأة الوحيدة في الحياة خلقتْ من أجلي في تلك اللحظة بل من أجل تلك اللحظة، جسدها كان يضوي ويلمع في ألق ملحوظ، وكأنها لم تمسها يد بشر من قبل، كانت متألقة وحيوية، وأعطتني أكثر مما أتصور، شعرت وكأني لم أر امرأة قطّ، ولم أتعلم الحب من قبل، كل مرة أنام معها أكتشف سحرًا جديدًا، في قمة شبقها كانت تهمس في أذني وهي تقبض عليها بشفتيها يا عمري، تخرج من بين شفتيها تأوهات حزينة وهي تضغط جسدي بجسدها وهي تواصل همسها يا حبيبي، لم أعرف متى ألصقت بي تهمة الحب والهيام بها؟ وجدت نفسي أردد وأنا أضاجعها يا حبيبتي، شعرت وكأن الكون يتآمر معها لكي أنسى نجوان وصورتها، بل إنها

تصنع حياة أخرى بداخلي، شعرت وكأني أتنسم رحيقًا لم أشمه من قبل، رائحة الحب تنطلق من جسدها فتغمرني بالراحة والنشوة، كم كانت رائعة وفوق الوصف! متعة الارتقاء فوق الحب نفسه.

كانت السماء تمطر بالخارج ولكني كنت أشعر بالدفء، تأملت وجهها النائم وعينيها المغمضتين، وجدت نفسي أرغب في أن أضع قبلة على شفتيها المضمومتين، بدت صغيرة جدًا وهادئة، وبدت ملامحها مستكينة وناعمة وراضية، للحب مفعول السحر حقًا.

وضعت اللاب توب على حجري وأنا أسند ظهري للسرير، ورحت أستعرض صفحات الفيسبوك، كانت منال قد وضعت صورة جديدة لها في صالة ألعاب رياضية، تقف بشموخ غريب أمام مرآة وترتدي بلوزة نصف كم تقبض على صدرها الذي يكاد يمزق بلوزتها، بينما ذاك البنطلون الضيق الذي ترتديه يجسم جسدها بالكامل، أسفل الصورة مئات التعليقات، وبجوارها تظهر آلاف علامات الإعجاب، رحت أقارن صورة منال وشكلها بهبة التي تنام بجواري، شعرت أن هبة تفوز على منال بمراحل عديدة.

قبل أن تعطيني هبة منحة الليلة السابقة فتحت قلبها للحكي لي، أعددت العشاء وزجاجات البيرة، أكلنا في صمت في البداية، كنت ألمح في عينيها بقايا دموع، أو دموع توشك على الانهمار وتكافح هي

أن تمنعها، كانت عيناها تلتمعان وتضويان في وجهي، حكت لي عن طفولتها بعيدًا عن أبيها دائم السفر، وكيف تحول أبوها من شخص مرح إلى شخص لا يطاق، بحيث كان أقل حركة في البيت منها أو من أمها تصيبه بالجنون، عندما عاد من العراق بعد الحرب تغير، أمها قالت أيامًا وسيعود لطبيعته ولكنه لم يعد، أخذ غرفة له في البيت بعيدًا عن أمها، كانت ترى نظرات الحرمان والشوق في عيني أمها، حرم جسده على أمها دون سبب كما كانت تظن، ماذا حدث له هناك ليفعل به ما فعل؟! الحرب تغير، هذا شيء مفهوم، ولكن بالنسبة لهبة الصغيرة وقتها لم تدرك لماذا أصبح أبوها بهذه القسوة غير المبررة؟ عندما سألته وحاولت أن تكسر حاجز الصمت الذي فرضه عليه وعلى البيت استقبل أسئلتها بوجه متجهم، وعندما أصرت وعاودت السؤال تلقت أول صفعة على وجهها، آنذاك أدركت أنها تتعامل مع شخص آخر، كانت تسمع أحيانًا بكاءه ليلاً في غرفته ونشيجه الذي يرتفع أحيانًا بشدة، سمعته وهو يحطم أشياء بالداخل، كانت أمها تدخل الغرفة بعد خروجه صباحًا قبل أن ينعزل بالكامل لتنظفها، تفتح نافذة الغرفة لتطرد دخان السجائر المتكوم بالداخل والذي اقترب أن يكون سحابة.

هل ما فقده أبوها من مال هو السبب؟ لا تظن فما لديهم يكفيهم ليعيشوا حياة طبيعية ولن يمسهم الفقر فلِمَ؟ أسئلة كثيرة لم تجد

الصغيرة هبة وقتها إجابة لها. ظلت على حيرتها لسنوات، أبوها منعزل في الغرفة وخصوصًا بعد أن اشترى جهاز كمبيوتر أصبحت كل حياته عليه، ربما ظنت الأم أن له عشيقة لهذا لا يقربها، ولكن متى جاءت هذه العشيقة لحياته ومتى يقابلها؟ فهو تقريبًا أصبح أسيرًا داخل غرفته، الطعام يدخل له في أوقات محددة وكثيرًا ما خرجت صينية الطعام محملة بما فيها، كان أبوها يقتات من نفسه، يجتر ذكرياته وجسده معًا. تلك الذكريات التي رفض أن يشرك فيها أحدًا، من الذي يقتل داخلنا أنفسنا؟ كيف يقتل أحد نفسه من الداخل وينهشها بهذه الصورة المجحفة؟

يشحب وجه أبيها ويتحول للاصفرار، تترجاه الأم أن يزور دكتورًا، يتهمها بأنها تريد التخلص منه، تجرأت الأم في مرة وقالت أن عليه أن يذهب لدكتور نفساني.

فما كان منه إلا أن حطم أثاث البيت كله تقريبًا، بل كاد يفتك بها وبأمها، خطفتها الأم من يدها ودخلت لغرفتها، وأغلقتِ الباب من الداخل، بينما واصل هو تحطيم ما تبقى في الصالة وهو يردد صارخًا أنه ليس بمجنون، فجأة أصبح يأتي بأكياس دواء كثيرة يضعها في غرفته، يتناول منها دون استشارة طبيب، لا تعرف الأم معظم الأنواع التي يجلبها، يخرج للحمام ليفرغ معدته بعد كل وجبة تقريبًا في فترته الأخيرة، لا يستقر طعام في معدته لدقائق، ينتهي من الأكل ويعود ليلفظه، وكأن جسده تنمر عليه من كثرة الأدوية الغريبة التي كان

يتناولها، يضع حبة مستحلب تحت لسانه ويمتصها قبل أن يمد يده لعلبة سجائره؛ ليشعل سيجارة وينظر للأم والفتاة نظرات مرعبة قبل أن يذهب لغرفته ويغلقها عليه من الداخل.

استمر الأمر لفترة حتى جاء صباح غادر فيه الحياة ليلاً دون أن يزعجهما. دخلت الأم الغرفة بعد أن طرقت الباب عدة مرات فلم يجبها، دخلت وجدته ممدداً على سريره وهو ينظر للسقف بعينين خاليتين من الحياة، هل صرخت أمها وقتها أم ماذا؟ لا تتذكر هبة سوى وهي في حضن أمها وترتجف، ودموعها تغرق وجهها وصراخات أمها وهي تمسك ملاءة السرير لا تتوقف.

عمها اتهم أمها بأنها السبب في قتله، وقال أن أخاه كثيرًا ما اشتكى من سوء معاملتها له، ثلاث سنوات منذ عاد من العراق وهو شخص آخر، لم تتوان أمها عن خدمته لحظة وهو الذي حرم جسده عليها، بل تقريبًا حرم عليها الحياة. فكيف يتهمها العم بقتله؟ الدكتور أكد أن النهاية طبيعية، ذبحة صدرية فجائية أودت به، وأعطى العم تصريح الدفن، حاول عمها أن يمنع أمها الذهاب إلى المقابر مع المعزين، ولكنها صرخت في وجههم كنمرة شرسة هي من ظلت حياتها بجانبه ولم تتركه ولن تتركه إلاّ على باب القبر، للحظة شكت هبة أن عمها سيقدم على جريمة وربما يذبح أمها نفسها وقتها، ولكن العم استسلم وسط رجاء المعارف والأقارب.

تعبت أمها كثيرًا بعد موت أبيها، خصوصًا لكثرة الطامعين، ولكن الأب كان يعد مفاجأة للجميع حتى لأمها نفسها، فقد كتب كل ما يملكه باسمها هي. الصغيرة هبة، وترث كل شيء بعد وفاة أمها، وترك تلك الرسالة للأم، الرسالة التي أوضحت كل شيء غامض وقتها، كان يعرف أنه سيموت قريبًا، إذا لم يقتله مرض جسدي قتلته روحه، فهناك في العراق وأثناء الهروب من فكرة الحرب كان قد جمع كل ما ملكه هناك وحوله لأموال سائلة دولارات، وفي هروبه وقع في أيديهم، تلك العصابة الصغيرة التي تصطاد الفارين، قتلوه مرتين، مرة عندما أخذوا ما معه من مال، ومرة عندما مد أحدهم مطواة ليصيبه في منطقة حساسة من جسده، فقد معها رجولته وقدرته الجنسية، شعرت بالهزيمة الحقيقية آنذاك، بل لم يشعر بشيء فقد الحياة وقتها، والثلاث سنين الأخيرة من حياته كانت موتًا آخر، موت بالبطيء.

بكت هبة وأطلقت لدموعها العنان عندما انتهت من الحكي، كفكف دموعها بشفتيه آنذاك.

كم من المؤلم أن تفقد شخصًا وتظن أنه كان يكرهك لتكتشف بعدها أنه يحمل الحب الأعظم لك بداخله!

أعطتني هبة ليلة لا تنسى ربما كانت تعطيني فيها حرمان أمها أيضًا الذي كتبه أبوها على الأم، تعطيني لتهب لنفسها مبررًا للحياة.

كم هي شفافة وهشة رغم تصرفاتها الرعناء! شعرت بها تتململ في السرير، فملتُ بشفتي وطبعت قبلة على خدها، غمغمت كطفلة وهي تشد البطانية لتلف جسدها بها.

●●●

أصبحت أحلم بالأموات في الفترة الأخيرة كثيرًا، لا أعرف حقًا لماذا بدأت تلك الكوابيس تزداد بتلك الصورة المفزعة؟ هل بسبب الفشل الذي ألقيه في كل شيء يمر بحياتي الآن؟ فشل في تكملة الرواية، فشل في علاقاتي العاطفية أو عدم تصديق لها، فشل في الوصول لمكان مراد الشناوي، فشل يلاحقه فشل!

أتصور أن الوقت القادم ليس لي أو ملكي، في أي وقت قد تغضب منال وتحول حياتي لجحيم جديد يضاف إلى كل العبث والجحيم الذي أعيشه.

علاقتي بهبة هي فشل أيضًا وتردي في طريق السقوط ولا أعرف كيف ستنتهي؟!

كنت في تلك اللحظة أقطع شوارع الإسكندرية في صباح ماطر، أتلفت حولي كلص يحاول أن يعثر على ضحيته، أخرج المفكرة التي أسجل فيها الطرق والعناوين من جيبي، أبحث في منطقة ذاكرتي عن ذاك المكان الذي يحتفظ بالعناوين والشوارع وتفاصيلها ولا أجده معظم الوقت.

أقرأ المكتوب في المفكرة: (ترام الرمل- ميدان المنشية- محطة الرمل- الأنفوشي- أبو العباس والبوصيري- سيدي العدوي والشوربجي وجامع تربانة في الأنفوشي- شارع السبع بنات- المنشية- الجمرك- السيالة- سيدي القباري- القائد إبراهيم- زيزينيا- المكس- شارع المكس- سينما مترو- سينما رويال- ميدان سانت كاترين- طريق جمال عبد الناصر- شارع سعد زغلول- الورديان- شارع بورسعيد- شارع البحرية- شارع النصر- المنشية- ميدان محمد علي- كرموز- راغب- ميدان الشهداء- شارع النبي دانيال- محطة الرمل- المنشية- شارع النصر- شارع صلاح سالم- شارع فؤاد- المنشية- شارع السلطان حسين- شارع أحمد عرابي).

ثلاثة أسابيع تقريبًا وأنا أدور في كل تلك الشوارع والميادين، أنتقل من مكان لمكان، عيني تبحث عن أي أثر لمراد الشناوي ولا أثر وكأنه تبخر في الهواء. الكورنيش قطعته مئات المرات ذهابًا وعودة، ولا فائدة.

للحظات كثيرة شككت في عقلي وقلت أن هذا الرجل لا وجود له ولم يكن له وجود قطّ، لكن أكذب تلك الشكوك دومًا وأتحجج أن فريد العطار قد أتى بعنوان له قديم، أتساءل كثيرًا هل نجوان تستحق مني كل هذا الجهد؟ شخصية خيالية لم أرها قطّ فلِمَ الإصرار عن مواصلة البحث؟ لماذا لا أكتفي بما حدث وأعتبر نجوان مجرد صورة

من الخيال؟ حتى التفكير في أنها الخيال الآن صار من المستحيلات، فلا لحظة تمر دون أن أرى وجهها يضوي بعقلي.

هبة، هل خدعتها أم هي من خدعتني؟

سؤال الإجابة عليه الآن لم يعد له منطق لتظل هبة في تلك المنطقة التي اختارتها لنفسها حتى تتضح الأمور وإذا لم تتضح لا شيء يهم، لقد سلمت أمري أو كل أموري للقدر، للصدفة أو المصادفة لأي شيء آخر غير نفسي التي لم أعد أفهمها.

●●●

اتصلت بي إلهام اليوم، بدا صوتها غاضبًا، قالت أن أمها تريد أن أعود لأمسك حسابات المحل الجديد، قالت أنها لم تغصب على أمها في الأمر بسبب حبها لي. بل بالعكس أمها ترى أني من أشد الناس أمانة، إلهام تقول وسط غضبها أني يجب أن أهتم لكلامها وكلام أمها إذ كان يجب لعلاقتنا أن تستمر، أخبرتني أنها تتركني لحالي كما أريد هذه الأيام ولا تريد أن تزيد الضغط عليَّ، قالتْ أشياء كثيرة عن فكرة أنها وحيدة أمها والمحلات في النهاية ستكون لها، وهي تريدني بجانبها، يجب أن أترك وهم الكتابة والقصص إلى غيري وأنتبه للواقع، لن تؤكلني الكتابة عيشًا، سيظل حلمًا مجنونًا ينغص حياتي دون فائدة، لماذا أصر عن الابتعاد عنها؟! حاولت أن

أفهمها أن ما بيننا لم يكن حبًا ولكنه شعور بالألفة لتواجدنا في نفس المكان لفترات طويلة، قالت إني مجنون وهل من الألفة أن أطلب منها في أحد الأيام أن ترتدي ذاك الطقم الجديد من الملابس الداخلية في بروفة المحل وتريني إياه؟ هل لمساتي لجسدها وقتها كانت ألفة أم شبقًا وحبًا مجنونًا؟ حاولت التملص من الأمر ولكنها أرسلت لي صورة جديدة لها وهي راقدة على السرير بذاك الطقم من الملابس الداخلية، وأرسلتْ ضحكة ووجهًا تعبيريًا مبتسمًا بجواره عبارة واحدة: «لتعد لك الذاكرة»، قلت لها أني سأفكر في الأمر ولكن يجب أن تظل بعيدة عني هذه الفترة فإني تقريبًا لا أفهم نفسي، ضحكتْ في غنج وهي تقول لي ومن منا يفهم نفسه، ولكنها أنهت محادثتها معي بعد كثرة جدال أنها ستتركني لفترة ولكنها لن تتركني للأبد، أنهيت المحادثة مع إلهام وأنا في حيرة أشد، لماذا كل النساء أصبحن راغبين فيّ هذه الأيام؟ ما الجديد فيّ ليفعل فيهن هذه الأفاعيل؟

هبة هي الأخرى تصيبني بالحيرة منذ ثلاثة أيام وهي مختفية تقريبًا، سألت عليها في المسرح فقال زميل لها أنها لم تظهر منذ خمسة أيام، اتصلت بها عدة مرات ولم ترد، عاودت الاتصال فأغلقت تليفونها، ما الذي تريد هبة أن يصلني منها الآن؟ هل تخبرني بعدم ردها أنها ملت مني ولا ترغب في رؤيتي؟ هل ينقصني تصرفات هبة المجنونة؟

عاودت النظر للشوارع والمارة وأنا أمر بجوار سينما رويال، كان هناك بوستر لفيلم جديد، رغبتُ في إضاعة الوقت ودخول السينما، ولكن في آخر لحظة وأنا أمام شباك التذاكر تراجعت وسط نظرات عامل التذاكر لي.

الشتاء وإحساس بالبرودة وسط أعصابي الملتهبة، الشوارع المبللة بماء المطر. المقاهي التي تفتح أبوابها للزبائن، صوت العربات المارة مسرعة رغم المطر الخفيف، صوت أغنية شعبية يصدح بقوة من داخل مقهى، وزفة عروسة تمر من جانبي في تلك اللحظة فتختلط أصوات أبواق السيارات بصوت الأغنية الشعبية الغريبة، لماذا هبط الذوق بنا لهذه الدرجة؟! أتذكر منظر الشباب بعد الثورة وهم يطلون الرصيف ويكنسون الشوارع فأضحك بشدة، كم كنا سذج!

لا أريد أن أتذكر الثورة وما حدث بعدها، فهي خمس سنوات من التشتت في حياتي، خمس سنوات لم أعرف حقًا أين أقف، فالأحداث كانت تتلاحق بصورة مفزعة، وليست هناك فترة أو فرصة لالتقاط الأنفاس.

أخرجت التليفون وعاودت الاتصال بهبة، ما زال هاتفها مغلقًا، لتذهب هبة إلى الجحيم، لماذا أحاول الوصول لها؟ هل أصبحت مدمنًا عليها؟ هل صار دمي يحتاجها طوال الوقت؟ ربما التفكير فيها أني لم

أصل معها لبر أمان أو طريق أعرف أين أقف أنا فيه بجوارها، ربما أيضًا أني أتلهف لأعرف أكثر عنها فبرغم كل ما جرى بيننا أكاد لا أعرفها حقًا، هناك غموض يحيط بها، وأنا كنت راضيًا بهذا الغموض وأتعامل معه أنه جزء من تكوينها الشخصي، ولكن لمتى؟

الليل ما زال في أوله وأنا لا أرغب أن أعود للشقة الآن، الرواية لا تهاودني في إعادة كتابتها، هناك شيء ناقص يعكر مزاجي، ويجعل الكتابة مستحيلة، يجب أن أنهي كل هذا في أسرع وقت وأعود لنفسي وللكتابة حتى لو كنت أكتب لغيري، الموهبة سترفضني عندما أصر على الابتعاد عنها، يجب أن أحاول ولو حتى بكتابة صفحة كل يوم، منال لن تنتظرني للأبد، ربما في لحظة ستسحب يدها وتبحث عن حل آخر غيري، قالتها وسط تهديدات كثيرة بأنها ستفكر في إنهاء المشروع لو استمررت أنا في المماطلة هكذا، لا تعرف حقًّا أني لا أماطلها، ولكن كل شيء يحدث حولي عبثي بدءًا من ظهور هبة في حياتي وانتهاء ببحثي الدائم عن نجوان وأبيها، السرّ كله في هذا الشغف المجنون الذي يسكنني تجاه نجوان، شغف ينغص كل لحظة تمر عليَّ هذه الأيام؛ لأبحث عن حل، وهل وجدت هذا الحل الذي أرغب في البحث عنه؟ لا حل سوى الوصول لمراد الشناوي وكرستينا زوجته.

اللعنة كيف لم أفكر هكذا من قبل؟ لماذا الإصرار في البحث عن مراد الشناوي. لم لا أغير تفكيري وأبحث عن كرستينا؟! بالتأكيد سأصل أسرع، أحاول أن أتذكر كل ما قالته عن نفسها في أثناء تلك الجلسة التي جمعتني بها، أخرج المفكرة من جيبي وأبدأ في كتابة بعض ما أتذكره عنها.

تحركت في الشارع وأنا في غبطة من الفكرة الجديدة، مؤكد سأصل لأول خط يصلني بمراد الشناوي، سأنهي تلك الأحلام المؤجلة بالعثور على نجوان، أعطي لنفسي بعض الأمل وأنا أركل زجاجة فارغة أمامي، وأخذت الأمطار تهطل في غزارة وسط لهيب الأفكار الذي لا ينقطع.

أخيرًا فوجئت أني عدت لأقف أمام شباك التذاكر في سينما رويال، مددت يدي بالنقود وأنا أقطع تذكرة وظهر في وجه العامل أنه يتذكرني، لم تمر دقائق حتى كنت آخذ مكاني في صالة العرض، وأتابع الفيلم المعروض بشغف طفل يرى السينما لأول مرة في حياته، بينما صورة نجوان تتراقص في مخيلتي، وأكاد أراها على شاشة العرض، ضاحكة في سرور وتمد يديها لتحتضني.

●●●

المفاجأة أحيانًا تحطم كل ما تدبره وتفكر فيه.

وهذه المرة أخذت المفاجآت تنهال عليَّ من كل اتجاه، لدرجة شككت أن هناك من يعبث بحياتي.

فمنذ أن قررت أن أبحث عن كرستينا اختفى فريد العطار، لا يرد على تليفونه، ودومًا هاتفه مغلق، ذهبت إلى ذاك المقهى الذي قابلته فيه عدة مرات ولم أجد له أثرًا، سألت عليه بعض الزبائن ومن رأيته يجالسهم أكثر من مرة في السابق ولكنهم جميعًا أجمعوا أنهم لم يروه منذ عدة أيام، سألت على عنوان بيته لعلني أصل إليه هناك، قالوا أنه لم يعط عنوان بيته لأحد قط، وكانت له جملة شهيرة «صاحبي وصاحبك على القهوة».

ما هذا؟ هل كان ينقصني لغزًا جديدًا؟!

هبة لا ترد إلى الآن أيضًا، أحيانًا تليفونها مغلق وقليلاً يعطيني جرسًا ولا ترد.

هل أدور في شوارع الإسكندرية أسأل عن هبة وكرستينا وفريد العطار ومراد الشناوي، جنون!

كلاّ لابدّ أن يظهر أحدهم حتى تتكسر تلك الحلقة من الاختفاءات، المدهش أن الحلقة صارت تضيق أكثر عليَّ، فتحي أيضًا لا يرد على

تليفوناتي، ومنال أغلقت حسابها على الفيس بوك فجأة وأغلقت هاتفها، من المستحيل أن تكون كل هذه مصادفات قدرية.

حاولت الاتصال بمنال عدة مرات ولا فائدة، حاولت الاتصال بكل من يختفي من حولي بتلك الصورة ولا فائدة، كدت أصاب بجنون لحظي، لدرجة أني قد أتصل بأي شخص موجود نمرته على هاتفي.

خميس البواب يصعد لي في الشقة ليخبرني أن إيجار الشقة سينتهي بعد أربعة أيام وأن الأستاذ فتحي لم يطلب مده، فهل أرغب بأن أمد الإيجار لفترة جديدة ليخبر صاحب الشقة، قلت له أن يترك لي فرصة يومين وسأكلمه أو أغادر. أربعة أيام فقطّ هي ما تبقى لي هنا!

لم أكمل مسودة الرواية لأسلمها لمنال، وأين هي منال لأسلمها المسودة حتى لو اكتملت؟! أربعة أيام ولم أصل لنجوان أو هبة أو مراد الشناوي أو حتى فريد العطار، أربعة أيام مطلوب مني فيها أن أبحث عن الجميع أو أترك كل شيء خلف ظهري وأعود، ولكن أعود لأين؟! أعود لمحطات فشل جديدة لا تنتهي. هل أرمي نفسي في أحضان إلهام وأمها وأعود لأجلس على مكتب حسابات الهانم الكبيرة وأرى نظراتها تجاهي كطامع في ابنتها؟ الأسئلة كثيرة وإجابتها كلها تؤدي للاشيء.

بحثت في الثلاجة عن أكل فوجدت أنني تقريبًا استهلكت كل الأكل المخزن. المبلغ المتبقي معي لا يكفي لقضاء الكثير من الأيام بالإضافة أني أحتاج مصاريف إضافية لو استمررت في محاولة البحث عن المختفين من حياتي بغتة.

أطلقت زفرة عميقة وأنا أغلق البوتجاز على كنكة القهوة التي فارت وانسكب نصفها على البوتجاز، صببت المتبقي في كوب شبه متسخ ولم أهتم بغسله.

فتحت اللاب توب وانتظرت حتى انتهى إقلاع الويندوز لأدخل على الفيس بوك فربما تكون منال قد أعادتْ حسابها مرة أخرى، ولكن بعد عدة محاولات أجد النتيجة واحدة أن الحساب مغلق، هل يكون في الأمر شيئًا وأن منال قد قامت بحظري، تذكرت حسابًا قديمًا لي على الفيس بوك أنشأته منذ سنوات ولم أضف إليه أحد، أتذكر الرقم السري لأني لا أغير الرقم السري لأي حساب من حساباتي، أدخل عليه وبمجرد أن أرى أن تسجيل الدخول نجح، أكتب اسم حساب منال في خانة البحث، يظهر لي عشرات النتائج ولكنها مختلفة ليس أي حساب منهم يخصها، أطمئن قليلاً رغم اختفائها فهي لم تقم بحظري، كنت أريد ظهورها بشدة حتى أجد الفرصة والوقت لإكمال كل ما ينقصني الآن من أحداث وأفكار وأشخاص.

حاولت إعادة ترتيب كل شيء حدث في عقلي، تصورت الأحداث وكأنها تمر بشخص آخر، سأعطي لنفسي دور البطولة، وسأحاول أن أبدو لنفسي بطلاً في رواية لم أكتبها وتكتبها الأقدار، هل تلك نهاية تليق بتلك الرحلة المجنونة التي قمت بها للإسكندرية حتى الآن؟ مستحيل! حتى لو أني أضع نهاية لرواية مكتوبة أنا بطلها، لن أرضى بهذه النهاية، سأحاول البحث عن حلول أخرى، أحاول ترتيب أفكاري واستيعاب ما يمر بي من أحداث غريبة، وبرغم استغراقي ساعات في محاولة ترتيب الأفكار والأولويات لكن دومًا أعود إلى النقطة صفر، لا شيء يحدث، لا شيء يحدث! هذا ما رحت أكرره أمام نفسي ولنفسي عدة مرات. حاول أن تتخيل أين تكون هبة الآن؟ ثم ابحث في عقلك عن طريقة تصل بك لمنال دون أن تغادر الإسكندرية، وعليك أن تبحث عن فرصة للوصول لنجوان وأبيها وأمها، ستفكر في العطار وكيف تصل إليه؟ سيتعبك التفكير ويؤرقك الفشل.

لا حلول معلبة وجاهزة، حتى التفكير كما يقولون خارج الصندوق أثبت فشله معك، لا وجود للصندوق حتى تبحث عن أفكار داخله أو خارجه، تضحك وأنت تتذكر أغنية قديمة «سرقوا الصندوق يا محمد لكن مفتاحه معايا». ولكن أيّ مفتاح الذي معك، كل المفاتيح التي بحوزتك تؤدي لأبواب مغلقة موصدة بأقفال لا تناسبها، اللعنة!

أفتح حسابي على الفيس بوك وأتأمل خانة الأصدقاء، أحاول البحث وسطهم عن شخص ألجأ إليه الآن، تتشابك الصور وتختلط الأسماء وتغيب المعالم أمام عيني المنهكتين تعبًا وإرهاقًا، لا أحد في ذاك العالم الافتراضي سيكون هو الحل أو الملاذ، للحظة شعرت بأن الكل مزيف، كلنا مزيفون لا نملك حتى حقيقتنا. يأتيني إحساس قاتم أن حياتي السابقة أكذوبة، أحاول الهروب من ذاك الإحساس بالبحث عن شيء يشدني يخرجني من تلك الحالة التشاؤمية التي أخذت طريقها في التصاعد.

لن أستسلم للأوهام الآن وفي تلك اللحظة، سأحاول جاهدًا التخلص من كل المشاعر السيئة والبحث عن شيء يسعدني، أمرر عينيَّ على صور الأصدقاء مرة أخرى، أجد صورة لسليم وهو يعزف على الجيتار، سليم من الإسكندرية وصديقي منذ سنوات، لن نلتقي منذ فترة ولكن صداقتنا قد تكون حقيقية. سأتصل به، كلا من الأفضل أن أرسل إليه رسالة على الفيسبوك، كتبت سطرين بعد التحية أخبره أني في الإسكندرية وأرغب في رؤيته، لم تمر دقيقة حتى جاءني رده من خلال هاتفه المحمول على حسابي يسألني أين أنا؟ ومنذ متى أنا في الإسكندرية؟ أخبرته عن مدة تواجدي السابقة فعاتبني أني لم أتصل به، ولم تمر دقائق حتى وجدت هاتفي يرن، كان سليم، جاء صوته دافئًا وهو يشتمني في دعابة، فتلك عادة سليم

عندما يكون هناك شخص عزيز عليه فإنه دومًا يداعبه بشتائم قبيحة، يقول إذا لم أشتمك وتشتمني فنحن لسنا بأصدقاء، الصداقة في حد ذاتها في زمننا هذا فحش، وانطلقت طلقته عالية وأنا أرد عليه السباب بسباب، فسأل أين أنا تحديدًا؟ فقلت له، فقال إن لديه حفلة في كازينو على الكورنيش وسيسهر هناك طوال الليل، الأفضل أن أجيء أنا إليه، قلت له أن يمليني العنوان لأكتبه، فشتمني وشتم ذاكرتي وهو يقول أما زال لديك هذا المرض الغريب بعقلك؟ متى ستحفظ العناوين؟ وراح يمليني بعدها العنوان فسجلته في المفكرة ورسمت بجوار العنوان وجهًا مبتسمًا، ربما رغبة مني أن أخرج من حالتي التشاؤمية.

انطلقت إلى العنوان الذي أعطاني إياه سليم، دخلت المكان وصوت الموسيقى يضرب أذني بشدة، كان سليم وفرقته يقفون على مسرح صغير في وسط الكازينو، بينما هناك الكثير من الحضور أغلبهم من الشباب يتنقلون بين الموائد، كانت فرقة سليم من تلك الفرق التي انطلقت بعد الثورة بشدة وكانوا يطلقون عليهم «الأندر جراوند»، أتذكر أن سليم لفترة قد قال لي عن الصعوبات التي يواجهونها طوال الوقت بدءًا من الملحنين المصريين الذين يفرضون سيطرتهم كآلهة الفن في مصر انتهاء بالشيوخ الذين يهاجمونهم بحجة أنهم عبدة الشيطان وليس بآخر مهاجمة نقابة الموسيقيين لهم أنهم فرق ضعيفة

ولا يحملون تصاريح عمل، كانت الموسيقى عالية فعلاً، أذناي أخذت فترة حتى تستوعب ذلك الضجيج وأستطيع تمييز بعض الكلمات من الأغنية، أشرت بيدي لسليم فناول الجيتار لصديق بجواره وقفز من على المسرح فاتحًا ذراعية في اتجاهي، حضنني بقوة وأخذ يربت على ظهري وهو يسحبني لمائدة ويشير لجرسون أن حساب المائدة عنده، أربع زجاجات من البيرة بالمزات وضعت على المائدة أمامي بعد دقائق، ربت سليم على كتفي وأشار وهو يقول لي أنه سيطلع للمسرح ليكمل الليلة ولا أغادر فأنا ضيفه اليوم.

بدأت أحاول استطلاع معالم المكان حولي، الشباب في عالم آخر وحماسهم غريب ويقفزون ويرقصون في نشوة واضحة، بينما هناك من يختلس ملمس ظهر أو تحسس جسد صديقته التي تقفز بجواره، الجو مرح للغاية ولكني كنت ما أزال أعيش تلك الحالة من الجمود الروحي، أتفرج على ما يدور حولي ولا أكاد أشعر به أو أتفاعل معه، فتحت زجاجة البيرة ورحت أصب لنفسي كوبًا وبعد ثوان كنت أرفعه على شفتي ومرارة البيرة أشعر بها شديدة ليس ككل مرة.

أظن أني قضيت على الأربع زجاجات مع نهاية السهرة، تقدم مني سليم وهو يضع الجيتار خلف ظهره وقد ربط حزامه حول كتفه، ابتسم وهو يرى الزجاجات الفارغة وهو يتمتم:

- أكنت عطشان لهذه الدرجة!

ثم أطلق شتيمة في وجهي وهو يربت عليّ بيديه الاثنين ثم سحبني من يدي وهو يقول:

- هيا سنقضي الليلة عندي، مؤكد أنت جائع.

لم أعرف بماذا أجيبه فقد شعرت بالفعل أني سكرت، فهززت رأسي بالموافقة. كانت هناك سيارة صغيرة لسليم تقف بجوار الكازينو، فتح الباب لي وأشار أن أركب، ركبت بجواره فانطلق في الشوارع وهو يثرثر في أشياء كثيرة تصل إلى أذني ولكني تقريبًا لا أسمعه.

بعد فترة توقف أمام محل كبير للكباب والكفتة وتسلم طلبًا واضح أنه قد جهز له بعد أن طلبه بالتليفون وجلب من المحل المجاور عدة زجاجات أظن أنها بيرة أيضًا، لم أنزل من السيارة إلاّ أمام تلك العمارة القديمة التي يسكنها سليم. عمارة شبه متهالكة، يسكن سليم الدور الثاني، بينما هناك محل بقالة مغلق أسفلها، شقة سليم تحتل الدور الثاني كله ولكنها شقة ضيقة هذا ما شعرت به بمجرد دخولي، كانت الشقة في حالة يرثى لها، أكواب مليئة ببقايا الشاي والقهوة في عدة أماكن وتكاد تشم رائحة العطن، سليم يعيش جوًا بوهيمي حقًا، لا أعرف من ربط بين الفن والبوهيمية لتصبح حياة لفناني الشوارع. لاحظ سليم نظراتي للشقة وامتعاضي فشتمني وهو يقول:

- وحياتك منظفها من أسبوع.

سحب طبلية صغيرة ووضع عليها أكياس الأكل، نظر لي وهو يقول:

- أتأكل على الطبلية أم تحب أن نأكل على الأرض؟

قلت بهدوء مستسلم:

- أي مكان لا يهمّ.

نظر لعيني وهو يفتح الأكياس ويرصها على المائدة قائلاً:

- واضح أنك في مشكلة، هيا أخبرني ماذا كنت تفعل في الإسكندرية قبل مجيئك إلي؟ ولِمَ لم تكلمني من أول يوم؟

أخذ هو يأكل بنهم، بينما رحت أنا أحكي له أيضًا بنهم لا أفهمه وكأني أزيح ثقلاً من فوق كتفي، حكيت له كل شيء تقريبًا ما عدا أني أكتب الرواية لمنال. حكيت له عن هبة واختفائها وعن مراد الشناوي ونجوان وفريد العطار وكل شيء، حالة السكر التي رحت فيها خصوصًا بعد رشفات من البراندي الذي كان يصبه لي وأنا أحاول مضغ لقم بسيطة أعطت لي حرية في الكلام بلا توقف.

عندما انتهى من الأكل وبدأ برمي المتبقي في الأكياس الفارغة كانت عيناه تحدقان بي وهو يكاد يتساءل أي جحيم من العبث والأفكار رميت نفسي بداخله.

رفع زجاجة البراندي من أمامنا بعد أن فرغت قبل أن يسحب صحنًا صغيرًا ويمسحه بيده ويخرج سيجارتين من جيبه ليفضي التبغ فيه، وبعد وهلة كان يخرج قطعة حشيش ويسخنها ويفركها في الطبق وبدأ في لف الحشيش وهو يسألني «تبة ولا فيلة». قلت ببساطة: أي شيء.

ابتسم وهو يشير أنها ستكون «تبة» لتجيب من الآخر على حد قوله، بدا سليم غير آبه بكل ما حكيته له، أو أنه يسمعني بنصف وعي، جاء لي إحساس أن أغادر شقته الآن، ولم أستطع تنفيذ ذلك الخاطر فقد كنت وقتها في عالم آخر صنعته الخمر وسجائر الحشيش الملفوفة، تمددت على الكنبة وأنا أطفئ سيجارة حشيش لم آخذ منها أنفاس كثير، نظر لي سليم وكأنه يقول: «هل هكذا تعامل النعمة؟» انطلقت ضحكة مني عالية، ثم صمت كل شيء حولي صمت القبور فقد ذهبت إلى عالم آخر من الكوابيس والأحلام.

عندما أفقت صباحًا كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة، لم يكن هناك أثر لسليم في الشقة.

انتابتني ضحكة مجنونة وأنا أتصور سليم قد اختفى هو الآخر، وكأن هناك جهة مسئولة تختطف كل من أعرفهم.

بعد عشر دقائق غسلت فيهم وجهي وبحثت في المطبخ عن كوب نظيف لأصب لنفسي الشاي وجدت طرقات على الباب، فتحته كانت

تقف أمامي فتاة في منتصف العشرينات ممتلئة قليلاً بيضاء متوسطة الطول، شعرها كستنائي مجعد، عيناها ضيقتان وترتدي نظارة تأكل نصف وجهها، بينما مساحيق التجميل زائدة عن الحد، تطلعت لي وهي تدخل ببساطة غير آبهة وتنادي بصوت رفيع مسرسع لا يتناسب مع حجم جسدها ويبدو أقرب لصوت طفلة على سليم. وعندما انتبهت لعدم تواجده قالت وهي تجلس:

- أما زال بالخارج؟

لم أرد أن أعكر صفو مزاجي بالاهتمام بها فقلت بلا مبالاة:

- لا أعرف، صحوت فلم أجده.

هزت رأسها وهي تنظر للزجاجات الفارغة قائلة:

- هل كان هناك غيركما هنا أمس؟

لا أعرف كيف عرفت أني نمت بالشقة ربما فراستها أخبرتها أو آثار النوم الذي لم يغادر مقلتي بعد، فقلت بهدوء وأنا أرفع كوب الشاي لفمي:

- نعم، لم يكن هناك أحد غيري أنا وسليم.

قالت وهي تشير لكرسي:

- اقعد، أستظل واقفًا؟

جلست وراحت عيناي تنظران في اتجاهات بعيدة عنها، تنحنحت وهي تقول:

- هل ستظل هنا كثيرًا؟ أقصد أأنت ضيف لمدة أم ليلة وتمر؟

للحظة شعرت أنها أوحت لي بفكرة، لماذا لا أمكث لدى سليم لفترة أظن أنه لن يمانع، قطع كلامها صوت مفتاح يدور في باب الشقة ودخل سليم ونظر إلينا نظرة غريبة قبل أن يقول مازحًا:

- خيانة!

انطلقت ضحكة تلك الفتاة قوية وهي تقول في بساطة:

- بلا نيلة!

قال سليم وهو يضع كيس أشياء على المائدة:

- أظن أنكما تعرفتما ببعض.

قالت الفتاة وهي تقف تفتش في أكياس سليم:

- صديقك يبدو غامضًا.

ابتسم سليم وهو يضربها على عجيزتها وقال:

- كل أصدقائي غوامض.

أبعدت يده التي كانت تتحسس ظهرها وقالت وهي تسحب الأكياس:

- سأجهز لكما الإفطار.

ابتسم سليم والفتاة تنسحب للمطبخ:

- سوسن، أعرفها منذ ثلاث سنوات، تقضي لي حوائجي، لا يغرك شكلها فهي بمائة رجل، لا تقصر في أمر تطلبه منها ويكون في يدها تنفيذه.

لن أنبس بحرف وهو ينظر لي متأملاً ملامحي المندهشة من طبيعة هذه العلاقة. فتابع هو قائلاً:

- لا تنظر لي هكذا، ما بيني وبينها قد يكون أقوى من مشاعر الحب، إنه الدفء والإيناس، لا تقلق هي لا تبيت هنا.

ثم شتمني عندما لاحظ صمتي قبل أن أقول:

- أنت حر في حياتك لا دخل لي بخصوصياتك.

أنهينا حديثنا ولزمنا الصمت عندما دخلت سوسن تحمل الأطباق والعيش، ولم تمر وهلة حتى تربعتْ على الأرض بجوار ما وضعته من أصناف وهي تقول:

- بصلة المحب خروف.

سحبني سليم من يدي لأجلس وهو يقول:

- سم الله.

كان الطعام لذيذًا رغم كل هذا، وبدت سوسن كمكوك متحرك بعد الإفطار وراحت تنظف الشقة في حماسة وعندما انتهت كانت تنهج بشدة وعادت لتجلس بجوار سليم على الكنبة وهي تقول له أنها ستذهب لأمها وستغيب عنه لمدة أسبوع وستعود، ودعتنا سوسن بعد أن نشرت نوعًا من البهجة بعدما راح سليم يطبل لها وهي ترقص بجسدها الضخم بدلال وغنج، وكأنها أخذتْ الإذن بزيارة أمها بهذه الرقصة.

أخذ سليم يداعب الجيتار بيده ويطلق كل فترة نغمة شاذة وهو ينظر لي، كأن أشعر بحاجة ماسة لعدم الكلام الآن، ترك سليم الجيتار وراح يلف سيجارة حشيش، أخذ أول نفسين، ومد يده بها إليّ، هززت رأسي بلا، فأعاد السيجارة لفمه وراح يمج الدخان وينفثه في الهواء بنشوة وتلذذ، ثم قال فجأة:

- إذن فقد اختفت هبة سالم حبيبتك، واختفت نجوان حبيبتك أيضًا، وأنت لا تكلم إلهام حبيبتك أيضًا، وترفض داليا التي تحبك أيضًا، أتسمح لي أن أقول... أمك، من تظن نفسك كازانوفا القرن العشرين.

- سليم لا أسمح لك.

- تسمح أو لا تسمح، سليم ماذا؟ ما هذا الهراء الذي تعيش فيه أو توهم نفسك أنك تعيش فيه.

- سليم لا تجعل سيجارة الحشيش تذهب عقلك.

- عقلي! عقلي أنا يا صديقي، قل لي عمن أبحث لك عن مكانه؟ هل عن العطار الذي قلت لي عنه أم ذاك الرجل والد نجوان؟ أم؟ أم؟ هه؟

- لا أريدك أن تبحث لي عن أحد، كل ما أريده يومين فقط لديك أو من الأفضل أن أنصرف الآن.

هممت بالانصراف فعلاً، سحبني سليم من يدي لأجلس وهو يمد لي بيده الأخرى سيجارة الحشيش، هززت رأسي للمرة الثانية بلا، فقال وهو يسحب آخر نفس:

- لا تغضب مني أنت تعلم ما أكنه لك بصدري من حب، وما حكيته أمس لي، جعلني أغضب من أجلك فأنت بهذه الطريقة ستصاب بالجنون، لا أحد يفعل ما تفعله.

- العجيب أنك تحفظ تفاصيل ما حكيته، بل أنا نفسي شككت أني حكيت لك كل هذه التفاصيل، رغم أني كنت أظن أنك لم تسمعني تقريبًا.

- من قال هذا؟ بالعكس ولكن كنت أفكر في حل لكل هذا المعضلات التي أنت فيها، على العموم أترك لي يومين ومؤكد سنصل لشيء يرضيك، بشرط أن تحدد أنت هذا الشيء منذ الآن، اختر شخصًا واحدًا نكثف جهودنا للبحث عنه وبعدها نرى.

لم يكن لدي ما أقوله فهززت رأسي بالموافقة، بينما راح عقلي يدور في رأسي بسرعة موتور طائرة نفاثة، والصور تتتابع على عقلي بلا توقف وساد هدوء خارجي، بينما بداخلي كنت مشتعلاً وهناك مراجل تغلي في كياني كل ثانية.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٢)

كنت مشبعًا بالكآبة لأقصى حد، مرّ يومان ولم يتبق غير يوم واحد لأترك الشقة، لا أثر لمنال وكأنها كانت قطعة من الخيال، لم يرد فتحي عليّ رغم كثرة اتصالاتي التي تجاوزت المائة اتصال في يومين، هبة سالم المختفية الآن هي الأخرى لا ترد على تليفوناتي، يأتيني رنين هاتفها وكل مرة أمني نفسي بأنها سترد ولا يحدث هذا، كل ما كنت أرغبه أن أعرف لماذا ابتعدت واختفت هكذا؟ ما الذي حدث؟

كنت أقضي الوقت بصحبة سليم، في الليل يأخذني معه إلى تلك الحفلات التي يرتادها هو وفرقته، أمس عامل الطبلة أعطاها لي لأحملها مكانه وأدخل بها للمسرح لأنه يريد أن يفرغ مثانته، الوضع أصبح مثيرًا للغثيان بالنسبة لي. طوال اليومين السابقين وأنا أمني نفسي بأن يحدث شيء يغير الصورة كليًا، هناك شيء غامض بداخلي يقول أن الأمر لا يصح أن ينتهي هكذا، هناك نقطة مفقودة، نقطة أقف عندها لحل كل هذه الألغاز، شعرت بروحي وكأني مربوط بخيط غير مرئي بأشياء لا أعرفها، شعرت أني تحولت لتلك اللعبة الخشبية «بينوكيو» وهناك من يربطني بسلاسل ليحركني كيف يشاء، سيأتي وقت سأقطع تلك الخيوط الواهية وسأنطلق غير عابئ بأي شيء، لن أكون لعبة في يد منال أو هبة أو أي أحد، تحسست أنفي ضاحكًا!

اللعنة على الأفكار التي تزيديني تخبطًا وتحطيمًا، اللعنة عليهم جميعًا!

كانت سورة غضبي مزيفة، هذا ما شعرته بداخلي في لحظات، غضبي مثلي. غضب مزيف لا حقيقة وراءه بل وهم، وهم أصر أنا أن أضع نفسي فيه، بل أن أخوض حروبًا من أجله؛ ليذهب الجميع إلى الجحيم! ما الجديد الذي سيحدث لي؟

«طظ» أطلقتها مدوية من بين شفتي وأنا أركب الميكروباص، نظر لي الركاب لوهلة ثم عادوا لخيالاتهم وحياتهم المزيفة، الكل يمثل أنه يعيش ويعمل ويربي أجيالاً، الكل يمثل السعادة، بينما كلنا أشخاص مزيفون، تلمح الزيف في عيوننا وحركتنا، بل حتى في نصائح الآباء لأولادهم، الابن يعلم أنها نصائح مزيفة عليه أن يصدرها في وجه الجميع، في وجه المجتمع بأفراده ومؤسساته، وعليه ليلاً أن يأكل نفسه وروحه ليجعلها تصدق تلك النصائح الواهية.

«طظ» مرة أخرى وأنا أهبط من الميكروباص، انطلقت ضحكة من فتاة كانت تجلس ورائي وأنا أغلق باب الميكروباص، فأطلقتُ في وجهها «طظ» أخرى أقوى صوتًا وحدة، وسمعت ضحكات الركاب والميكروباص ينطلق، بينما لوهلة توقفت قبل أن أسير تجاه الشقة لأجمع أشيائي وحاجياتي كما يقول الأدباء.

رحت أضحك وأنا أسير بصورة ملفتة للنظر، ولم يكن لدي قدرة على منع ضحكتي العالية الغريبة، وكأني بالفعل بعد لحظات سوف أصير مجذوبًا جديدًا للإسكندرية.

لم يكن يفصلني عن العمارة سوى عدة أمتار عندما ارتفع رنين هاتفي، كان المتصل سليم، رددت وأنا أقطع الخطوات في اتجاه الشقة، جاءني صوته بنبرة عجيبة وهو يقول:

- أين أنت؟

- في طريقي للشقة المفروشة لأجمع حاجياتي.

جاءني صوته عجيبًا وهو يقول:

- دع هذا لوقت آخر وتعال سريعًا.

قلت في لا مبالاة:

- كلاّ، سأنهي جمع أشيائي، وأسلم الشقة وسوف أجيء إليك.

- لا وقت، تعال إلى المستشفي الأميري الآن، اركب سيارة أجرة وقل له أن يذهب بك للمستشفى الأميري، سأنتظرك.

أغلق الخط قبل أن أفهم منه أي شيء، أينقصني سليم هو الآخر؟ لوهلة ترددت وأردت أن أكمل طريقي تجاه الشقة، ولكن دافعًا

ما جعلني أعود لنهاية الشارع وأشير لسيارات الأجرة العابرة، مرت دقيقتان قبل أن تتوقف لي سيارة، ركبتها وقلت للسائق اتجاهي؛ لأنتظر لأفهم، هل أصاب سليم شيء؟ صوته لم يقل هذا. مؤكد الأمر مهم وإلا ما جعلني أغير وجهتي بهذه الصورة، الساعة تقترب من التاسعة ليلاً، الجو لطيف رغم نسمة برودة بسيطة.

بعد فترة وجدت السائق يتوقف أمام المستشفى الأميري، تطلعت للمبنى قبل أن أهبط من السيارة وأتلفت حولي، ما الذي عليَّ فعله الآن؟ هل أسأل في الاستقبال عن سليم؟ لم يأخذ تفكيري منحنيات جديدة فقد ظهر سليم يدخن سيجارة على باب المستشفى، اقتربت منه وفي عيني تطل التساؤلات.

رآني فتقدم مني وهو يرمي السيجارة أرضًا ويدوسها بقدمه، ومد يده ليأخذ يدي وهو يقول:

- لا أعرف إذا كان يعيش أم لا؟

- من هو؟

كان يجيبني وهو يسحبني لنقطع ممرات المستشفى:

- فريد العطار ألم تكن تبحث عنه؟ حقيقة أني أردت مساعدتك والبحث عن مراد الشناوي، لكن بالصدفة التقيت بصديق كان يداوم

الجلوس على ذاك المقهى الذي أعطيتني أنت عنوانه وكنت تقابل فيه العطار، فقال لي أن الرجل سقط فجأة في الشارع، وأولاد الحلال جاءوا به لهنا، جلطة دماغية، وعندما تأكدت أنه هو اتصلت بك.

للحظة أردت أن أسحب يدي من يد سليم وأغادر المكان، فما الذي في يدي لأفعله لفريد العطار؟ إني تقريبًا لا أعرفه، وإذا لم أكن مهتمًا به لماذا كنت أبحث عنه؟ مشاعر مختلطة وغبية راحت تزاحمني، بعد لحظة كنا ندخل غرفة ضيقة. كان هناك ثلاثة أسرة وتبدو الغرفة في حالة يرثى لها، تطلعت للراقدين قبل أن يقترب نبيل من أحد الأسرة ويشير للشخص المسجى وهو يقول:

- اقترب، هو، أليس كذلك؟

تطلعت لوجه فريد العطار الذي بدا شاحبًا ومنهكًا لأقصى درجة وأنا أومئ برأسي وأقول:

- أليس معه أحد؟

قال سليم:

- لقد سألت الممرضات، حتى الآن لم يسأل عليه أحد غيري.

لم أعرف لماذا جلست على طرف الفراش وأخذت يد فريد العطار بين يدي ورحت أربت عليها، تطلع سليم لي وقال:

– سأتركك معه الآن لو أحببت، وسأتصل بك لأعرف مكانك بعد أن أنتهي من حفلة السهرة، هل تريد شيئًا مني؟

لم أعرف بما أجيب سليم، ولكني أشرت بيدي أن ينصرف، غادر سليم الغرفة وتركني مع فريد العطار، حقيقة لم يكن في عقلي شيء أفعله له، سوى الانتظار. رحت أتطلع لمعالم وجهه وقلبي وعقلي يتساءلان، ما الذي يربطني بهذا الرجل حقًا؟

●●●

لم أعرف كيف غفوت في جلستي بجوار فريد العطار، كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا عندما دخلت ممرضة للغرفة لتعلق محلولاً للعطار، فوجئت بوجودي، فهزتني من كتفي بخشونة غير مبررة، تطلعت لوجهها وعينيها المتحفزتين وهي تسألني من أنا، وما الذي يجعلني متواجدًا للآن هنا، قلت لها أني صديق للمريض، قالت ممنوع التواجد ويجب عليَّ الانصراف، حاولت أن أتمسك بتواجدي بجوار العطار، ولكنها قالت إذا لم أغادر الغرفة ستضطر لإبلاغ الأمن، وجودي مسئولية هي لا تتحملها، بعد مناهدة طالت بيننا قالت إذا كنت أرغب بالتواجد مع المريض فيجب دفع مبلغ ونقله لدور آخر حيث الجناح الاقتصادي أو كما يسمونه أحيانًا الجناح الفندقي، سألت عن قيمة المبلغ المطلوب، قالت ألف وخمسمائة جنيه على الأقل

مبدئيًا، لم أعرف بما أجيبها فلم يكن بحوزتي هذا المبلغ الآن فكل المتبقي معي نحو ستمائة جنيه، غادرت المستشفى في الثالثة والنصف صباحًا تقريبًا، كان الجو شديد البرودة وريح خفيفة راحت تضرب وجهي، أحكمت غلق الجاكت على جسدي وأنا أسير بجوار المستشفى، شيء بداخلي يجعلني أخجل أن أترك العطار هكذا، وفي نفس الوقت لا أعرف كيف أتصرف؟! حاولت الاتصال بمنال ربما أحصل منها على جزء تحت الحساب، ولكن تليفونها لا يزال مغلقًا أو ربما هي قامت بحظري من سجل الهاتف، هبة تليفونها يواصل الرنين ولا ترد، فلم يعد أمامي سوى الاتصال بسليم، رد سليم بعد ثالث مرة تقريبًا، أخبرته أني أحتاج ألف وخمسمائة جنيه، فضحك وهو يسبني ويقول إن آخري معه عشاء محترم وسيجارتين حشيش فهو يعيش اليوم بيومه كما أعلم ولا يملك سوى مائتين جنيه في جيبه الآن وأنه سالف من طوب الأرض، أعلم صدق سليم فأخواته البنات ضحكوا عليه بعد موت أبيهم، هن وأخوه الأكبر الذي يعيش في الخارج الآن، كل ما أخذه سليم هو تلك الشقة القديمة التي يعيش فيها الآن، فلم يكن هناك داع لأضغط عليه أكثر من هذا، سألني متى سأعود لشقته فهو في طريقه لها الآن، لم أعرف بما أجيبه وفي النهاية قلت له أني بخير وسأعود وقتما أتصرف في المبلغ، أغلق الخط وهو يسبني كعادته.

دخلت إلى أول مقهى قابلني، وقررت أن أمضي فيه بقية الليل.

في السابعة صباحًا كنت أغادر المقهى بعد أن شربت عدة فناجين من القهوة، لم يعد هناك حل أمامي سوى أن أبيع تليفوني المحمول الجديد، سأحاول ألاّ أخسر فيه كثيرًا وهو سيغطي بالتأكيد الألف وخمسمائة جنيه المطلوبة، فاتورته ما زالت في جيبي حبرها لم ينشف بعد كما يقال.

كنت قد تركت هاتفي القديم في الشقة المفروشة، لا وقت الآن سأحتفظ بالشريحة أو أشتري هاتفًا آخر من نوع قديم بمائتي جنيه، قررت أن أشتري هاتفًا عاديًا حتى لا أقطع صلتي بالعالم، وضحكت وأنا أتصور أن كل ما يجعلني متصلاً بالعالم هو قطعة من الحديد، هكذا صارت الدنيا!

كنت أشعر بسيل مختلط من المشاعر يجرف كل شيء، حياتي، وأحلامي، شخصيات رواياتي، الشوارع المحيطة بي، والمارة، أصدقائي، حتى حبات المطر التي راحت تتزايد وتضرب جبهتي.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحًا عندما وفقت في بيع هاتفي المحمول الجديد، خسرت كثيرًا، ولكن المبلغ المتبقي معي مع المبلغ الذي أعطاني إياه المشتري يسمح لي بأن أنقل العطار لغرفة خاصة بمرافق وقد يكفيني لعدة أيام حتى أتصرف.

في الواحدة ظهرًا كنا ننقل فريد العطار إلى الغرفة الجديدة، وأتلقى روشتة علاج من الطبيب يجب عليَّ جلبها من خارج المستشفى، فصيدلية المستشفى بالكاد تحتوي على أدوية لا تذكر ومحاليل.

راح المبلغ يتسرب من بين يدي بسرعة عجيبة، أحضرت بعض الأكل فقد تذكرت أني لم أتناول لقمة تقريبًا منذ الأمس.

سليم جاء للمستشفى في السابعة مساء بعدما حاول الاتصال بي وتليفوني مغلق، جاء ليعاتبني على غلق هاتفي وفوجئ بأني بعته ولم أشتر آخر، أجلت شراء التليفون لوقت يسمح، شرحت له أني سأظل مرافقًا للعطار حتى يفيق، سبني كعادته وقال أني أحشر نفسي في أشياء لا تخصني، وقال أنه سيحاول الوصول إلى أهله فهم أولى برعايته مني، وانصرف بعد مشادة كلامية بسيطة بيننا على وعد أنه سيأتي غدًا مرة أخرى ليرى كيف سارت الأخبار؟

جو المستشفى مقبض، فلم أحب المستشفيات يومًا في حياتي، ودومًا متوجس منها وكأنها الطريق الحقيقي تجاه القبر، لا أثق في المستشفيات عمومًا فما بالك بمستشفى حكومي يعج بالفوضى وترى المرضى ينامون في العراء أو في الممرات في حلم أن يخلو لهم سرير أو تفتح لهم غرفة العمليات.

كنت قد جلبت رزمة أوراق وأقلام وقلت لنفسي لأعود لطريقتي القديمة في الكتابة قبل تعودي على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، صمت سادر يجعل الكلمات سهلة الوصول، صفحات راحت تمتلئ بالكلمات والشخصيات، أشطب سطورًا وأعيد كتابتها، أنمق حوارًا، ثم أشطبه، أنظر للعطار النائم وكأنه شيطان الكتابة الخاص بي الآن، في الساعة الثالثة ليلاً كنت قد كتبت فوق العشرين ورقة، وكان العطار يتململ في فراشه ويئن متوجعًا، ثم فتح عينيه، ونظر لي بعينين خابيتين عندما كنت أحدق في وجهه، وبدا وكأنه تعرفني، وراح يتمتم بصوت هامس، قربت أذني من فمه، فوجدته يعاتبني على سفري للخارج وعدم سؤالي عليه لمدة ست سنوات، جمعت بعد وهلة أنه يظنني ابنه الذي فهمت من خلال همسه أنه سافر ولم يسأل عنه لمدة ست سنوات ولو بسؤال، ثم عاد العطار لغيبوبته، حضرت الممرضة بعدما خرجت لاستدعائها وقلت لها أنه فتح عينيه ولكنه لم يعرفني وظنني شخصًا آخر، قالت لا بأس بهذا فهو مع الوقت سيتحسن، الطبيب أيضًا الليلي قال نفس الكلام عندما هبطت إليه لأسأله.

تكررت عودة العطار للإفاقة عدة مرات تلك الليلة، وفي كل مرة كان يخاطبني كابنه ويعاتبني مرة بغضب ضعيف ومرة بأبوة وحنو ومرة باستنكار مرير.

كانت ليلة طويلة حقًا، ولكني كنت معتاد السهر، ولم يكن يشغلني أن أمكث بجوار العطار طوال الليل.

أحاول طوال الوقت أن أظل يقظًا لأي حركة منه على أمل أنه سيفيق هذه المرة ويعرفني حقًا حتى أطمئن على الأقل أنه سيعود لحالته الطبيعية، وراحت الأوراق أمامي تتزايد وأنا أطارد الكلمات والجمل والشخصيات بحماسة، وصورة نجوان تتواتر في مخيلتي كل ثانية مبتسمة تارة وغاضبة تارة أخرى وكأنها تعاتبني أني لم أصل لمكانها حتى الآن، وانشغلت عنها، وحنيني إليها متقد لأقصى حد ويشعل كياني كله بلا رجاء أو أمل قريب..

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٣)

لم أتعرف بسهولة على نفسي بعدما نظرت في المرآة بعد عشرة أيام قضيتها في المستشفى بصحبة العطار، كانت ذقني قد طالت، وظهر سواد أسفل العينين.

في الدراما قد أقول أو أدعي أن العطار قد مات، أو لأكسب قارئًا قد أقول أنه قد فاق ولكنه خرب الذاكرة، ظن أني ابنه، فلجأت للخيال واستحليت اللعبة، فأخذته إلى بيته، وفي شقته ارتميت على سرير ابنه في غرفته، وتطلعت للسقف متخيلاً أني سآخذ العطار غدًا للشهر العقاري ليكتب لي الشقة وأستقر في الإسكندرية إلى الأبد.

ولكن كل هذا ليس حقيقة، فالذي حدث أنه بعد أربعة أيام من مكوثي بجانبه، فاق وتعرف عليَّ، واعتذر عما سببه لي حتى الآن من ألم، قلت حينها أهم شيء أن تقف على قدميك.. وبالفعل وقف على قدميه في اليوم الخامس، باقي الأيام الخمسة قضيناها في أحاديث متفرقة غير مهمة لأحدنا ولكننا كنا نملأ الفراغ المحيط بنا، وأثناء نومه عكفت على ملء أوراقي بالرواية وشخصياتها والتعديلات بعدما طمأنني الدكتور أن الأزمة مرت على خير وكتب له عدة أدوية ليواظب عليها، أظن أني أحتاج أسبوعين آخرين وأنتهي، وتبدأ رحلة البحث عن منال وفتحي لأنهي الصفقة، اليوم أوصلت العطار إلى

بيته، واطمأننت عليه وأن كل شيء سيكون على ما يرام، زارني سليم في المستشفى عدة مرات وفي المرة الأخيرة جلب لي خمسمائة جنيه وهاتفه القديم لأستعمله. أخذته منه شاكرًا، ولكن لوقتنا هذا لم أضع به الشريحة، انفصلت عن العالم كليًا، ربما كنت أتحجج بالعطار وحاجته إليَّ، ولكن الحقيقة هي أني كنت محتاجًا لوقت مع نفسي ومع الرواية وشخصياتها، ولوقت آخر مع خيالاتي المجنونة وشوقي المتقد تجاه نجوان، التي صار احتياجي لمعرفة مكانها لا بديل عنه بأية حال.

وعدني العطار أنه عندما يعود لحالته الأولى سيكون كل وقته وجهده لي لكي يصل لمكان الشناوي أومأت برأسي وقتها وكانت عيناه تنطقان بالعزم وأنا أقوله له المهم أن تعود أفضل مما كنت الآن وبعدها نرى ما سيكون.

غادرت شقة العطار وأنا أحمل كيسًا مليئًا بأوراق الرواية، شعرت وأنا بالشارع أن كل الأبواب قد سُدّت في وجهي، المبلغ المتبقي معي بالكاد ثمن تذكرة للقاهرة، سأعود كما جئت مكبلاً بالخيبة والفشل، عليَّ أن أمر على الشقة المفروشة مؤكد أن خميس قد جمع حاجياتي التي كانت بالداخل، عشرة أيام مختف بالتأكيد جعل صاحب الشقة يستردها، لم أحاول من قبل الاتصال بخميس أو غيره، سأستقل ميكروباصًا إلى أقرب شارع للشقة وسأكمل الباقي مشيًا، يجب أن

أحافظ على كل قرش معي الآن وحتى وصولي للقاهرة، وهناك ربما جدت في الأمور أمور.

لماذا عشت دور النبيل مع العطار؟ لِمَ لمْ أهرب من المسئولية؟ ربما الآن كنت انتهيت من كثير من الأمور المعلقة، الكيس الذي أحمله بيدي ويحوي أوراق الرواية قلت إنه مكافأتي على مكوثي وعدم تخليني عن العطار.

أهبط من الميكروباص الذي ركبته منذ قليل، الشوارع تتشابه عليَّ كالعادة، لكني كنت قد حفظت عنوان الشقة وطريقي إليها، أصبحت أهتم بتفاصيل المكان وذكرياته ولو لوقت قصير حتى تمر تلك الأيام بمحنتها.

أقترب من العمارة، أختلس نظرات سريعة للبوابة لعلي أرى خميس، لا أثر له. أمام باب العمارة أقف وأنادي باسمه، عدة مرات ناديت، حتى وجدت صوته يجيبني وهو يهبط السلالم، كان وجهه باشًا وهو يضحك في وجهي ويقول: حمدًا لله على السلامة، سألته بسرعة وبكلمات مقتضبة عن أشيائي وأين يحتفظ بها. نظر لي نظرة غير فاهم وهو يقول أن كل شيء بالشقة كما هو، لقد جاءه الأستاذ فتحي قبل انقضاء الشهر وقد دفع شهرين مقدمًا بعد أن صعد للشقة وهبط بعد أن رن الجرس عدة مرات ولم يجدني، فوجئت أن الشقة

ما زالت على اسمي، وأكد خميس أن عليَّ الاتصال بالأستاذ فتحي لأنه يوميًا يسأل عني هل عدت أم لا؟

وجدت نفسي أودع خميس وأنا شبه مبتسم، على الأقل أستطيع الصعود لأستحم وأغير ملابسي وأحلق ذقني.

دخلت الشقة بخطوات بليدة، نظرت في الأرجاء.. كل شيء على وضعه كما تركته، اللاب توب مكانه على الترابيزة كما في السابق، ملابسي التي قلعتها في الصالة كما هي، لم يدخل الشقة أحد منذ غادرتها.

توجهت لغرفة النوم، أخذت غيارًا نظيفًا من الدولاب، واتجهت للحمام، قبل دخولي وضعت شريحة الهاتف داخله، ووضعته على الشاحن، شاحني القديم مناسب له، فهو من نفس النوع تقريبًا، كنت قد نسيت أين وضعت هاتفي القديم، سأبحث عنه لاحقًا.

تركت الماء الساخن ينسال عليَّ لمدة طويلة، حتى شعرت ببرودة الماء وأن مياه السخان الساخنة قد خلصت، قفلت الدش وسارعت بتجفيف جسدي، ورحت أرتدي ملابسي في الحمام، ووضعت الفوطة على المشجب خلف الباب لتجف.

تطلعت للهاتف وفتحته، ثم اتجهت للمطبخ فتحت الثلاجة، وجدتها عامرة بالمعلبات والمياه الغازية وأطباق من الجبنة الرومي

واللانشون، وزجاجتي بيرة. إذن هناك من دخل الشقة في غيابي وملأ الثلاجة، هل عادت هبة ولم تجدني ففعلت هذا؟ أتذكر أن معها مفتاحًا للشقة.

سأتصل بها لأشكرها على الأقل لملئها الثلاجة، كانت هناك عدة رسائل توضح من اتصل بي فترة غيابي، سليم كان قد اتصل عدة مرات، وفوجئت باتصالات عديدة من فتحي، حتى داليا وجدت أنها اتصلت بي أكثر من خمس مرات، ما الذي تريده داليا؟ الغريب أني لم أجد أي اتصال من هبة، حتى إلهام وجدت أنها اتصلت عدة مرات.

وهناك رقم غريب غير مسجل عندي اتصل أكثر من مرة، ربما كانت هبة، لم أعط لنفسي فرصة للتفكير وأنا أضغط زر الاتصال بالرقم الذي لا أعرف صاحبه، سمعت رنين الجرس عدة مرات ولم يجبني أحد حتى انقطاع الرنين. وعندما هممت بمعاودة الاتصال وجدت فتحي يتصل بي، ضغطت زر استقبال المكالمة، وجدت صوته مرحًا مشوبًا بالقلق وهو يقول: أخيرًا ظهرت يا بطل أين اختفيت كل هذا؟ وأين أنت الآن؟ أجبته أني كنت بجوار صديق يمرّ بمحنة مرضية وقد شفي الآن وعدت للشقة، وحقيقة لم أتصور أن تكون الشقة للآن شاغرة وعلى اسمي، جاءت ضحكته عالية وقال أنه آسف للفترة التي لم يكن يرد عليَّ فيها فقد سافر للقاهرة لأمر هام، ونسي هاتفه في البيت، وأخيرًا قال أنه أتى للشقة وملأ الثلاجة ببعض الاحتياجات

الأولية، وأنه فتح اللاب توب ورأى التحديثات في الرواية، وقد أرسل ملف التحديثات لمنال وهي سعيدة للغاية، وقال أنها حاولت الاتصال بي عدة مرات لتخبرني بنفسها، ولكن هاتفي كان مغلقًا، وطلب أن يقابلني ليدفع جزءًا جديدًا من حقي، وأكد أنه لا داعي لنزولي من الشقة وأنه سيأتي بنفسه.

اتضحت الرؤية لي، كنت قد أخرجت بعض الطعام من الثلاجة ورحت آكل في نهم، لم تمر دقائق حتى وجدت النمرة الغريبة تتصل بي، كانت منال، أخبرتني أنها نمرتها الجديدة فقد غيرت الرقم بسبب شخص غبي يطاردها بحبه، وأنها أقفلت حسابها على الفيس بوك لفترة بسبب هذا الشخص الذي كلما عملت له حظرًا، أنشأ حسابًا جديدًا وراح يزعجها، لم أرد أن أسألها عن هذا الشخص أو غيره، هنأتني على التعديلات التي وصلتها من الرواية، وقالت أنها أدركت أني سأخرج تحفة فنية لا مثيل لها، طمأنتها أني خلال غيابي شبه انتهيت من مسودة أولى نهائية، خطوط رئيسية بسيطة وينتهي كل شيء، قالت أنها تعتمد عليَّ، وأي شيء أريده لا أحرج وأطلبه منها أو من فتحي مباشرة إذا لم أستطع الوصول إليها أو كان تليفونها مغلقًا، ودعتني بقبلة وهي تطلب مني تسجيل الرقم الجديد لدي، فهو للمحظوظين فقط، وسمعت ضحكتها رنانة عالية مليئة بالأنوثة وهي تنهي الاتصال، لم أصدق منال في كل كلامها، شيء بداخلي كان

يقول أنها أرادت معاقبتي لأنهي ما بدأته بسرعة، وفوجئتْ بالأجزاء الجديدة التي أرسلها لها فتحي فقررت الاستمرار معي، الشك قاتل ولكن نظرية المؤامرة أصبحت شيئًا رئيسيًا في حياتي الآن، للحظات كثيرة ظننت أن الكون نفسه يتآمر عليّ. ليكن!

انتهيت من الأكل، ورحت أعيد الأطباق للمطبخ، ووضعت البراد على النار، ولقمت كوب الشاي ووقفت أنتظر غليان الماء، صببت الشاي وخرجت للصالة عندما ارتفع رنين جرس الباب، ذهبت لأفتح، كان فتحي يقف مبتسمًا في بلادة، أفسحت له الطريق للداخل، تقريبًا لم أكن أسمعه وهو يرحب بعودتي. جلس على المائدة وأخرج محفظته وراح يخرج منها أوراقًا نقدية، قال بعد أن وضع النقود بجوار اللاب توب، ألفان ونصف من الجنيهات دفعة جديدة وإذا احتجت شيئًا عليك بطلبه مني دون تردد.

لمحت عينيه تتوقفان على الكيس الذي خرجت منه أوراق الروية المكتوبة بخط اليد، لم يمهلني لحظة ولم يتردد وهو يسحب الأوراق ويقلبها ويفرها بين يديه، قبل أن يقول: هائل، اسمح لي أن آخذها معي سأجعل مكتب كمبيوتر يكتبها وأرسلها لك على البريد الإلكتروني لتجري أية تعديلات جديدة ترغبها.

كنت أريد أن أقول كلاّ، أو أدعي أنها رواية أخرى، ولكن من الجلي أنه يعرف أنها نفس الرواية المطلوبة مني، فصمت، وقف وهو يجمع الأوراق بين يديه ويضعها في الكيس مرة أخرى، وانصرف وهو يقول: غدًا ليلاً بالكثير ستكون موجودة على البريد الإلكتروني لك، وسأجلب لك الأصل بنفسي.

فصمتُ مرة أخرى ولم أنبس بحرف وهو يغادر الشقة مبتسمًا نفس الابتسامة البليدة الخائبة.

اتجهت لغرفة النوم، واتجهت للسرير ورميت نفسي عليه؛ لأذهب في النوم وأحلام كثيرة تراودني، فقد عدنا للنقطة صفر، نقطة البداية، وكان عقلي منشغلاً بالبحث عن صورة نجوان في تلافيف مخي حتى غفوت.

●●●

حينما استيقظت ألقيت نظرة دهشة حولي، كنت قد غرقت في أحلام كثيرة متضاربة أحاول تذكرها فأفشل، أعيد المحاولة بلا فائدة، لم أع أني أفقت حقًا إلاّ على جرس هاتفي المحمول، لم تكن ساعة الهاتف مضبوطة، ولم أكن قد غادرت الفراش بعد، كسل لذيذ ربما أو استسلام للراحة بعد إجهاد أيام المستشفى.

كان المتصل هو سليم، ضغطت زر استقبال المكالمة، فوجدت السباب ينهال عليَّ، قال أنه ذهب للمستشفى ولم يجدني وظل قلقًا عليَّ لأني لم أعد لشقته، وسألني أين ذهبت؟ بلعت شتيمته لي كالعادة، ولكني فوجئت أني أشتمه ليهدأ ويسمع ما جرى، قلت له أني عدت للشقة المفروشة التي كنت أسكنها قبل مجيئي إليه، حاول أن يفهم من دفع لي إيجار الشقة، فبلعت استفساره وأخبرته أن هذا لا يهمه، فضحك وهو يسبني قائلاً إذا كان الأمر هكذا فلأدفع الخمسمائة جنيه التي أخذتهم منه، أعرف أن سليم يغيظني لردي الجاف عليه، ولكنه حقه فعلاً ولذا فالمبلغ لدي الآن وأكثر فلا مانع من رده، قلت له ليأت ليأخذه فأنا في حالة لا تسمح لي بالنزول، هدأ صوته وهو يسألني هل أنا مريض؟ أجبته بأن كل شيء على ما يرام، وأنهى كلامه إن كان الأمر بهذه الصورة فعلي أن أمليه عنوان الشقة أو أصف له مكانها، أخبرته بالعنوان وقلت له أني سأنتظره، لم يفتني أن أسأله عن الساعة الآن، قال أنها جاوزت الرابعة عصرًا، أكل هذا الوقت قضيته نائمًا؟!

خرجت للصالة أخذت اللاب توب ودخلت للغرفة، أعدت تشغيله، بعد دقائق فتحت حسابي الإلكتروني ورحت أرى الرسائل، كانت معظمها رسائل من جروبات إعلانية، أخبار لا تهمني من قريب أو بعيد، دخلت على حسابي على الفيسبوك، تطلعت لصندوق

الرسائل، وجدت رسالة من إلهام تقول إن عليَّ أن أكلمها ضروري، أرسلت ردًا أني بخير وسأكلمها عندما تحين الفرصة لذلك. ردت بعد دقيقة وكأنها كانت تنتظر رسالتي تسألني عن أخباري وأين أنا، وهل سأظل ألعب لعبة الاختفاء هذه كثيرًا؟! أرسلت لها أني أحتاج للهدوء وسأكلمها فلا تقلق عليَّ، للحظة ظننت أنها ستسبني ولكنها أرسلت كلمة واحدة: «طيب». أحيانًا أشعر أني ظلمت إلهام معي، مجنونة هي من تفكر الارتباط بكاتب، سيحول حياتها لجحيم من جنونه وشطحاته ونزواته الغبية.

رن هاتفي نظرت للرقم المتصل كان فتحي، تركت الهاتف يرن لمدة وقبل أن يصمت جرسه رددت، قال وهو يسمع صوتي: أكنت نائمًا؟ أجبته بلا، فقال: لا يهم، المهم أنه سيرسل لي الأوراق الذي أخذها أمس مني مكتوبة كمبيوتر على الحساب الإلكتروني الآن، فعليَّ أن أفتحه وأنزل الملف وأرى إذا كان هناك شيء ناقص أم كل شيء على ما يرام، أغلقت المكالمة أني سأفعل.

رجعت لبريدي الإلكتروني وعملت تحديثًا للصفحة، وجدت بالفعل الملف مرفق بعنوان رسالة بالأوراق من فتحي، فقمت بإنزال الملف، وأخذت أقرأ المكتوب وأنا في مكاني على الفراش، مرت ساعتان تقريبًا وأنا أقرأ وأعيد أحيانًا ضبط بعض الجمل والسطور، وتغيير بعض الكلمات، كنت راضيًا لحد كبير لما وصلت إليه للآن في الرواية،

ولو استمر الأمر هكذا في المجمل ستكون رواية متماسكة قد تحقق لمنال ما تصبو إليه.

كنت قد بدأت أشعر بالجوع، قمت من الفراش للمطبخ، فتحت الثلاجة كان بداخلها عدد من علب التونة أخرجت علبتين فتحتهما، بحثت في المطبخ عن بصل فلم أجد، اكتفيت بعلبتي التونة والمخلل ورغيفين سخنتهما وقفت آكل على رخامة المطبخ، وبعد دقائق كنت أصب الشاي وآخذه في يدي وأعود لغرفة النوم، واخترت فيلمًا ورحت أتفرج في هدوء تام، كنت أريد أن أطرد كل الخيالات والتصورات من ذهني، كنت في حاجة إلى تصفية الذهن بأية طريقة، أوقفت الفيلم في نصفه تقريبًا واتصلت بفريد العطار، جاءني صوته ضعيفًا ولكنه متماسك قال أنه بخير، وأستطيع زيارته في أي وقت، بالفعل هذه المرة سجلت عنوان العطار في مفكرتي فلم أعد في حمل مفاجأة أخرى من نسيان العناوين.

عاودت بعدها الاتصال بهبة، لم أتلق ردًا وظل رنين الهاتف ككل مرة يتواصل حتى ينتهي، عدت لمحاولة استكمال الفيلم.

رن جرس الباب بعد فترة فأوقفت الفيلم واتجهت لأفتحه.

كان على الباب سليم وبصحبته سوسن، ابتسم ابتسامة غريبة وهو يدخل وسوسن تردفه.

تطلع للشقة قبل أن يقول: أهذا مخبأك الآن؟

قلت بهدوء:

- تفضلا بالجلوس.

جلست سوسن ووضعت ساقًا على ساق فبدا منظرها شائهًا بمكياجها الصارخ وادعائها الهدوء قال سليم:

- لم نأت لنجلس.

وتابع النظر لي وللشقة وهو يقول:

- ما هذا المنظر الذي أنت فيه؟ وما كل هذه الذقن؟ أأصبحت داعشيًا؟

لم يعطني وقتًا لأجيبه وهو يقول لسوسن، الشقة تحتاج لنظافة، وقفت سوسن وشمرت عن ساعديها كما يقولون، وانطلقت في الشقة لتنظفها كمهر جامح لا يوقفه شيء، شدني سليم من يدي لأجلس وهو يقول:

- ما الذي تنوي أن تفعله الآن؟

- عن أي شيء تتحدث؟ «هكذا قلت»

- عن حالتك الآن وما قبلها، أول شيء ناولني الخمسمائة جنيه.

obeikandl.com

قمت وجلبت له الخمسمائة جنيه، أطلق صفيرًا وهو يضعهم في جيبه ويقول:

- والآن هل ترغب في استكمال بحثك عن مراد الشناوي أم اكتفيت بما حدث لك في السابق بسبب تدخلك في حياة الآخرين؟

- بالطبع أرغب في معرفة مكانه أكثر من السابق.

- أنت ابن مجانين ولا فائدة منك.

وراح سليم يصب على رأسي شتائمه وأني لا أتعلم من أخطائي، قضينا نصف ساعة تقريبًا أو أكثر قليلاً في أحاديث عادية وثرثرة فارغة، وفي النهاية وقف وهو يسحب سوسن من يديها ويتجه لغرفة النوم، قلت له وأنا أقف قبالته: إلى أين؟

قال وهو يضحك ويرسم على شفتيه ابتسامة عذبة:

- سنرتاح قليلاً وبالمرة نجرب لك خشب السرير.

أوقفته بيدي وأنا أقول وسط ضحكات سوسن المرتفعة:

- آسف لدي عمل كثير ولا وقت لي لهذا التهريج الماسخ.

سبني وهو يغير وجهته مرة أخرى ناحية باب الشقة:

- ليكن! شقتي أولى بنا، الحق عليَّ كنت أريد أن أزفر لك الشقة.

ودعتهما على الباب وأنا أضحك وأتمنى لهما سهرة جميلة، فبرغم كل شيء سليم صديقي ولم يتخل عني من قبل قطّ، قال وهو يودعني أنه سيبحث لي عن هذا الشناوي حتى تنهال مصائب جديدة على رأسي وأحتاج إليه.

شعرت بهدوء وصمت بعد خروجه، كانت سوسن بالفعل قد نظفت الشقة جيدًا، شككت في لحظة أن كل علاقتها بسليم قائمة من أجل هذا فقط، لتنظيف شقته، لا وقت لأشغل بالي بسوسن الآن وغيرها، فما زال أمامي فيلمًا لم أشاهده كله بعد، ودخلت لغرفة النوم وأعدت تشغيل الفيلم، وضبطت نفسي أسرح في أفكار كثيرة لا تفضي لأي شيء، وبدأ ينتابني إحساس بالوحشة وبصورة غير معتادة.

●●●

obeikandl.com

(١٤)

لم يسر الأمر كما خططت له، أسبوع منذ عدت للشقة ولم أكتب حرفًا واحدًا. الشخصيات نفسها بدأت تهرب من أمام عيني أصبحت لها سلطتها الخاصة بها، اكتفت تقريبًا من كثرة حكيي عنها وملتني، هذا من منطق أن شخصياتي أصبحت لها روح وحياة ومنطق الرفض.

حاولت مرارًا وتكرارًا العودة لحالة الكتابة عندما كنت في المستشفى وفشلت حاولت بالورقة والقلم وحاولت باستخدام لوحة مفاتيح الحاسب النقال ولا فائدة، الأمر صار صعبًا حقًا. أدور في الشقة كالثور الهائج، أتطلع للمكان ولعقارب الساعة، أشعر أنها تلدغني ولا تقف في مكانها تفر من أمامي وأنا قابع منتظر الحل، سليم عاود الاتصال بي عدة مرات وعزمني على إحدي الحفلات ولكني لم أذهب، ومرة أخرى قال أنه جلب قطعة حشيش ممتازة وجهز القعدة في بيته لو رغبت في السهر، واعتذرت فسبني وقال أني أرفس النعمة، لم يتوصل سليم لمكان مراد الشناوي، حالة العطار الصحية أصبحت أفضل اطمأننت عليه عدة مرات، قال لي في مرة أنه سيذهب ليجلس في المقهى مرة أخرى فقد مل قعدة البيت، وعزم عليَّ بالمجيء، واعتذرت أيضًا له.

أصبحت مشغولاً بالعالم الافتراضي والفيسبوك ومواقع التواصل المختلفة أضيع كثيرًا من الساعات في تصفح صفحات غريبة، أضع ردودًا لا تمت لقناعاتي بصلة ولكن رغبة في التحرر من نفسي وأفكاري العبثية، أتصل يوميًا بهبة ولا ترد.

منال راضية لحد كبير لما وصلها من أوراق الرواية، فتحي جلب لي الأوراق التي كتبتها بخط يدي في المستشفى وقال إذا احتجت شيئًا مجرد رنة بسيطة وسيكون فوق رأسي، لا أعرف كيف تتحكم منال بفتحي بهذه الصورة؟! ربما كان عشيقها، ولكن هل منال بسطوتها وجمالها وجمهورها تعشق هذا الفتحي؟! مستحيل! ولكن لكل فيما يعشق مذاهب!

أمضيت بضعة أيام في التجول على الكورنيش والانتقال من مقهى لأخر، أتأمل وجوه الناس والمارة، زبائن المقاهي أراقبهم بشغف أتنصت على أحاديثهم، ربما ورد على لسان أحدهم اسم مراد الشناوي، صورة نجوان تطاردني ليل نهار وتؤرقني.

لم أعط لنفسي الفرصة في التفكير كثيرًا وأنا أجمع بعض الأوراق المكتوبة، ودفترًا فارغًا مسطرًا وعدة أقلام وآخذ طريقي لشقة فريد العطار، فوجئ بدقاتي على باب شقته، رحب بي وبش في وجهي وهو يدعوني للدخول، قلت له إن سمح لي سأجلس لديه يومين أو ثلاثة بالكثير، فشقتي أصبحت تخنقني.. فرحب بشدة، لم أعرف

لماذا أصبح جلوسي بجوار العطار وسماعي لصوت شخيره وتنفسه ليلاً هو دافعي للكتابة.

الأمر عاد ليتكرر مرة ثانية، عادت الأوراق البيضاء تمتلئ بسطوري وشخصياتي، لم أعط الفرصة للعطار ليحكي لي القصة التي كان يلح عليّ سابقًا أن يحكيها، هو نفسه فقد الحماسة لهذا.

كان قد استعاد بعضًا من عافيته، ولكنه ما زال مجهدًا، يتناول الدواء في موعده، وخلال مكوثي معه أصبحت أهتم بتذكيره بميعاد الدواء، نزلت معه للمقهى مرتين أو ثلاث، جلب سندوتشات الكبدة الإسكندراني لي عدة مرات من محطة الرمل، كان يصر أن يذهب وحده ويعود وحده ليتركني لأكمل كتابة روايتي. لم يعرف قطّ أني قد بعت الرواية لشخص آخر، بل ومهتم هو باستكمالها وبضراوة، ولم أقل له أنه عندما يتركني في شقته وحدي تهرب الكلمات وتختفي السطور، في المقهى وأنا أجالسه كنت فجأة أكتب بعض الجمل لأضيفها إلى السياق الدرامي للرواية، طلب مني في مرة أن أحكي له عما تدور روايتي، قلت عندما أنتهي سوف أحكي له، وربما استمعت لحكايته التي يرغب أن يصبها في أذني، أخبرني أنه أصبح يهتم بصداقته بي أكثر من حاجته لأذني لسماع حكايته. حاول الاتصال بصديقه الأسيوطي الذي كنت قد نسيته عدة مرات ليعرف هل جد جديد في موضوع عثوره عن عنوان الشناوي، وكانت الإجابة بلا.

عاد العطار لحياته هذه المرة بصورة مختلفة عن عادته سابقًا، عاد ليمد أكثر حبال الود ويربط أواصر الصداقة مع بعض أصدقاء المقهى بقوة، بل أخبرهم بمكان بيته ليسألوا عنه إذ غاب، قالها لي في همس لا أريد أن أموت وحدي فجأة وتتعفن جثتي فلا يعرف موتي إلاّ من الرائحة.

كان فريد العطار قد أصبح أكثر من حيلة لتشغلني عن التفكير في كل ما يجري لي منذ أتيت إلى الإسكندرية، بل إنه في لحظات عديدة شيء بداخلي كان يقول أنه نقطة الرجوع، أو ربما صار نقطة للتملص من ارتباطاتي ووعودي لمنال وفتحي.

منال تتصل لتطمئن فأقول لها أني في أقرب وقت سوف أسلم لها الملف النهائي وستندهش، تقول أنها ستعد لي مفاجأة هائلة لو أسرعت فهي تريد أن تلحق معرض الشارقة القادم، أعدها أني سأحاول بكل جهدي عليها أن تطمئن.

قالت أنها فتحت حسابها مرة أخرى على الفيسبوك، وأنزلت صورًا جديدة وبيدها صفحات من الرواية مطبوعة على طابعة الكمبيوتر، قلت لها أني لست متصلاً الآن بالفيس وفي أقرب فرصة سأدخل لأرى وأهنئها بقرب انتهائها من الرواية، فضحكتْ وقالتْ أنها ستنتظر تهنئتي أنا بالذات دون الآخرين.

أصعب شيء في الوجود أن تصعب عليك نفسك، وقتها يهون كل شيء، حتى الموت يصبح مجرد حدث عابر في الحياة.

كنت أحاول أن أجرجر نفسي في الكلام، أن أقف أمام نفسي وأحاكمها عما تفعله بي، ولكن دومًا أصطدم بحقيقة بأنه لا شيء يستحق، العالم كله لا يستحق أن أشغل بالي به، فهو عالم مجنون حقًا، يريدك أن تنشغل طوال الوقت بما يدور حولك لتنسى ما يدور بداخلك، وفعلها معي كثيرًا.

لا تهمني أية تفاصيل الآن عن حياتي، حتى من سيقرأ هذه الأوراق لو كتبت لها النجاة ونشرت في يوم ما، سيجد أني لم أقل كثيرًا عن نفسي ولا عن حياتي السابقة، بدأت الأوراق منذ ركبت القطار لأنتهي هنا، وهناك، حيث لا زمن حقيقي، ولا ماضي ولا مستقبل، العبث، والاستمرار في العبث.

هبة وجنونها وغيابها وموتها، وعودتها من موت مزيف.

منال والمعجبون وآلاف التعليقات والمتابعين والمنتظرين لرواياتها.. خصوصًا بعدما نشرت صورتها لدى مصفف الشعر وهو مشغول بشعرها وهي تمثل أنها مشغولة بأوراق الرواية التي تكتبها، نشرت صورًا عديدة وهي تمسك أوراقًا أو تكتب في أماكن متعددة، الصورة المدهشة حقًا بالنسبة لي هي صورتها في حمام السباحة وقد وضعت

ملف أوراق بجوار الحمام وأطلت برأسها ممسكة القلم وتبدو وكأنها مستمرة في الكتابة، لم يدهشني التعليق منها على الصورة أنها تنهي رائعتها الأولى، ما أدهشني أكثر قدرتها على نزول حمام السباحة في هذا البرد.

وقلت ربما كان حمام سباح بمياه ساخنة، أردت أن أرسل إليها متسائلاً عن حقيقة الأمر، ولكني صمت.

فستانها الجديد تجربه مع مصمم أزياء جديد وهي تقول للناس والمعجبين أنها وحيدة «سنجل» كما يقولها شباب اليوم وتبحث عن الحب بشرط أن يكون الحبيب قادرًا على إهدائها عربة «بي أم دبليو». ضحكت كثيرًا وقلت لنفسي آه لو كانت موجودة في عز حسام أبو الفتوحات ما كان تركها لحالها قطّ.

يرتفع شخير العطار وأنا أكتب الآن، ويرتفع معه رنين هاتفي المحمول، كان المتصل سليم، رددت عليه بعد مدة، وأظهرت في صوتي التثاؤب، كنت أريده ألا يرغي كثيرًا حتى أستطيع العودة للكتابة، ولكنه قال أن لديه شيء سيفرحني، اتقد عقلي لكلماته واستعدت أذني لسماع أنه عرف مكان الشناوي، ولكنه قطع الحلم والخيال بأسرع ما يمكن وهو يضحك ويقول أنه سيكتب كتابه غدًا ويجب أن أكون أحد شهود عقد الزواج، لم أفهم في البداية عن أي زواج يتحدث،

ولكنه أخبرني أنه سيتزوج غدًا من سوسن، أردت أن أقول أي شيء، فلم أستطع، فصمت، سمعت سبابه عبر الهاتف وهو يقول أعلم فيما تفكر، ولكنها الأنسب لي، وقال وسط دعابة وبصوت لزج هل تتذكر صبحية، اللعنة! ما هذه الذاكرة وفي هذا الوقت؟

تذكرت تلك الفترة من حياتي عندما عرفت صبحية كانت في أواخر الخمسينات، سيدة متصابية تبحث عن شاب يملأ فراغ يومها، وكنت تائهًا في القاهرة بناسها وسكانها، وكان سليم وقتها معي نسكن شقة فوق السطوح ونتهرب من الحاج صاحب البيت في كثير من الأحيان عندما تختفي النقود الشحيحة في الأصل من بين أيدينا، وقتها ظهرت صبحية لأكون في حياتها حتى جاء الوقت الذي كان عليَّ الاستسلام فيه، ذهبت معها لشقتها في الزمالك وأنا مستعد لتقديم القربان الحي الذي هو أنا بين يديها، وعندما عادت بزجاجة الفودكا والكأسين وقميص نوم مفتوح يكشف عن ثدي مترهل وجسده شبع عليه الزمن وأكل، أصابني الاشمئزاز، ولم أستطع، وهربت من شقتها وكأن هناك طاعون بالداخل، ابتعدت لخمسة أشهر بعدها عن صبحية، شغلتني أمور الثقافة والفن وندوات الأصدقاء والمقاهي الثقافية؛ لأجوع مرة أخرى ولا أجد من يمد يد المساعدة، العمل نادر وقليل، وفي ليلة ذكرني سليم بصبحية وقال أن عليَّ زيارتها، وألا أهرب هذه المرة، وراح ينفخ في روحي سمومًا عديدة، حتى وافقت،

قال أنه سيجيء معي وسوف ينتظرني أسفل العمارة، وأنها لن تأخذ في يدي أكثر من ربع الساعة وسآخذ منها ما أريد، لا أعرف كيف طاوعته، ولكنه الجوع الذي كان يأكلنا وقتها، بالفعل صعدت وأنا أقدم ساقًا وأؤخر الأخرى، رننت الجرس، ففتح لي صبي صغير لا يتجاوز العاشرة، تنحنحت وأنا أسأله عن صبحية، فدعاني للدخول وهو يذهب مناديًا، «تيتا، تيتا» وصفعني صوت زاعق فجأة من داخل الشقة لم أنتبه له في البداية من شرودي، كان صوت شريط لشيخ من شيوخ الكاسيت التي انتشرت في تلك الفترة وكان يصرخ: لماذا لا تصلي؟ أردت الهروب مرة أخرى، ولكني وجدت صبحية أمامي بثوب يغطيها من رأسها لأسفل قدميها، دعتني للجلوس ورحبت بي بحذر غريب وقالت بعد قليل وهي تخفض صوت الكاسيت إن عليَّ أن أدعو لها بالشفاء فقد أصابها السرطان وهي ستحج الآن وتطلب من الله الغفران والشفاء، لم أعرف كيف انسحبت من أمامها وغادرت الشقة؟ كان سليم بالأسفل يحلم بالغنيمة ويعشم نفسه بوجبة عشاء وسيجارتي حشيش، ولكنه صدم عندما رآني أهبط سريعًا وأكاد أسحبه وأجري من أمام العمارة وهو يسألني عما حدث، وعندما أخبرته انهار في وسط الشارع يضحك كالمجنون، وظل الأمر مثار سخرية لعدة شهور. لماذا يذكرني بها الآن؟ يستفزني لأسبه وأشتمه، بالفعل نجح في ذلك وجاء صوته هادئًا وهو يقول: «سأنتظرك يا بتاع صبحية، لا تتأخر عن الثامنة مساء، تصبح على خير».

أثار تذكري لصبحية ذكريات وشجون كثيرة، كان العطار لا يزال يواصل شخيره المنتظم الذي يصلني من غرفته رغم أن الباب مغلق، تطلعت لجهاز اللاب توب الذي جلبته قبل أن أذهب ناحيته وأفتحه وأضعه على قدمي، وأدخل لحسابي على الفيسبوك، لا جديد، نفس الوجوه بنفس الأسئلة، بنفس السعار المتوحش لهذا العالم الافتراضي المجنون، وقعت عيني على صفحة الناقد والشاعر الكبير شعبان يوسف صدمني رؤية هذا المقال المكتوب، كان الأستاذ قد كتب على صفحته:

«كلاكيت»

في أواخر التسعينات، وفي المقهى الثقافى بمعرض الكتاب الدولي، حيث كانت تناقش رواية «هوس البحر» للإعلامية راوية راشد، وبعد أن أدلى النقاد بمداخلاتهم، طلبت إحدى الحاضرات في القاعة وسط حضور كبير، وبدأت الحديث بالتعريف بنفسها حيث إنها من محافظة الإسماعيلية، وأنها تقدمت برواية للهيئة المصرية العامة للكتاب منذ عامين، وعندما شعرت أن الرواية تأخر صدورها، بدأت تسأل عن مصيرها، ولكنها اكتشفت أن الرواية تاهت في أضابير الهيئة، وراحت تلحّ في السؤال عنها، فقيل لها بأن تحضر نسخة أخرى حيث إن النسخة الموجودة في الهيئة قد ضاعت، وليس لها أي أثر، وفي مفاجأة من العيار الثقيل، أعلنت الكاتبة بأن الرواية ظهرت بالفعل، ومنشورة،

وبتعديلات طفيفة، ولكن ذلك الظهور جاء معلنًا أن المؤلفة هي راوية راشد الماثلة بينكم الآن، وقررت المتحدثة بأن الرواية قد تم تسريبها وسرقتها، وأثار هذا الكلام جدلاً كبيرًا في القاعة، ثم انتقل بعد ذلك إلى الصحف والمتابعات الصحفية، ولكنه انعدم فيما بعد، وتم التشويش عليه بقوة، ورغم ضعف الرواية فنيًا، إلا أني فوجئت ببعض الدراسات والمقالات النقدية المطولة والمشيدة بالعمل؛ لدرجة أن مفكرًا من طراز خاص مثل الدكتور حسن حنفي، يخرج عن تخصصه الأول، وهو البحث في التاريخ والحركات والفلسفة الإسلامية؛ ليكتب دراسة أدبية عن الرواية بلغت ثلاث وثلاثين صفحة من مجلة القاهرة القديمة، أي تصل إلى حجم كتاب، وبالطبع كان ذلك من أجل التغطية الكاملة والشاملة على الواقعة المثارة، حيث إن السيدة راوية راشد أصبحت زوجة للدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب، ولا أتذكر هل كان ذلك الزواج في أثناء وقوع الواقعة، أم كان ذلك فيما بعد؟ ولكن ذلك ينم عن أنها كانت صاحبة حظوة عند الرئيس الأول للهيئة آنذاك، وبالطبع لم يكن حسن حنفي هو المروّج الأساسي للرواية، ولصاحبة الرواية، ولكن تطوّع آخرون بعملية الترويج والتسويق، ورحل سمير سرحان، وانفصلت راوية راشد عنه، وأعتقد أنها أصدرت رواية أخرى واحدة عنوانها «صمت الريح»، ثم كتبت كتابًا آخر عن جلال الدين الرومي، وصمتت تمامًا بعد أن ذهبت

إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وجدير بالذكر أن الأستاذة راوية راشد كانت إعلامية مرموقة في القناة الثالثة، عندما كان للقنوات المحلية نجومية مذهلة، ورغم أنها إعلامية بارزة في مجالها، إلا أنها كانت تسأل عن بديهيات ثقافية، فتسأل عما هي أهم الكتب التي أصدرها جمال الغيطاني أو أدوار الخراط أو بهاء طاهر، ويكتشف المرء أنها لا تعرف شيئًا عن هؤلاء الأعلام؛ لذلك كان ظهورها المفاجئ ككاتبة للرواية، مدهشًا إلى حد كبير.

تلك الحكاية القديمة، والتي حدثت في الهيئة المصرية العامة للكتاب، مرشحة للتكرار في الآونة القادمة، ولكن مع دار نشر خاصة، وأبطال آخرين، واعفوني من التفاصيل الآن!

كان المقال صادمًا بالنسبة لي، هل هناك من سرب الأخبار عني وعن منال، مستحيل!

اتصلت بمنال ثلاث مرات حتى جاءني صوتها مليء بالتثاؤب، سألتني وهي تتمطى عن سبب اتصالي في هذا الوقت، أخبرتها بالمقال الذي كتبه الناقد الكبير، وخوفي من تسرب اتفاقنا، ضحكت بشدة وقالت مستحيل أن يتسرب شيء من اتفاقنا، الأمر لا يعرفه إلا هي وفتحي وأنا، وفتحي ثقتها به بلا حدود، وقالت أن عليَّ أن أطمئن مؤكد أنه مؤلف آخر.

ابتسمتُ وأنا أنهي المحادثة وأقول لنفسي إذن كلنا أصبحنا للإيجار وتحت الطلب.

●●●

obeikandl.com

(١٥)

كما أن البدايات مختلفة النهايات دومًا تأتي أيضًا مختلفة.

كانت الندوة في معرض الكتاب، كان قد مرت شهور على نزول روايتي باسم منال، وكانت الخيمة ممتلئة عن آخرها، الجرائد خلال هذه الشهور أخذت تنشر الكثير من المقالات النقدية عن الرواية، نقاد متبرعون، وآخرون مدفوعون الأجر.

جلست في آخر الصفوف، بالأدق جلست في آخر كرسي، دومًا كطبعي دائمًا في تلك الندوات وبجواري فتاة جميلة تستكين يدي بين يديها سألتني لماذا جلسنا في الخلف رغم أنه كان باستطاعتنا أن نجلس في مكان أقرب حين حضورنا، فلم أجبها سوى بابتسامة رائقة حاولت رسمها بدقة على شفتي.

أحب أن أراقب الجمع من الخلف، وأتصور ما يدور في نفوس بعضهم، أعرفهم على حقيقتهم، وربما أكثر من أنفسهم، أدرك الزيف في كل تلك العلاقات التي تبدو أمام الجميع أنها ودية، أدرك صراعهم النفسي وخصوصًا الكتاب منهم فكلهم أنصاف آلهة وإن لم يعط أحد منهم لنفسه الحق ليقول أنه إله اللغة أو الكتابة أو السرد، جنون الكتاب شيء أعرفه وأدركه وأعيشه كل يوم تقريبًا. كنت قد

أعددت ملفًا لمنال بكل الإجابات عن أي تساؤل قد يدور في عقول النقاد، وحذرتها إن لم تقرؤه ربما تعثرت إجابتها، كنت عابثًا أكثر من الآخرين وأنا أرى منال في فستانها الضيق الذي يبرز مفاتنها، فيجعل العيون تنصب على الساقين الظاهرين والمكشوفين بوضوح أكثر من الكتاب الذي وضعت نسخ منه أمامها وأمام النقاد، كانت هناك حفاوة بالغة بالرواية، الكل يشيد بها، وبتراكيب اللغة، وبتمكن منال من الشخصيات وكيف استطاعت أن تضع اسمها وسط كبار الأدباء، البعض تكلم أن الرواية ستنافس بشدة عند ترشيحها للبوكر، وتكلم أحد آلهة الكتابة أنه لو كان في لجنة التحكيم لأعطاها الجائزة بلا تفكير، وكانت عيناه تفضحانه وهو ينظر للجزء المكشوف من صدرها. فتحي هو الآخر كان حاضرًا في الخيمة لمحته قبل الندوة ولم أقترب لأسلم عليه، غمز لي وهو داخل وعلى شفتيه ابتسامة تغريني أن أصفعه على وجهه.

قالت لي منال أمس في التليفون، أن هناك من سيرشح روايتها أو روايتي التي تحمل اسمها لجائزة الدولة التشجيعية، وقالت لو أن الأمر تم ستعطيني قيمة الجائزة المالية وستكتفي فقط بالهالة الإعلامية والفوز الأدبي المشرف، أي شرف تدعيه هذه الداعرة.

أنا أيضًا داعر لموافقتي على كل ما حدث، ولكن لم يكن أمامي طريق آخر وسط كل هذا الهوس بالكتابة وعبث الحياة بي.

الإسكندرية، أتذكرها الآن، وأتذكر لم غادرتها وأنا موافق على كل شيء. المفاجآت التي راحت تتتالى علي، كانت أشد قسوة مما كنت أتخيل.

كنت قد وافقت وقتذاك على الشهادة على عقد زواج سوسن وسليم، وكانت هبة لا تزال مختفية ولم أصل بعد لمكان الشناوي، وبدأت أفقد الحلم في العثور على نجوان.

انتهى الفرح الشعبي الذي أعده سليم بالنسبة لي مع ظهور المطرب واحتلال سليم وسوسن مكانيهما على المسرح، لم أعرف من أين أتى كل هؤلاء المعازيم. انسحبت ببساطة، أقلني تاكسي من أول الشارع، كنت أنظر للطريق في ملل عجيب، كنت أريد العودة للشقة لأخذ بعض الأشياء حتى أواصل الكتابة لدى العطار، وقتها لمحته يركب سيارته ويقطع الطريق المقابل، حاولت أن أشير للسائق أن يقف ولكنه لم ينتبه إلاّ بعد أن اختفت سيارته– كان مراد الشناوي بشحمه ولحمه، اللعنة!

اختفت السيارة بالفعل، ولكن شيئًا جعلني أقول أنني أخيرًا سوف أصل إليه فقد كان يقف بجوار السيارة شخص آخر أعرفه بالأدق، صبي أعرفه وعرض خدماته المشبوهة عليَّ أكثر من مرة، كان ذاك الصبي «أنص» الذي عرض عليَّ أخته الشمطاء «تيتي» في أول

وصولي للإسكندرية، ناديت عليه عدة مرات بصوت قوي وهو يمشي مسرعًا لا يعبأ بما يدور حوله، وعندما شعر بأحد يتبعه وينادي عليه توقف، نظر لي، وتعرفني بسهولة لم أكن أتوقعها، وسألني إن كنت غيرت رأيي وأريد تيتي، وقال أنه لا يعرف مكانها الآن فهي مخزنة.. سألته عن معنى مخزنة فقال إنها مخطوفة من عدة أطفال شوارع يحبسونها فترة يمارسون فيها الاغتصاب ثم يتركونها هذا اسمه تخزين.. وهمس بصوت ضعيف إنها حقيقة ليست أخته.. وسأل مرة أخرى إذا كنت أريدها فقلت له: لا، ولكني أريد شيئًا آخر منك إذا كان باستطاعتك، ابتسم وقتها ونظر في عيني وأنا أسأله عن مراد الشناوي ذلك الرجل الذي كان يقف هو بجوار سيارته منذ قليل، ابتسم وهو يقول لي: الكابتن، بالطبع أعرفه، الرجل شديد الكرم معي، بل لقد عزمني أنا وتيتي مرة على أكلة سمك في بيته منذ فترة طويلة، كالغريق تعلقت بكلمته. وأنا أخرج من جيبي خمسين جنيهًا لأضعها في يده وأقول له إن عليه أن يرشدني لبيت الكابتن، تطلع لي بعينين حذرتين وهو يقول إن السرقة ليس من تخصصه. والكابتن بالذات هو يحبه، ابتسمت في وجهه وأنا أقول له أني أيضًا أحب الكابتن وقد عزمني من فترة أيضًا على أكلة سمك، ولكني نسيت العنوان لعدم خبرتي بالإسكندرية وشوارعها، ومنذ فترة وأنا أبحث عن الكابتن لأودعه، وأريد أن أجلب له هدية وأشكره قبل مغادرتي

الإسكندرية، لم يصدقني «أنص» إلاّ عندما وصفت له شقة العطار من الداخل وزوجته وما بها من أثاث.

بعد ساعة تقريبًا كنت أقف أنا وأنص أسفل العمارة، منحت الفتى مائة جنيه مرة أخرى لدرجة أنه شك أني شخص مجنون، قال لي على الدور الذي به الشقة، وسألني لماذا لم أشتر الهدية في طريقنا للشقة؟! ثم هزّ رأسه وكأن الأمر لا يهمه وراح يركل حجرًا صغيرًا بقدمه وهو يمشي معطيني ظهره الذي تقوس رغم صغر سنه.

نجوان لا يفصلني عن معرفة مكانك سوى عدة سلالم، لا يفصلني سوى حديث مع أبيك سأحاول أن أكون حريصًا حتى أصل لإجابة لسؤالي عن مكانك دون أن أبدو غبيًا.

وجدت يدًا تربت بنعومة على كتفي لأنتبه، رفعت رأسي وعدت من سرحاني لأجدها تشير لمنال على المنصة، كانت منال تشير تجاهي بيدها وهي تشكرني لأني ساعدتها كثيرًا في المراجع والأماكن في أثناء كتابتها لروايتها، سمعتُ التصفيق، وابتسمت!

هناك، عدة سلالم، وباب الشقة، وجرس باب، إصبعي يضغط على زر الجرس بهدوء وتأن وكأني أخاف أن أجرح شيئًا سيكون طريقي إليك يا نجوان.

التصفيق يتعالى، هنا، هناك، قلبي يرتجف بقوة، هناك.

حيث أسمع خطوات تقترب من الباب، صوت سعال، سحبة مقبض الباب. عينان مندهشتان تلتقيان بعينين مندهشتين، أقف أمام مراد الشناوي، أبتسم في لهفة، يبتسم في هدوء، أمد يدي للمصافحة، يمد يده ويتلقى يدي، يفسح لي المكان لأدخل، يرحب بي ويقول كلامًا كثيرًا مرحبًا، لا تتسع أذني لأسمعه. كنت أحلق بكياني كله في عالم آخر، أخيرًا وجدتك يا شناوي، أخيرًا!

التصفيق من حولي مرة أخرى، ألا يملون التصفيق!

أنظر لجارتي وأبتسم، فتضغط على يدي برفق، هنا!

هناك وقفت متسمرًا في صالة بيت الشناوي، أتأمل أركانها وأحاول استيعاب كل شبر فيها، لا أثر لزوجته، سألته عليها بالتأكيد، جلست عندما دعاني للجلوس، سألني لماذا لم أزره طوال المدة السابقة ما دمت موجودًا في الإسكندرية، شرحت له أني لم أتذكر العنوان، وكنت أرغب في زيارته كثيرًا، وأننا قد نسينا أن نتبادل أرقام الهواتف المحمولة ولولا أني لمحته اليوم في الإشارة مع هذا الصبي الصغير أنص الذي دلني عليه ما كنت عرفت مكانه، بدا مندهشًا لاهتمامي بزيارته لهذه الدرجة ولكنه صمت عندما أنهيت كلامي لوهلة، هز رأسه، رحب بي مرة أخرى وقال أنه سيعد الشاي، وسألني إذا كنت أرغب في مشروب آخر غير الشاي، فهززت رأسي بلا.

هنا أتى صوتها هامسًا في أذني وهي تقبض على يدي بيديها الاثنتين وهي تشير لمنال وتقول: يبدو عليها الغرور كثيرًا، شكلها أقرب لراقصة منه لكاتبة. فابتسمت وأنا أربت على يدها.

هناك يخرج من المطبخ يحمل صينية عليها كوبين من الشاي، يضعهما أمامنا، يبتسم مرة أخرى مرحبًا، يأتي الوقت لأتنحنح وأسأله عن أخباره وأخبار زوجته، يقول أنهما بخير وفي أحسن حال، زوجته نائمة الآن، أريد أن أسأله عن سبب أنها قعيدة، أبتلع السؤال بداخلي لفترة، ثم أرشف الشاي، مذاق الشاي رائع، أشعر بارتياح لنظرات الشناوي الهادئة، أجره في أحاديث جانبية كثيرة، أخيرًا تأتي الفرصة وسط الكلام لأسأله عنك يا نجوان، وأنا أرسم ابتسامة هادئة حريصة على شفتي، أسأله هل اقترب موعد وصولك من ألمانيا؟ وهل أنهيت تعليمك هناك؟ وهل ستستقرين هنا؟ وستعملين في الجامعة؟ بدا وجه الشناوي يتغير مع كل سؤال عنك، ثم ترقرقت الدموع في عينيه، فتمهلت، وسكت، قال أنه آسف أنه لم يوضح لي الأمر في المرة السابقة، لم أعرف سبب أسفه، ربما قرأ شوقي ولهفتي عليك يا نجوان في عينيّ، وتابع بهدوء وهو يمسح عينيه من أثر دمعات تفر رغمًا عنه وقال أن نجوان تستقر بالفعل في مصر منذ عشر سنوات. تستقر هادئة مستكينة بعيدة عن العالم بكل شروره، فقد ماتت هناك في ألمانيا منذ عشر سنوات على يد متعصب أرعن، وأنه

في المرة السابقة عندما حكت لي زوجته هنا لم يرد أن يوقف حكيها أو يقول الحقيقة لأن زوجته منذ ماتت نجوان وهي مشلولة، ترفض التصديق، بالنسبة لها نجوان ما زالت في ألمانيا، تدرس وستأتي بعد ستة أشهر، هكذا حالها دومًا، تنتظر عودة غائبة عادت منذ فترة طويلة واستقرت في مقبرتها في مدافن عمود السواري.

لم أعلم أي عالم فتح أمامي عيني وأين ذهبت بعقلي وأنا أسمع من بين شفتي أبيك يا نجوان أنك هناك، حيث النهاية، وحيث لا أستطيع الوصول إليك مهما حاولت، لاحظ الشناوي الدموع التي بدأت تنسال من عيني، فراح يربت على كتفي وهو يقول أنه آسف لهذه الموقف الدرامي، إنه يعرف أن المؤلفين دومًا لديهم شعور مرهف، إنه لا يعرف شيئًا، لا يعرف شيئًا!

أهذه هي النهاية التي كنت أنتظرها؟! لا أعلم كيف ودعت الشناوي واستأذنته أن ألقي نظرة على صورتك المرسومة قبل انصرافي، كنت أريد أن أحفرها بداخلي، أن أشبع منك، فرقني عنك متعصب أجنبي، وفرقتنا عشر سنوات وأنت تسكنين المدافن، بل تسكنين باطن الأرض.

ما الذي كنت أنتظره حقًا؟! أن تبتسم الحياة لي فأجدك يا نجوان، ونتبادل الحب ونعظمه، أتزوجك وننجب طفلين، أهكذا كنت أظن؟! أي أحمق كنت! الحياة دومًا هكذا، فلماذا أريدها أن تبتسم لي الآن؟!

التصفيق يتصاعد بشدة والناقد الكبير يناقش روايتك يا منال، روايتك، روايتي. لن يكون هناك شيء أشد قسوة الآن، صلعته الكبيرة تلمع في عيني، وللحظة تصورت أني سأقف لأضربه على صلعته وأقول له أنت حمار، حمار كبير!

هناك، هناك، هناك، أبعد مما أخذتني قدماي من قبل، أراك تعبرين الطريق وأرى ذاك المتعصب الغبي يتابعك، يخفي مدية في ملابسه، يخرجها وأنتِ تدخلين الشارع الذي تسكنيه بخطوات هادئة، يرفع المدية ويطعنك من الخلف يا نجوان. مستحيل أن يكون طعنك ووجهك في وجهه، وعيناك في عينيه، مستحيل لو حدث لهرب كل الخبث والتعصب من عينيه، ولركع تحت قدميك يطلب منك العفو، وربما الزواج، حقًا ما كان لمثلك أن يعيش وسط كل هذا الزيف، فلترقدي يا حبيبتي في قبرك، هادئة، قريرة العين بعيدًا عن كل هذا الخبث والخبائث.

هنا، حيث الناقد ما زال يشيد بالرواية، وهناك بعد عودتي لبيت العطار مصحوبًا باليأس، أفرغ كل يأسي وتعبي وحرقة قلبي في أوراق الرواية، يومان تقريبًا بلا نوم حتى انتهيت من الكتابة، تطلعت للنسخة النهائية وكنت راضيًا، أرسلتها لمنال عبر البريد الإلكتروني، فراسلتني بعدها بدقائق شاكرة وتسألني عن مكاني، قلت أني الآن لا أريد المكوث في الإسكندرية لترسل فتحي ليأخذ اللاب توب، فقالت منال في كرم حاتمي أنه لي الآن، وسترسل لي مبلغًا أكبر غدًا مع فتحي،

هناك، ودعت فريد العطار، وطلب مني أن أزوره وألاّ أنساه، وأنه سيداوم الاتصال بي، وإذا غاب لفترة عليَّ أن أعلم أنه مات، سألته قبل انصرافي لآخر مرة عن الحكاية التي كان يهمه أن أسمعها منه، فقال لي: لا تشغل بالك، فكل الحكايات تتشابه!

هناك وأنا أجمع أشيائي لمغادرة الشقة المفروشة، جاءني اتصال من هبة، كانت تضحك بشدة وهي تقول أني صدعتها باتصالاتي، في تلك اللحظة كنت مستعدًا للهزيمة أكثر، قالت أنها تزوجت من ذلك المسئول عن مهرجان المسرح وأنها تقضي أيامًا سعيدة بشرم الشيخ، ضحكت وهنأتها على فوزها المقدم، كلنا مزيفون، قالت أنها في بداية علاقتها بي، وكانت تقصد لقاءاتنا الجنسية كانت تريد الانتقام مني أن أتعلق بها وتتركني، كانت ترى أني أستحق هذا لأني لم أحذرها من محمود عندما كانت هناك فرصة لذلك، ولكن بعد فترة اكتشفت أنه انتقام مزيف غير حقيقي، فبعدت واختارت طريقًا آخر، هنأتها مرة أخرى على شطارتها وفهلوتها، وعدتني أن تعزمني على عرضها الأول، وربما طلبت مني أن أعزم محمود هو الآخر، فهي ترى أن تعفو عن الجميع الآن، وتبدأ حياتها من أول وجديد، ودعتني بضحكة وودعتها بضحكة، اتصلت بداليا وأنا في القطار، اعتذرت لي عما فعلته بي في الإسكندرية وقالت أنها الآن في طريقها للزواج بمحام تعرفت عليه وكان يمسك لها قضية طلاقها، فهنأتها وأغلقت هذا الخط.

هنا والآن ارتفع التصفيق الأخير في الندوة، تأملتني وهمست: ألن ننصرف؟!

أخذت يديها في يدي وقمنا وأنا أقول بالطبع سننصرف يا إلهام، أمك لا تحب التأخير، المحل يجب أن يفتح... هيا بنا.

فهذا العالم لم يعد عالمي بعد.

داعبت الدبلة في أصابعها وكأنها تؤكد امتلاكها لي.

خطوات وأغادر معرض الكتاب ألمح مئات الكتب المرصوصة في أماكنها ومنافذ التوزيع، وأبتسم فلم يكن لي كتاب واحد في المعرض هذه المرة بل كتابين وبأسماء اثنين غيري، منال، وذاك الآخر.

عفوًا لن أذكر اسمي في النهاية، فأنا لا أريد أن أفقد مصدر رزقي الآن، فأهم شيء السرية.

كنت حريصًا قبل مغادرتي أن أرى الكتاب الآخر، وأقلبه بين يدي وأضعه في مكانه على الرف بالجناح وبجواره كلمه الأعلى مبيعًا، يلمع غلافه في وجهي وأنا أغادر وعنوانه الذي اخترته له، يداعب ذهني.

«مؤلف للإيجار»

محمد إبراهيم محروس

لم تتم الحكاية بعد....

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikandl.com